محاضرات في
تاريخ
المغرب والأندلس

دكتور
صلاح خليل سلام
كلية الآداب - جامعة حلوان

٢٠٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تعتبر دراسة تاريخ المغرب والأندلس من الدراسات الشيقة والغنية فهي كنز لا ينضب ، حيث تلقى الضوء على الناحيتين السياسية والحضارية لمن يهمه دراسة هذين القطرين من الدارسين والباحثين خاصة فى مجال التاريخ الإسلامى .

ومن ثم فأنه يسعدنا أن نقدم إلى طلابنا فى هذا الكتاب دراسة موجزة لتاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامى . وبلاد المغرب تشمل كل ما يلى مصر غرباً وتدخل فيه الصحراء الأفريقية الكبرى ، والأندلس وهو شبه جزيرة أيبريا ويضم حالياً أسبانيا والبرتغال.

وقد قسمنا هذه الدراسة إلى قسمين :

الأول : لبلاد المغرب . كان من الطبيعى ، وقد إستكمل المسلمون فتوح بلاد الشام وضمها إلى الدولة العربية الإسلامية ، أن يوجه المسلمون أنظارهم إلى بلاد المغرب التى كانت تعانى من وطأة حكم الرومان الذين كانوا يمثلون وقتئذ خطراً داهماً على الوجود الإسلامى فى بلاد الشام والجزيرة العربية ومصر . والحقيقة أن هذا كان يدور بخلد عمرو ابن العاص الذى رنا ببصره نحو بلاد المغرب فأرسل طلائعه فى إطار التجربة الإسلامية للفتح الإسلامى لبلاد المغرب بعد أن فتح مصر .

ويرجع الفضل لعمرو بن العاص فى الفتح الإسلامى لبلاد المغرب ، حيث تعتبر فتوحاته بالمغرب بداية العمود الفقرى للفتوحات الإسلامية فى بلاد المغرب والتى إنتهت بإستكمال هذه الفتوحات على يد القادة المسلمين بعد ذلك .

وقد كان فتح المغرب من الفتوح الحاسمة التي إستتبعت معها نتائج بعيدة الأثـر في تاريخ الشرق والغرب .. منها فتح الأندلس وما نتج عن ذلك من قيام حضارة إسلامية في أرض أوربا ، وفتح جزيرة صقلية مما جعل المسلمون يغيرون علـى جنـوب إيطاليـا ، وسيطرة المسلمين على غرب البحر المتوسط بضعة قرون ، فضلاً عن إعتناق معظم سكان المغرب الدين الإسلامي وإنتشار اللغة العربية لغة الدين والثقافة بين البربر .

وقد رأينا أن تلقى الدراسة الضوء على تاريخ المغرب منذ الفتح العـربي للمغـرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حتى نهاية الدولة الموحدية .

والقسم الثاني : لبلاد الأندلس ، فقد سطّر المسلمون صفحات تاريخية حضارية في تلك البقعة الساحرة الضاحكة من الجنوب الغربي لأوربا ، منذ فتح المسلمون الأندلـس ، وعصر الولاة والنزاع الداخلي في هذا العصر ثم عصر الإمارة الأموية وقيام الخلافة الأموية بالأندلس . بيد أن هذا الصرح الشامخ الذى شاده بالأندلس أمراء البيت الأموى وخلفاؤه تقوض منذ القرن الخامس الهجرى وظهر ما يعرف بعصر ملوك الطوائف والصـراع بـين رؤساء الطوائف وسقوط طليطلة وحتمية التدخل المرابطي وإنهاء نظام الطوائف في الأندلس التي دخلت تحت راية المرابطين ثم الموحدين وقد سطر بنو الأحمر آخر صفحة من صفحات نضال الأمة الإسلامية في بلاد الأندلس .

ولاشك أن الفتح الإسلامي لأسبانيا إستتبعه إعتناق معظم الإسبان الدين الإسلامي، وأخذت الحركة العلمية تنشط في الأندلس . وإذا أخذنا نراجع العلوم والعلمـاء طـوال القرون الإسلامية في الأندلس لاحظنا أن الحضارة الإسلامية في الأندلس كانت تمثل منـارة من منارات العلم في العالم الإسلامي وفي نفس الوقت تمثل قطعة حية من كتلة الحضـارة العالمية وقتئذ خلال ثمانية قرون .

جغرافية بلاد المغرب

يطلق مصطلح بلاد المغرب كما أشرنا سالفاً على البلاد الإسلامية الممتدة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي غرباً ويشمل ليبيا وتونس والجزائر ومراكش . وبلاد المغرب تعتبر من الناحية الطبيعية الجغرافية والمناخ إقليماً له طابعه الخاص ، فهي ترتبط بأقسامها الجغرافية إرتباطاً وثيقاً لوجود جبال الأطلس وهي سلسلة جبال تمتد من جنوب المملكة المغربية من الغرب إلى الشرق ، ومناخ المنطقة الشمالية لهذه الجبال مناخ البحر المتوسط ، أما المنطقة الجنوبية لجبال الأطلس فيدخل ضمن نطاق المناخ الصحراوي .

وبلاد المغرب تتوافر فيها موارد إقتصادية يمكن إستغلالها إستغلالاً جيداً خاصة زمن الإستقرار حيث قامت فيها دول كبرى كان لها دور كبير في التاريخ الإسلامي مثل الدولة الفاطمية ودولة المرابطين ودولة الموحدين .

وقد اصطلح على تقسيم بلاد المغرب إلى ثلاثة أقاليم هي :

١ – **المغرب الأدنى** : سماها العرب بالمغرب الأدنى لأنها أقرب إلى بلاد العرب وعاصمة الخلافة بالحجاز والشام والعراق ، ويضم المغرب الأدنى المنطقة الممتدة من إطرابلس حتى بجاية أو تاهرت غرباً . وكانت تسمى أفريقية وكانت قاعدته مدينة القيروان في صدر الإسلام ، وإشتمل على عدة مدن أهمها : بنزرت وسوسة وباجة .

٢ – **المغرب الأوسط** : ويمتد من تاهرت حتى وادي ملوية ، وجبال تازا غرباً ، وقاعدته مدينة تلمسان . ويشتمل على عدة مدن أهمها طبنة ، ومليلة .

٣ - **المغرب الأقصى** : يمتد من وادى ملوية وجبال تازا حتى المحيط الأطلسى ، وقد يطلق إسم السوس على الجزء الغربى المطل على المحيط الأطلسى من بلاد المغرب ، وينقسم إلى قسمين : السوس الأقصى ويضم سلسلتى الأطلس " أطلس الكبرى " فى موازاة جبال أطلس التل ، وإلى الجنوب منها سلسلة أخرى صغيرة يسميها ابن خلدون بجبال " دَرَن " وما جنوبهما وغربهما حتى سجلماسة ، والسوس الأدنى ويشمل الجزء الشمالى من مراكش، وتمتد فيه جبال الريف وهى جبال متوسطة الإرتفاع تتخذ شكل قوس والفرع الأساسى من هذه السلسلة يمتد من المحيط شمال وادى سوس نحو الشمال الشرقى ويعرف بإسم أطلس التل ، ويشتمل السوس الأدنى على عدة مدن منها : فاس ومراكش .

أما لفظ **أفريقية** فهو مشتق من كلمة أفرى التى أطلقها الفينيقيون على سكان عاصمتهم قرطاجنة " المدينة الحديثة " ، وأوتيكا " المدينة القديمة " ثم عممه اليونانيون بعد ذلك فأطلقوه على سكان المغرب الكبير من برقة حتى ساحل المحيط الأطلسى . ومن ثم سميت هذه المنطقة أفريكا ، أى بلاد الأفرى ، فلما غلب الرومان الفينيقيين على هذه البلاد أخذوا عنهم هذه التسمية فأطلقوا إسم ولاية أفريقية على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا. ثم إتسع معنى هذا اللفظ فى العصر البيزنطى فكانت أفريقية تشمل كل ما دخل فى طاعة البيزنطيين من برقة إلى طنجة . ثم أخذ العرب لفظ أفريقية عن البيزنطيين وأرادوا به فى أول الأمر كل ما يلى مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسى ولكنهم إستثنوا من ذلك برقة وطرابلس ، إذ إعتبرهما معظم المؤرخين ولايتين قائمتين بين مصر وأفريقية . ثم أخذ لفظ أفريقية يضيق فإقتصر على ما يلى مصر غرباً حتى بُجاية ، أى أنه ضم تونس ونصف مقاطعة قسطنطينة الحالية ، ثم يلى ذلك المغرب حتى المحيط الأطلسى ومن ثم بدأ لفظ المغرب فى الظهور .

أما لفظ **المغرب** فقد أراد به الذين إتخذوه كل ما يقابل المشرق من البلاد ، بينما قصره طائفة أخرى على المغرب الحالى . وعلى أية حال فقد أطلق أغلب الفاتحين المسلمين لفظ المغرب على شمال غرب أفريقية منذ القرن الأول الهجرى حيث اعتبر العرب عاصمة الخلافة

العرب عاصمة الخلافة مركزا للبلاد الإسلامية وقسموا الأقاليم أو الولايات التابعة لهم إلى شرق وغرب بالنسبة لعاصمة الخلافة . وعلى ذلك أطلق العرب إصطلاح بلاد المغرب ليشير إلى موقع بلاد شمال أفريقية الذى يقع غرب عاصمة الخلافة الإسلامية .

سكان المغرب

أما سكان المغرب فيمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أنواع من السكان لكل نوع سماته ومميزاته :

١ - **الروم (البيزنطيون)** : وقد فتحوا بلاد المغرب سنة ٥٣٣ م ونجحوا فى إنتزاعها من الوندال ويمثلون الطبقة الحاكمة للمناطق الساحلية للمغرب وقد بنوا الحصون والمعاقل التى تحميهم من خطر المقاومة الداخلية ، وكانت الإمدادات تصل إليهم عن طريق البحر وبمرور الوقت إمتزجوا بالسكان وإشتغل بعضهم بالتجارة والبعض الآخر بإستثمار الأرض وزراعتها ، وقد نجحوا فى نشر الديانة المسيحية بين بعض عناصر سكان بلاد المغرب وإستمروا يحكمون المغرب حتى طردهم العرب منها.

٢ - **الأفارقة** : وهم أخلاط قليلة من المستعمرين اللاتين والوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية وبقايا شعب قرطاجنة وكانوا يدينون بالطاعة والولاء للبيزنطيين وعاشوا مختلطين بالبربر المتحضرين ، وقد عملوا فى مجال الزراعة والصناعة .

٣ - **البربر** : وينقسم البربر إلى قسمين كبيرين من الوجهة الإجتماعية : -

أ - البربر البدو ، ويسمون بالبتر .

ب - البربر الحضر ، ويسمون بالبرانس .

والبربر هم العنصر الغالب فى بلاد المغرب ، ولفظ بربر لا علاقة له بلون البشـــرة وإنما هو لفظ إغريقى أطلقه اليونانيون على كل من لايتكلم اللغة الإغريقية وقد كـــانوا يسمونهم برباروى وعربت إلى بربر وبرابر.

والبربر هم سكان المغرب الأصليون . وقد إختلف المؤرخون فى إثبـــات وطنـــهم الأصلى فمنهم من يذكر أن البربر شعب أفريقى سكن هذه البلاد من أقدم العصـــور ، كما يرى الدكتور حسين مؤنس . ويعتقد البعض الآخر أن البربر وفدوا مـــن أوربـــا ومنهم من يزعم أنهم قدموا من آسيا فى عصر ماقبل التاريخ كما يروى الدكتور الســـيد سالم ، ونلاحظ أن البربر هم سكان بلاد المغرب منذ أقدم العصور كما يرى الدكتـــور حسين مؤنس . وأما البربر أنفسهم فلا يطلقون على أنفسهم هذه التسمية بل يعرفـــون بأسماء قبائلهم .

والبربر الحضر يسكنون بصفة عامة الشريط الساحلى والسفوح الشمالية لجبـــال الأطلس وتنتشر بينهم شقرة الشعور وبياض اللون وزرقة العيون وخاصة بـــين أهـــالى الجبال .

وينتسب البرانس إلى برنس بن بر الذي يرتفع نسبه إلى حام بن نوح . وينقســـم البرانس إلى سبع قبائل كبرى هى : أوربة ، وصنهاجـــة ، ومصمـــودة ، وأوريغـــة ، وكتامة ، وأزداجة ، وهسكورة . ومن أشهر القبائل البرنسية قبيلة كتامة التى إنتشـــرت فى شمال شرقى المغرب الأوسط وعلى أكتافها قامت الدولة الفاطمية . ثم قبيلة صنهاجـــة فى المغرب الأوسط الذين شاركوا فى إقامة الدولة الفاطمية وإقامة دولتا بنى زيرى بـــن مناد وصنهاجة الصحراء الذين أقاموا دولة المرابطين ثم قبيلة مصمودة فى المغرب الأقصى الذين أقاموا دولة الموحدين .

أما بربر البتر فينتسبون إلى مدغيس بن بر الملقب بالأبتر ، وينقسم بربر البتر إلى أربع قبائل هى : ضريسة ، ونفوسة ، ولواته ، واداسة . وتنقسم ضريسة إلى فخذين : مكناسة وزناته . وهم يسكنون في السهول المرتفعة أو المنخفضة وعلى الهضاب التى تمتد من طرابلس إلى تازا وينتشرون في أقاليم النخيل التى تمتد من داغمس إلى السوس الأقصى ويألفون غالبية سكان البوادى وعاشوا فى الصحراء كما سكنوا المناطق الجبلية. وأكبر قبائل البدو وأشهرها زناته ولهذا غلب عليها هذا الإسم العام رغم تفرعها إلى بطون كثيرة .

ويجب التنويه هنا إلى أن العداء بين البرانس والبتركان متأصلا منذ القدم ويرجع السبب الرئيسى إلى العداء بين البدو والحضر إلى العامل الإقتصادى ، فقد سكن البتر فى المناطق الداخلية الصحراوية على عكس البربر البرانس الذين عاشوا فى المناطق الساحلية ذات المرعى الوفير والزراعة على مياه الأمطار والأنهار ، فالبتر يشنون الغارات على البرانس فى مدنهم العامرة وسهولهم الخضراء يدفعهم إلى ذلك العامل الاقتصادى .

وقد إستغل الرومان هذا الخلاف لمصالحهم الذاتية فوسعوا هوة الخلاف بينهما وتمكنوا بذلك من السيادة عليهم وتثبيت أقدامهم فى البلاد . وعند الفتح الإسلامى تقارب البتر من العرب على حين حمل البرانس عبء المقاومة مع الجماعات المعارضة للفتح الإسلامى .

وللبربر لغة خاصة بهم ، وهى لغة حامية قريبة كل القرب من لغة قدماء المصريين التى لاتزال فى بلاد النوبة وفى بعض الكنائس القبطية فى مصر.

المغـرب قبـل الفتـح الإسـلامـى

تعرضت بلاد المغرب وسواحلها الممتدة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى لموجات من الغزو الرومانى الوندالى البيزنطى . وسوف نعرض هنا عرضا سريعا لأهم هذه الموجات .

ذلك أن الفينيقيين الذين اشتهروا بثرائهم التجارى قد أسسوا كثيرا من المستعمرات التجارية على شواطئ المغرب مثل سوسة وبنزرت وعنابة وطنجة ، ويقترن اسم الفينيقيين بمستعمرة قرطاجنة عاصمتهم بشمال افريقية ووطدوا نفوذهم فيها بعد سقوط دولتهم فى بلاد الشام على أيدى الأشوريين ، وصارت قرطاجنة إمبراطورية قوية وخاضت هذه الإمبراطورية الحروب المشهورة فى التاريخ (بالحروب البونية سنة ٢٦٤ ق.م) ودخلت فى صراع طويل مع اليونانيين والرومان وأخيرا إستولت روما على أملاك قرطاجنة فى أفريقية سنة ١٤٦ ق.م .

ويسجل سقوط قرطاجنة بداية عهد الاحتلال الرومانى لبلاد المغرب . فاتجه الرومان لبناء المدن على السواحل وأيضا فى داخل بلاد المغرب لإتخاذها مقرا للحاميات الرومانية ، وقد حاول الرومان عن طريق هذه المدن نشر حضارتهم وإجتذاب كثير من البربر ولكنهم لم يجدوا استجابة من سكان البلاد خاصة وأن روما قد عهدت بحكومة أفريقية إلى سلسلة من الحكام القساة ، كانت مهمتهم الدفاع عن الحدود ضد غارات القراصنة وتوطيد الأمن والإستيلاء على خيرات المغرب فقد اعتبر الرومان المغرب مزرعة يجنون ثمارها وظلت كذلك حتى غزاها الوندال سنة ٤٢٩ م .

والوندال قبائل جرمانية كانت تعيش على سواحل بحر البلطي ثم هاجرت نحو الجنوب ودخلوا فى صراع مسلح مع الإمبراطورية الرومانية وإستطاعوا إنتزاع معظم مستعمراتها وخاصة قرطاجنة فى ١٩ أكتوبر سنة ٤٣٩ م . ونجحت هذه القبائل فى تمزيق الإمبراطورية الرومانية التى إنقسمت تحت تأثير ضربات جيوش خنصريك زعيم الوندال إلى دولتين : الدولة الرومانية الغربية ، والدولة الرومانية الشرقية والتى عرفت فيما بعد بالدولة البيزنطية وقد أطلق عليها العرب دولة الروم .

وعندما ارتقى جستنيان عرش الامبراطورية البيزنطية كانت أعظم أمانيه إسترجاع أملاك الدولة الرومانية فى بلاد المغرب . وتمكن القائد الرومانى بليزاريوس من إستعادة قرطاجنة وهزيمة الوندال فى ١٥ سبتمبر سنة ٥٣٣ م . وبإستسلام جليمار زعيم الوندال للامبراطور البيزنطى تم إسترجاع معظم بلاد المغرب والقضاء نهائيا على دولة الوندال ورفع جستنيان أفريقية إلى مصاف ولايات الدولة البيزنطية الكبرى .

ولم تختلف سياسة البيزنطيين عمن سبقهم من الوندال من حيث التعسف فى فرض الضرائب إذ إنصرفت جهود قوات الدولة البيزنطية منذ الأيام الأولى للفتح البيزنطى للمغرب إلى جمع الأموال بشتى الوسائل وإلى إحتكار الأرض ونهب الجند وقوادهم وحكام البلاد للاهالى وأدى ذلك إلى إرهاق السكان بالضرائب مما دفع المزارعين إلى التخلى عن أرضهم ، وإضطر التجار إلى غلق متاجرهم وتصفية تجاراتهم . وإحترف كثير من الناس أعمال السلب والنهب مما أدى إلى كثير من الفتن والثورات ضد حكام الإمبراطورية البيزنطية فى بلاد المغرب للتخلص من ظلمهم .

وبصفة عامة لا ينبغى أن يفهم أنه نتيجة قيام علاقات سيئة بين الرومان والوندال والبيزنطيين كحكام وبين الأهالى كمحكومين أن تلك الأمم لم تخلف وراءها آثار حضارية بل تركت بصماتها على حياة البربرخاصة فى المناطق الساحلية والمدن ويتضح ذلك من التحصينات المعمارية التى قاموا بها وإهتمام بعضهم بالثقافة والفنون .

أما أهم العوامل التى مهدت للفتح العربى والقضاء على بقايا البيزنطيين فى بلاد المغرب الذين إنحصرت أملاكهم فى المنطقة الشمالية حتى إقتربت حدودهم من الساحل وأصبحت لاتعدو شريطا ضيقا يمكن إجمالها فى العوامل الآتية :

١ - سوء الإدارة البيزنطية وكثرة الإضطرابات والفتن حتى أن الناس أصبحوا لايأمنون على أموالهم ولا أنفسهم .

٢ - ضعف الدولة البيزنطية بموت جستنيان سنة ٥٦٥ م وصراعها مع الفرس وقبائل الهون ، وإنتصار الفرس على البيزنطيين .

٣ - وحشية الولاة والقادة البيزنطيين فى معاملة البربر.

٤ - قيام البربر بثورات متعددة ضد الوجود البيزنطى ، وسوء معاملة الثوار بعد القبض عليهم .

٥ - كثرة الضرائب التى فرضها الروم على أهالى بلاد المغرب .

٦ - نظام الإحتكار الذى فرض على الأراضى الزراعية وتحويل ملاك الأراضى والمزارعين إلى أجراء .

٧ - الصراع المذهبى ومحاولة فرض مذهب السلطة الحاكمة بالقوة إذ إعتنق سكان أفريقية المذهب الأريوسى الذى يعتقد بوجود إرادة بشرية للسيد المسيح عليه السلام ، واعتنقت السلطة المذهب الكاثوليكى الذى يرى أن للمسيح إرادة واحدة ألهية وبشرية فى آن واحد ، مما أثار عاصفة من المعارضة سنة ٦٣٨ م عندما أيد هرقل هذا المذهب الجديد وأدى ذلك إلى إنشقاق كثير من الأساقفة عن مذهب الدولة وإنتهى الأمر إلى قيام صراع كبير بينهم كما صار الأهالى على الإمبراطور وأنكروا مذهبه .

وعندما تولى كونستانس الثانى العرش سنة ٦٤١م بعد وفاة قسطنطين الثالث بن هرقل ولما كان الأسقف مكسيموس من ألد أعداء المذهب الكاثوليكى فإنه لم يأل جهدا فى دفع معظم سكان المغرب وقبائل البربر إلى محاربة الإمبراطور البيزنطى وتنصيب البطريرك جريجوريوس الثانى على العرش . إلتف الناس حول جريجوريوس لما كان بيديه من كفاية وعدل . وكان أهل برقة وطرابلس أول من أيده فى الإنفصال عن الدولة البيزنطية .

وكما ذكرنا من قبل فقد ساعدت العوامل السابقة البطريرك جريجوريوس الذى كان يسميه العرب جرجير أن يعلن إستقلاله عن الدولة البيزنطية سنة ٦٤٦ م وتلقب بالإمبراطور وإتخذ لنفسه عاصمة هى سبيطلة وتقع جنوبى القيروان بدلا من قرطاجنة القريبة من ساحل البحر المتوسط حتى يحتمى من غارات البيزنطيين .

وفى عهد جريجوريوس تم للعرب إرسال الموجات الأولى لفتح بلاد المغرب حيث فوجئ جريجوريوس بطلائع جند العرب تدخل إقليم برقة بقيادة والى مصر عمرو بن العاص لتبدأ صفحة جديدة من صفحات تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى .

الفتح العربى لبلاد المغرب

لما أتم عمرو بن العاص فتح مصر فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بمعاهدة الإسكندرية فى ١٦ شوال سنة ٢١ هجرية / ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م . ودان له أهلها من القبط والروم بالطاعة والجزية . وإستقر عمرو بن العاص فى عاصمته الجديدة الفسطاط . إلتفت عمرو ذلك الفاتح العظيم إلى برقة لتأمين حدود مصر غربا من خطر البيزنطيين بإعتبار أن برقة كانت تعتبر إمتدادا لمصر وإقليما متمما لها . ورغبته فى تطبيق سياسة الإستمرار فى الفتح نحو الغرب لنشر الدين الإسلامى من ناحية ، وإلتماسا للمغانم من ناحية أخرى .

وإتفق معظم المؤرخين على أن الفتح العربى للمغرب كان يتصف دون الفتوحات العربية الأخرى بالصعوبة الشديدة نتيجة مقاومة أهل تلك البلاد الذين لايرضون بالضيم ولايرضخون للذل ، وقد ساعدتهم طبيعة بلاد المغرب الجبلية ووعورة مسالكها على مقاومة العرب الفاتحين ، فبالرغم من أن حرب العراق وفارس والشام ومصر لم تستغرق من العرب إلا أقل من عشر سنوات ، نجد أن فتح المغرب إستغرق نحو سبعين سنة قضاها العرب فى صراع مرير عرفوا خلالها حلاوة الإنتصارات وذاقوا فيها مرارة الهزائم .

وفيما يتعلق بفتح العرب لبلاد المغرب نجد أن هذا القطر لم يدخل فى حوزة الإسلام بحرب واحدة بل بسلسلة من الحروب بدأت بحملة إستطلاعية بقيادة عقبة بن نافع فى سنة ٢١هـ/ ٦٤١ م وإنتهت بحملة موسى بن نصير والى أفريقية من قبل عبد العزيز أبن مروان والى مصر والتى أخضع فيها المغرب الأقصى سنة ٩٠ هـ/ ٧٠٨ م .

وقد إستتبع طول زمن الفتح وصعوبة تأريخ هذه الفترة ، إختلاف المؤرخـــون فى تقسيم المراحل الزمنية والعسكرية للفتح العربى للمغرب فبعضهم يذكــر كــل حملــة عسكرية على حدة وأخرون قسموا الحملات العسكرية على أدوار كل دور منها يمثـل مجموعة من الغزوات . ولعل التقسيم الذى أميل إليه ويضع الأحداث فى مــو اضعــها الحقيقية حسب ترتيبها الزمنى ينقسم إلى :-

أولاً : - دور الإستطلاع : (٢١ - ٤٩ هـ / ٦٤١ - ٦٦٩ م)

١ - فتح برقة وطرابلس وفزان :

ذكرنا من قبل أن عمرو بن العاص بعد إستقراره بمصر أدرك أن الخطر البـيزنطى لازال قائما فى شمال إفريقية وأنه لابد من القضاء عليه لتأمين حدود مصر الغربيــة ، إذ لايوجد فاصل طبيعى بينها وبين إقليمى برقة وطرابلس الذين يسيطر عليــهما الــروم فبادر بإرسال عقبة بن نافع الفهرى على رأس حملة إستطلاعية إلى برقة (انطـــابلس) وكان أكثر سكان برقة من قبيلة لواتة . ويبدو أن عمرو بن العاص وثق فى تقرير عقبــة ابن نافع عن بلاد برقة فسار عمرو بن العاص بقواته للإستيلاء على برقة ووقع بينه وبين الهواريين واللواتيين قتال قصير ثم إستسلموا للعرب وعقدوا مع عمرو بن العاص صلحا على أن يؤدوا له مبلغا قدره " ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية على أن يبيعـوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم " .

ويبدو من خلال النصوص التاريخية أن بربر لواتة كانوا ناقمين على البـيزنطيين لكثرة مظالمهم فتطلعوا إلى الخلاص على أيدى العرب الفاتحين وهذا يفسر إستســلام البربر للعرب ، ومسارعتهم بطلب الصلح مع عمرو بن العاص مقابل جزيــة يؤدونهـا إليه.

وما أن أتم عمرو بن العاص فتح برقة حتى شرع فى فتح طرابلس سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م تمهيدا لفتح أفريقية . وفى هذا الصدد يجدر الإشارة إلى أن طرابلس كانت مدينة حصينة مسورة من جميع الجهات ماعدا الجهة الشمالية التى تطل على البحر المتوسط حيث كانت سفن الروم شارعة فى مرساها ، فأراد عمرو بن العاص أن يؤمن ظهره أثناء فتح طرابلس من جهة الجنوب ، فوجه عمرو قائده عقبة بن نافع إلى فزان وزويلة فإفتتحهما وأرسل قائده بسر بن أبى أرطأة لغزو ودان فإستولى عليها صلحا وأصبحت الأقاليم الجنوبية الصحراوية مأمونة الجانب . وبينما كان عقبة يفتتح فزان كان عمرو بن العاص يغزو طرابلس وكان سكانها من قبيلة نفوسة البربرية بالإضافة إلى أعداد كثيرة من الروم فبدأ عمرو بمدينة سرت وتقع بين برقة وطرابلس فإستولى عليها ثم زحف إلى لبدة وتقع على بعد ٩٠ كم شرقى طرابلس فإستسلم له أهلها .

واصل عمر سيره حتى بلغ طرابلس العاصمة ونصب عليها الحصار شهرا كاملا. وهو لايقدر على فتحها لحصانتها ويقظة الروم الذين يتولون الدفاع عنها فجعل يصابرهم ويتحين الفرصة للإنقضاض عليهم ، وإستخدم عمرو بعض عيونه لإستطلاع أى ثغرة أو نقطة ضعف يستطيع أن ينفذ منها بقواته إلى مدينة طرابلس حتى وجدوا مسلكا إليها من جهة البحر فدخلوا من تلك الجهة وغنم المسلمون بعد الفتح كثيرا من الغنائم وفر الروم بسفنهم عن طريق البحر هربا بأنفسهم فكان فتحا مبينا ينذر الروم بساعة إنقراض تسلطهم على إفريقية والمغرب .

قاد عمرو بعد ذلك حملة إلى مدينة سبرت غرب طرابلس على بعد ثلاثة وثلاثين ميلا وكان معظم سكانها من قبيلة نفوسة فدخلها عمرو بن العاص ثم عاد إلى مصر سنة ٢٥ هـ/ ٦٤٥ م بعد أن ترك عقبة بن نافع ببرقة يدعو إلى الإسلام ، وكانت هذه هى آخر فتوح عمرو بن العاص .

لاشك أن هناك عومل كثيرة منعت الجيش الإسلامى من مواصلة الفتح لعل من أهمها رفض الخليفة عمر بن الخطاب طلب عمرو بمواصلة فتح أفريقية لخوفه على جيش المسلمين من الروم ، وعلمه بثورات أهل أفريقية ونكثهم بالعهود وغدرهم بأصحاب السلطان فآثر أن يقف المسلمون إلى هذا الحد من الفتوحات وكتب إلى عمرو قائلا كما يذكر بن عبد الحكم : " أفريقية المفرقة ثلاث مرات ، لا أوجه اليها أحدا ما مقلت عينى الماء " . وفى رواية أخرى قال عمر : " لا . إنها ليست بأفريقية ، ولكنها المفرقة . غادرة مغدورة بها . لايغزوها أحد مابقيت " .

٢ - فتح أفريقية :

وتولى عبد الله بن أبى سرح ولاية مصر خلفا لعمرو بن العاص سنة ٢٥ هجرية /٦٤٥م وقد سار بن أبى سرح على سياسة سلفه فى غزو أفريقية بإستأذان الخليفة عثمان بن عفان لمواصلة فتح المغرب ووجد عثمان أن الوقت أصبح ملائما لفتح أفريقية فاجتمع الخليفة بوجوة الصحابة وذوى الرأى فى المدينة سنة ٢٧ هـ/٦٤٧م فإجتمع معظمهم على موافقتة بإستثناء الأعور سعيد بن زيد الذى تمسك برأى عمر بن الخطاب فى ألا يغزوها أحد من المسلمين وبعد تردد أعلن الخليفة موافقتة على فتح أفريقية ، وفتح باب الجهاد وجهز جيشا عظيما أرسله إلى مصر بقيادة الحارث بن الحكم ليكون تحت قيادة عبد الله بن سعد.

وكان هذا الجيش الذى أرسله الخليفة عثمان بن عفان معظمه من الفرسان والكثيرون منهم يسمون عبد الله ولهذا سمى بجيش العبادلة. فكان منهم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، ومعبد بن العباس بن عبد المطلب ، ومروان بن الحكم بن أبى العاص وآخرون من أبناء الصحابة .

ولما وصل هذا الجيش إلى مصر ضم إليه ابن أبى سرح جيوش مصر فبلغ عدد الجيش نحو عشرين ألف رجل سار بهم عبد الله بن أبى سرح فى إتجاه أفريقية بعد أن إستخلف عقبة بن عامر الجهنى -كان ذلك سنة ٢٨هـ/٦٤٩م - ففيها وصلت مقدمة جيش ابن أبى سرح إلى أفريقية . وفى برقة إنضم إليه عقبة بن نافع بحاميه برقة من العرب والبربر والمسلمين ، وسار إلى طرابلس التى نقدت العهد بعد فتح عمرو بن العاص لها فلم يقف عندها عبد الله لأنه كان يريد القضاء على جريجوريوس - أوجرجير- كما يسميه العرب وكان قد اتخذ من مدينة سبيطلة عاصمة له بعد خروجه عن طاعه بيزنطة كما نجح فى ضم بعض قبائل البربر الذين إعتنقوا المسيحية وجمع جريجوريوس جيشاً من البربر والروم بلغ مائة ألف وعشرون ألف جندى ، وفى رواية أخرى مائة ألف أو مائة وخمسون ألف مقاتل .

ولاجدال أن هذا العدد مبالغ فيه ولكن ليس معنى هذا أن نستبعد أن جيش جريجوريوس كان أضعاف الجيش العربى . وما يهمنا هنا أن الجيشان قد إلتقيا عند سبيطلة بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة فحاصرها عبد الله بن سعد حصاراً محكماً وقد دارت مناوشات إستغرقت أياماً بين الفريقين كان القتال يمتد أثناءها من الصباح حتى الظهر . واستمرت الحرب سجالاً فكان كل طرف يخشى الطرف الآخر حيث كان الروم يرهبون العرب ، فقد كانت أنباء أنتصاراتهم فى الشام والعراق وبرقة قبل وصلتهم ، وكان العرب يخشون كثرة الروم وعظم معداتهم ، مما دعا عبد الله بن أبى سرح إلى أن يغير خطة القتال فإتفق مع عبد الله بن الزبير أن يباغت الروم بالهجوم بعد إنتهاء القتال اليومى ، ونجحت الخطة حيث تمكن عبد الله بن الزبير وأصحابه من إختراق معسكر الروم وهم متعبون ولا يتوقعون القتال .

وإستطاع ابن الزبير أن يصل إلى مخيم جريجوريوس وقتله سنة ٢٨ هـ/٦٤٨ م فإنهزم جيش جرجير ، وأسر وقتل الكثير من رجاله وفر الباقون إلى السواحل وأحرز الجيش الإسلامى نصراً كبيراً ، وإستولى عبد الله بن سعد على سبيطلة ودمرها تدميراً .

وظل عبد الله فى أفريقية سنة وثلاثة أشهر ثم عاد إلى مصر أوائل سنة ٢٩ هـ /٦٤٩م، لكن عبد الله لم يتخذ قاعدة إسلامية فى هذه البلاد و لم يعهد لأحد القادة المسلمين بحكم هذا الإقليم ، إنما ترك حامية فى برقة وأخرى فى زويلة ، ومع ذلك فإن غزوة عبد الله كانت تجربة مفيدة للعرب إذ أوقفتهم على حالة هذه البلاد ، وعلى مدى أهميتها بالنسبة لهم فضلاً عن ما ترتب عليها من تحالف بين البربر والعرب ، حيث إطمئن البربر أن لهم فى العرب حليفاً قوياً يستطيع حمايتهم من الروم إذا فكر هؤلاء فى العودة إلى البلاد .

ويبدو أن عبد الله بن سعد قد أدرك أن فتح أفريقية لايتم بمعركة واحدة ولا بهذا العدد القليل من الجيش لا سيما وهو يلتقى بجيوش متحالفة وفى منطقة ذات تضاريس قاسية ، ففضل العودة إلى مصر خاصة بعد إختلاف القواد على قسمة الغنائم .

ولا شك أن هذا التصرف من جانب عبد الله ألقى كثيراً من الأعباء على الحملات التى جاءت من بعده فكان على المسلمين أن يبدأوا من جديد لأن إنسحابه قد أضاع كثيراً مما حققه العرب من النتائج التى كان المسلمين قد وصلوا إليها فى بلاد المغرب .

وأعقبت تلك الحملة فترة ركود توقفت فيها الفتوح بصفة عامة بسبب فتنة عثمان ابن عفان ثم الحرب الأهلية بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، و لم يتجدد نشاط الفتوح مرة أخرى إلا بعد إستقرار الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ /٦٦١ م التى تسمى عام الجماعة بتنازل الحسن بن على بن أبى طالب عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان .

٣ - حملة معاوية بن حديج التجيبي سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م

ولى معاوية بن أبي سفيان عقبة بن عامر الجهني على ولاية مصر ثم ولى معاوية بن حديج رئيس حزب العثمانية في مصر على قيادة الجيش في أفريقية وكان من أشد أنصار بنو أمية وأقواهم عزما وأوصاهم بالحزم بإتمام فتح أفريقية .

وكانت أفريقية في تلك الأثناء تجتاز مرحلة من الفوضى والإضطرابات فقد أرسل الإمبراطور البيزنطي كنسطانز الثاني بطريرك يدعى أوليمه يطالب أهل أفريقية بأن يقدموا إليه ثلاثمائة قنطار من الذهب على نحو ما فرضه عليهم عبد الله بن سعد فرفضوا ذلك وثاروا عليه وقدموا على أنفسهم رجلا يعرف بإسم الإطريون . وقد أدى النزاع بين أهل أفريقية والحكومة البيزنطية إلى قيام الأفارقة بطرد أوليمة عامل الإمبراطور البيزنطي .

خرج معاوية بن أبي حديج على رأس جيش كثيف عدته عشرة آلاف مقاتل سنة ٤٥ هـ /٦٦٥ م وسار في نفس الإتجاه الذي سار فيه جيشا عمرو بن العاص وابن أبي سرح أما جيش الروم فقدر بنحو ثلاثين ألف مقاتل وتقدم ابن حديج للقاء جيش نقفور ونشب القتال بين الفريقين ، فإنهزم البيزنطيين وانسحبوا إلى مدينة سوسة ، وأرسل ابن حديج عبد الله ابن الزبير في أثرهم فتراجع جيش الروم إلى صقلية ، وإستولى ابن الزبير على سوسة وأرسل ابن حديج عبد الملك بن مروان فسار إلى حصن جلولاء في جيش بلغ نحو ألفي فارس ، وإستولى بن حديج بعد ذلك على بنزرت وغنم منها الغنائم .

ولما إستولى معاوية بن حديج على مدينة بنزرت وهي من أهم الثغور الأفريقية أراد أن يستولى على جزيرة جربة لدفع غارات الروم عن أفريقية فكتب إلى رويفع بن ثابت الأنصاري عامله على طرابلس يحثه أن يخرج بالأسطول لغزو جزيرة جربة وإجلاء من

بها من الروم فهاجمها سنة ٤٧ هـ /٦٦٧ م وإفتتحها عنوة من أيديهم . وبينما كانت الفتوحات المتعاقبة فى أفريقية تكلل رأس معاوية بن حديج وقبل أن يستكمل فتح أفريقية ، عزله معاوية بن أبى سفيان سنة ٤٨ هـ /٦٦٩م ، وولى على أفريقية عقبة بن نافع عامل برقة وزويلة .

وهكذا إنتهت حملة معاوية بن حديج بطرد البيزنطيين من ساحل سوسة والإستيلاء على حصن نكفور أهم مراكزهم الوسطى بعد خروج سبيطلة من أيدى الروم .

المرحلة الثانية : الإرتكاز والإنتشار

١- ولاية عقبة بن نافع الأولى : (٥٠-٥٥ هـ/٦٧-٦٧٥ م)

كانت نفس عقبة بن نافع قد تعلقت بالفتوح فنمت مواهبه الحربية ويعتبر من الشخصيات الكبيرة فى تاريخ الفتوحات الإسلامية وقد إشترك فى فتح مصر ودخل برقة سنة ٢٣ هـ/٦٤٤ م وإفتتح فزان ثم خلفه عمرو بن العاص على أفريقية فمكث بها إلى أن إصطحبه ابن أبى سرح إلى مصر سنة ٢٨ هـ /٦٤٩ م ، ثم عاد مرة ثانية إلى المغرب فى ولاية عمرو بن العاص الثانية سنة ٣٨ هـ/٦٥٨ م وظل مقيما ببرقة حتى ولاه معاوية بن أبى سفيان ولاية أفريقية وسيره اليها سنة ٥٠ هـ/٦٧٠م وخرج بمن معه حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط ، وهناك لقى القوة العسكرية التى أرسلها معاوية بن أبى سفيان للعمل تحت قيادته فإحتل غدامس ، ومن هناك دخل أفريقية وداهم عقبة قوات البربر وتوغل فى فتوحاته حتى المغرب الأقصى وإفتتح كثيرا من المعاقل والثغور .

كان عقبة بن نافع قد لاحظ أن أهل افريقية يدخلون فى طاعة العرب وربما دخل البعض منهم فى الإسلام طالما بقى العرب فى بلادهم فإذا إنصرف العرب شق أهالى أفريقية عليهم عصا الطاعة . ومن ثم رأى عقبة ضرورة إنشاء مدينة إسلامية جديدة فى أفريقية تكون قاعدة عسكرية للمسلمين ومنبعا لنشر الإسلام فى بلاد المغرب ، فإختار موقعا يقع إلى الشمال قليلا من سبيطلة وبدأ فى إختطاط عاصمة مناسبة للمسلمين . وقد قضى عقبة فى بناءها خمس سنوات من ٥٠ - ٥٥ هـ/ ٦٧٠ - ٦٧٥ م فأسس بها المسجد الجامع وفى مواجهة المسجد دار الإمارة وبين المسجد ودار الإمارة شارع يسمى بالسماط الأعظم ، وكانت العادة أن يتركوا حول هذين المبنيين خلاءا واسعا مستديرا ، ثم بعد ذلك يقيمون الدور حول ذلك الخلاء على أساس تقسيم الأرض إلى قطع لكل قبيلة قطعة تسمى خطة أو دار .

وسميت هذه المدينة القيروان وهو لفظ فارسى معرب بمعنى المعسكر أو مستودع السلاح . وكانت القيروان بعيدة عن البحر ومن ثم يصعب على البيزنطيين محاصرتها ، وفى نفس الوقت فإن موضع القيروان المتوسط بين الساحل والهضبة وقربها من السفوح الصالحة للرعى جعل من الممكن مراقبة تحركات الأعداء .

كان عقبة أثناء بناء القيروان يغير على النواحى القريبة ويتصل بالبربر وينشر فيهم الإسلام ، ويعد الخطط لفتح المغرب ، وبينما كان عقبة يتهيأ للخروج لغزو المغربين الأوسط والأقصى سنة ٥٥ هـ/٦٧٥م إذا بمعاوية بن أبى سفيان يفاجئه بالعزل بناء على طلب والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى وكان من أنصار البيت الأموى الذين أعانوا معاوية على الوصول إلى الخلافة ، فسعى مسلمة فى عزل عقبة حتى يحصل على ميدانا جديدا للفتوحات والغنائم طمحت نفسه إلى أن يحوزها ، وذلك بتولية رجل من أتباعه يسمى أبو المهاجر دينار .

ومما يلاحظ على هذه الحملة التي قادها عقبة بن نافع ، تلاشي قوة الروم السياسية والعسكرية فلم تشر الروايات التاريخية إلى قيام الروم بأي محاولة عسكرية ضد عقبة أثناء بناء مدينة القيروان التي دامت خمس سنوات والتي جعلت من أفريقية ولاية إسلامية جديدة زادت من ثقل التواجد السياسي والعسكري للمسلمين في شمال أفريقيا.

٢ - ولايـــة أبـــي المهـــاجـــر دينـــار :(٥٥- ٦٢ هـ /٦٧٥-٦٨٢م)

كان أبو المهاجر دينار يتميز عن عقبة بن نافع بالدهاء وحسن السياسة وكان من خيرة الولاة رغم أنه أساء معاملة عقبة حتى أنه أوقره بالحديد ، وسجنه حتى أرسل إليه الخليفة بكتاب يأمره فيه بتخلية سبيله وإشخاصه إليه.

ويستنكر كثير من المؤرخين هذا العمل ضد عقبة بعد بلائـه الكبـير في فتـح المغرب ، ويرى بعض المؤرخين أن ابن أبي دينار إستجاب في هذا العمل لرغبـة والي مصر مسلمة بن مخلد لحقده على عقبة بن نافع .

وما يهمنا هنا أن أبي المهاجر دينار قد إعتمد في تعامله مع البربر على السياسـة أكثر من تعامله معهم بالقوة العسكرية وإلى كسب مودة البربر وإستمالتهم ، وفي نفس الوقت كان رجلاً نشيطاً يرسل الحملات في كل جهة حتى وصلت غزواته إلى مدينـة تلمسان وهي أكبر قواعد القسم الشرقي من المغرب الأوسط . وإصطدم بأقوى قبيلـة برنسية هي قبيلة أوربة ، وكانت النصرانية قد إنتشرت بين أفرادها ، وكان زعيمـها يسمى كسيلة بن لمزم يتمتع بالذكاء ، ونجح أبو المهاجر في إستمالة هذا الرجل ومعـه قبيلته وحبب إليه الإسلام خاصة بعد هزيمة كسيلة الذي عفى عنه أبو المهاجر وقربه إليه إذ كان يعلم أن إسلام كسيلة يعني إسلام قبيلته الكبيرة فإنضم كسيلة إلى أبي المهاجر

هو وقومه وإعتنقوا الإسلام فكانت هذه أول مرة تدخل قبيلة برنسية فى الإسلام ، وكان معظم من دخل الإسلام قبل ذلك من البربر البتر .

لا شك أن إسلام كسيلة وسيره إلى جانب أبى المهاجر قد مكن القوات الإسلامية من إجتياح المغرب الأوسط فإحتلوا مدنه الساحلية ثم هاجموا قرطاجنة سنة ٥٩ هـ/٦٧٩ م ولم يفكوا الحصار عنها إلا بعد أن تنازل الروم لهم عن جزيرة شريك جنوب إقليم قرطاجنة ثم إفتتح أبو المهاجر ميلة - شرق قلعة بنى حماد - وقد استمرت ولاية أبى المهاجر دينار سبع سنوات إلى أن ولى الخلافة يزيد بن معاوية سنة ٦١ هـ/ ٨٦٠ م فعزل أبى المهاجر وأعاد عقبة بن نافع على أفريقية للمرة الثانية سنة ٦٢ هـ/٨٦١م .

٣ - ولاية عقبة بن نافع الثانية وحملته الكبرى على المغرب (٦٢ -٦٤ هجرية / ٦٨١ - ٦٨٣ م)

كان عقبة بن نافع شخصية دينية كبيرة ، وقائدا حربيا مغرما بالجهاد فى سبيل الله ، وكان يزيد بن معاوية مقتنعا بشخصية عقبة ويقدر جهوده فى فتح أفريقية فإستقطع ولاية أفريقية من والى مصر مسلمة بن مخلد وعزل أبى المهاجر دينار أول أمير عربى وطأت خيله أرض المغرب الأوسط وولى عقبة بن نافع ولاية أفريقية للمرة الثانية وجعله مستقلا إداريا عن والى مصر ، غير أن عقبة بن نافع فى ولايته الثانية إتخذ سياسة مخالفة لسياسة أبو المهاجر دينار ، وإستهل ولايته بالإنتقام من أبى المهاجر فقبض عليه وعلى صاحبه كسيلة زعيم قبيلة أوربة ، وصادر عقبة أموال أبى المهاجر وجملتها مائة ألف دينار ، وجدد بناء القيروان ، وأمر الناس بتعميرها والإنتقال إليها بعد أن خربها أبو المهاجر دينار بإخلائها من العسكر والإدارة . ويبدو أن عقبة بن نافع فى ولايته الثانية كان يسعى لنقض سياسة ابن أبى دينار وإلى إذلاله وإذلال كسيلة زعيم أوربة ويذكر ابن عذارى أن عقبة أساء إلى كسيلة وأهانه بسلخ جلود الغنم مع السالخين وجعل العرب يسخرون منه وهو يسلخ .ولاشك أن إستعلاء عقبة ونظره إلى البربر نظرة شك وريبة قد جلبت عليه عداوة البربر

البرانس ، خاصة وأنه لم يأخذ بنصيحة ابن أبي دينار بإحسان معاملة كسيلة زعيم قبيلة أوربة .

أما خطوات حملة عقبة الثانية فقد استخلف زهير بن قيس على القيروان وترك له كفاية من الجنود ثم خرج فى عسكر عظيم لغزو البربر . وجرى عقبة على أسلوبه العسكرى فى إكتساح البلاد عن طريق الغزو الخاطف فقاتل بربر جبال الأوراس ، وهى الطرف الشرقى لجبال الأطلس ، وكانت تعيش فى هذه الناحية طائفة من الروم فقصد مدينة بغاية وقد إحتشد فيها كثير من الروم والبربر . وعندما وجد صعوبة فى الإستيلاء على بجاية تركها وإتجه ناحية الغرب غير عابئ بالمقاومة حتى وصل قرب طنجة وهى مفتاح المدخل الغربى للبحر المتوسط . ثم إتجه عقبة ناحية الجنوب وإخترق شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه حتى وصل إلى بلاد المصامدة فى جبال درن ثم إتجه غربا نحو المحيط إلى جنوب مدينة أغادير التى تقع على مصب وادى السوس ، وهناك وعند قرية (ايغيران يطوف) دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحره وأخذ يناجى ربه وهو يقول : " اللهم أنك تعلم أنى أريد ألا يعبد على وجه الأرض أحد سواك ، ولو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضا لوطئتها، أذكر فيها إسمك العلى العظيم ، اللهم أشهد أنى قد بلغت عذرا " .

عاد عقبة بن نافع بجيشه إلى القيروان بعد أن فتح معظم بلاد المغرب ، ويبدو أن أخبارا قد بلغته عن حدوث إضطرابات وقلاقل فى أفريقية ، وكان أبو المهاجر مع عقبة فى رحلته وكان معه أيضا كسيلة بن لمزم يمشى فى ركابه والخيانة والغدر تتراقدان فى نفسه فلما اقترب من قبيلة أوربة عاد كسيلة إلى قومه وإنضمت إليه جموع البربر وعندما وصل الجيش الإسلامى إلى تاهودة جنوبى بسكرة التى تقع جنوب مدينة الجزائر خرج عليه كسيلة ودارت رحى معركة حامية بين جيش كسيلة وقوات عقبة ابن نافع . وأدرك عقبة ألا قبل له بهذا الجيش الكبير من البربر والروم بقيادة كسيلة وكان فى وسعه أن يفر من لقائهم لكنه صمم على القتال وتبعه فى ذلك أصحابه وأبى المهاجر دينار الذى أراد أن يفوز بالشهادة فأمر عقبة رجاله بأن يترجلوا عن خيولهم .

وخاضت قوات عقبة معركة الموت ببسالة ، واستشهد عقبة ومن معه فى ميدان المعركة سنة ٦٤ هـ /٦٨٢ م .

كان لإستشهاد عقبة نتائج سياسية وعسكرية خطيرة فقد خرجت أفريقية من أيدى المسلمين فقد تراجعوا إلى برقة بعد أن اضطر زهير بن قيس إلى الإنسحاب من القيروان بعد أن علم بهزيمة عقبة وزحف كسيلة بجيوش لا حصر لها إلى القيروان وضاعت بذلك معظم جهود المسلمين خلال أربعين عاما بعد إنسحابهم إلى برقة .

وبالرغم من هزيمة عقبة فى معركة تهوزة وإرتداد كسيلة وقومه عن الإسلام فإن العرب لم يفقدوا كل شئ فقد إعتنق عددا كبيرا من برابر أفريقية الإسلام وسار حزبا مناوئا لكسيلة خاصة مسلمى البربر من البتر .

المرحلة الثالثة : مرحلة الفتح (٦٩ -٩٠هـ/٦٨٨-٧٠٩م)

١ـ زهير بن قيس البلوى : (٦٩ ـ ٧٠هـ/ ٦٨٨-٦٨٩م)

كانت الخلافة العربية فى دمشق تعانى أسوأ أيامها إثر مقتل عقبة بن نافع وإحتلال كسيلة القيروان بعد إنسحاب زهير بن قيس الذى خلف عقبة على القيروان بعد أن رأى جموع جنده قد تسللت من حوله متوجها إلى برقة .

لم يلبث زهير طويلا فى برقة حتى بلغه نعى يزيد بن معاوية ، وإضطراب المسلمين فيمن يولونه الخلافة حين تخلى عنها معاوية الأصغر بعد أن تقلدها عقب وفاة أبيه ، ثم إنتهى الأمر إلى مروان بن الحكم وثار عليه عبد الله بن الزبير ولكنه لم يطل به العهد وتوفى سنه ٦٥ هـ /٦٨٣ م . وخلفه إبنه عبد الملك وكان ممن إشترك فى فتح

أفريقية ، وهو يعلم أهمية مترلتها من بلاد العرب ، فأشار عليه أكابر المسلمين أن يعجل بإستنقاذها والإنتقام من قتلة عقبة وأصحابه ، فأرسل إلى زهير جيشا ضخما لإستعادة بلاد المغرب والإنتقام من كسيلة .

خرج زهير بن قيس من برقة سنة ٦٩ هـ/ ٦٨٨م بجيش ضخم حتى وصل بالقرب من القيروان ، وحين علم كسيل بمقدمه وهو في القيروان رأى أن ينتقل من القيروان إلى ممس جنوب شرق جبال أوراس بين القيروان والأوراس ، وكانت مدينة حصينة تقع في ذات الوقت على ماء ، وإلتقى زهير بن قيس بجيش كسيل وجرت معركة شرسة بين الفريقين قتل فيها كسيله وإنهزم من بقى من أصحابه . ثم أخذ المسلمون يطاردون من كان معه من فلول الروم والبربرحتى إستأصلوهم و إفتكوا من أيديهم مدن كثيرة ، منها الأوراس ، وباجة وغيرهما من المدن ، ومضى زهير يسترد ما إنسلخ من البلاد إلى أن بلغ وادى ملوية وعاد زهير إلى القيروان قرير العين بما ناله من فتوح وطابت نفوس المسلمين بعد اليأس وقام بها سنة كاملة يرتب شئون المسلمين ، على الخطط التى وضعها عقبة ، ويراقب حركات العصاة إلى أن عاد الأمن إلى قرابة ، وتوطدت سلطة الإسلام في كل مكان . فأخذ زهير يتأهب في الرحيل ، والسبب في ذلك كما ذكر المورخون أن زهيرا كان يزهد في الإمارة ، لذلك آثر العودة إلى مصر ، ولكن الروم فى القسطنطينية رأوا ضياع هذا الملك العريض بعد أن خلص لهم منذ سنين يسيره أمرا صعبا ، فلما علموا برحيله من القيروان قطعوا عليه الطريق عند برقة وشنوا الغارة على من بها من المسلمين فأصابوا منهم سبيا كثيرا وقتلوا ونهبوا ثم أقلعوا بغنائمهم نحو البحر ووافق ذلك قدوم زهير وعسكره إلى برقة ، وأسرع زهير فى ثلة قليلة من الجنود إلى الساحل ليدرك سبى المسلمين ، ولما رآهم الروم طمعوا فيهم فترلوا البر وهم فى حفل عظيم فإلتحم بينهم القتال وإستشهد المسلمين جميعا وكان فى مقدمتهم زهير ، وغنم الروم ما كان معهم فنقلوه إلى مراكبهم وساروا إلى القسطنطينية .

٢ـ حملة حسان بن النعمان : (٧٣ – ٨٥ هـ/٦٩٢ – ٧٠٤م)

سمع عبد الملك بن مروان بمقتل زهير بن قيس وأيقن أن أعداء الإسلام الحقيقيين فى المغرب هم الروم ، وأن وجودهم يشكل خطرا دائما أمام قوات الفتح الإسلامية فعزم الخليفة على تطهير المغرب منهم وتأديب قبائل البربر المناوئة خاصة بعد أن إنتهت فتنة ابن الزبير بقتله سنة ٧٣هـ/٦٩٢م ورأى أن فتح أفريقية لن يتحقق إلا إذا أعد جيشا كثيفا . فإهتم إهتماما كبيرا بجمع الجنود لهذا الغرض ، وجمع أكثر من أربعين ألف مقاتل بقيادة حسان بن النعمان الغسانى من رجالات الشام ، وكان أول قائد يولى على المغرب ، وكان يتميز بقوة شخصيته وخبرته وأمانته ، وقد هيىء ذلك لحسان نجاح مهمته عندما سار إلى المغرب خاصة وقد خصصت خزانة مصر لتمويل هذا الجيش ، وبعد أن أعدت الحملة خرج حسان من مصر سنة ٧٤ هـ/٦٩٣ م على رأس هذا الجيش الكثيف ، ونزل فى طرابلس حيث إنضم إليه من كان هناك من عرب أفريقية وطرابلس ، وكان حسان قد بنى خطته العسكرية على أساس ضرب المقاومة البيزنطية فى المغرب ، فسار إلى قرطاجنة حيث نجح فى دخولها وفقد بذلك البيزنطيون أهم معاقلهم الساحليه فى شن الهجمات على العرب ، والتى لم يستطع العرب غزوها من قبل لمناعتها وإتصالها بالبحر ، وقربها من صقلية ، ثم هدموا منشآت الميناء حتى لا تعود إليه أساطيل الروم بعد أن فر معظم من كان بها إلى صقلية والأندلس وتعرض من بقى منهم لسيوف المسلمين . وبينما كان حسان يهم بالرحيل إلى القيروان إذ بلغه أن الروم جمعوا شتاتهم وإنضمت إليهم جماعات من البربر وإحتشدت حشودهم فى صطفورة وبنزرت للوقيعة به فداهمهم بالجنود ولقى منهم مقاومة عظيمة ، وما زال بهم يواقعهم حتى هزمهم وإستولى على المدينتين ، وأخذ يوجه سراياه فى كل أنحاء أفريقية ثم عاد حسان بعد هذه الإنتصارات إلى القيروان.

لقاء حسان للكاهنة :

ما كاد حسان يفرغ من توجيه الضربة الأولى إلى الروم حتى عاد يتوجه بكل قـواه نحو مراكز المقاومة البربرية وهم بربر البتر ، وكانوا قد تجمعوا حول إمـرأة يسـميها العرب الكاهنة ، ويقال لها داهيه بنت ماتية بن تيفان ، ظهرت فى جبال الأوراس علـى رأس قبيلة جراوة البتريه وتحدت العرب وأعلنت أنها لن تستريح حتى تخرجهم نهائيا مـن بلاد أفريقية ، وتشير بعض النصوص إلى أن لقب الكاهنة أطلق عليها نظرا لإتصافـها بالدهاء الشديد وخبرتها بالسحر ، وكانت الكاهنة تتوقع مسير حسان إليها فى جبـال أوراس فبدأت فى تطبيق سياسة التخريب للطريق الذى يسلكه العرب حـتى لاينتفـع بخيرات هذه الأراضى ، وعندما إقترب منها حسان رحلت إلى مدينة باغاية وهى مدينـة حصينة على سفح جبال الأوراس وجمعت جيشا كثيفا إلتقـى بحسـان عنـد وادى مسكيانة المعروف بوادى العذارى فإقتتلا قتالا عنيفا سنه ٧٥هـ أسفر عـن هزيمـة حسان بعد أن قتل أكثر جنوده وأسر منهم نحو ثمانين رجلا من بينهم خالد بن يزيـد العبسى فتراجعت فلول جيشه والكاهنة فى إثره إلى أن خرج من قـابس منسـحبا إلى تطيلة ولحق ببرقة .

أما الكاهنة فلم تتعرض للقيروان و لم تدخلها وإنمـا عـادت إلى جبـال أوراس ، وعملت الكاهنة للقضاء على مظاهر العمران بإفريقية حتى ييأس العرب من الإقامة بها ، فوجهت قومها إلى كل ناحية من بلاد المغرب ، وأمرتهم بقطع الأشجار وهدم الحصـون والقصور وتخريب المدن . وما زالوا مثابرين على التدمير إلى أن صيروا البـلاد قاعـا صفصفا لا ترى منها إلا أطلال وقد كانت ظلا ظليلا من طرابلس إلى طنجـة قـرى متصلة وأراضى عامرة ومياه جارية ، إلا أن هذا العمل أضر بالكاهنة فقد عارضها فريق كبير من أهل البلاد من الروم وأتباعهم الأفارقة وعم الإضطراب بلاد المغـرب نتيجـة لسياسة الكاهنة .

أقام حسان ببرقة ينتظر المدد من أمير المؤمنين إلى أن سارع الخليفه عبد الملك سنة ٧٩هـ/٦٩٨م بإرسال الأموال والسلاح والجنود إلى حسان وأمره بالخروج للقاء الكاهنة وإنقاذ المسلمين فى أفريقية فزادت الكاهنة فى عمليات التخريب حتى جعلت تونس خرابا ، ويسمى المؤرخون ذلك بخراب أفريقية الأول ، أما الثانى فكان على يد العرب الهلالية فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

ثم كان اللقاء بين حسان والكاهنة فى سنة ٨٠ هـ عند مدينة قابس وهزمها شر هزيمة وقتلت الكاهنة سنة ٨٢ هـ فى موضع يعرف ببئر الكاهنة فى جبال الأوراس. وبذلك قضى حسان على كل أثر للمقاومة فى المغرب الأدنى ثم إتجه إلى قرطاجنه للمرة الثانية لتطهيرها من البيزنطيين الذين أغاروا عليها فأضر هؤلاء إلى الفرار بحرا وإسترد المدينة .

إصلاحات حسان السياسية و الإدارية فى أفريقية :

لم يكن حسان رجل الحرب والفتح فحسب ، بل كان أيضا رجل السياسة والإدارة والعزم ، وكان له دور حضارى لا يقل أهمية عن الفتح ، حيث عكف على تنظيم البلاد وإصلاحها بما يتسق وروح الإسلام . ويتضح ذلك فى الأمور الآتية :

١- **تنظيم مدينة القيروان** : بإعادة بناء مسجدها وتوسيعها على نحو تتسع لجموع العرب والمسلمين حتى تصبح مدينة جديرة بمركزها كعاصمة لإفريقية ، فإتسعت رقعتها فى عهده .

٢ - **تنظيم الإدارة المالية والجيش** : نظم حسان الجيش وقسمه على الثغور وساوى بين العرب والبربر فى العطاء والمعاملة .كما قام بتنظيم الدواوين ، وفرض الجزية والخراج على أهل الذمة ، وأقام حنش بن عبد الله الصنعائى عاملا على الذكاة ،

وكان من خيرة المسلمين ، وإحتفظ بدار السكة التى كانت فى قرطاجنة فضرب النقـود فى أفريقية حسب السياسة التى أقرها الخليفة عبد الملك .

٣ - بناء مدينة تونس : فكر حسان أن ينشىء على الساحل محرسا قويا يصد الـروم إذا حاولوا النزول تجاه قرطاجنة ، تقع على البحر وتشرف على مدخل قرطاجنة فبـنى تونس على بعد ١٢ ميلا شرقى قرطاجنة . وتونس هذه كانت توجد قرب قرية قديمـة تسمى تينس فحولها حسان إلى ميناء عظيم سنة ٨٤ هـ/ ٧٠٣ م وبنى بها مسـجدا جامعا ودارا للإمارة ودارا لصناعة السفن وعدة أسواق.

٤- أنشأ الأسطول الإسلامى فى المغرب : لحماية سواحلها ومد الفتح الإسـلامى فى جزر البحر المتوسط ، وساهمت مصر فى هذا العمل فأرسل واليها ألف أسرة من قبطـها ممن برعوا فى صناعة السفن .

وهكذا يعتبر حسان بن النعمان من أعظم فاتحى بلاد المغرب ، وقد ظل فى ولايتـه حتى توفى عبد الملك بن مروان ، ولما ولى الوليد بن عبد الملك أبقى حسان فى منصبـه وبعد سنة واحدة من انشاء تونس عزل حسان عن ولاية أفريقية ، وكان السـبب فى ذلك أن عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك وعامله على مصر بلغه ما يتمتع به حسان من السطوة على هذه البلاد الواسعة فحسده ، وقيل وشى به إليه أنه يريد الإسـتقلال عن الخلافة الأموية ، فدعاه إلى مصر وعزله عن الولاية .

٣ _ولاية موسى بن نصير: (٨٥ - ٩٥ هـ/ ٧٠٤ - ٧١٤ م)

لما عزل حسان بن النعمان تولى على إفريقية أبو عبد الرحمن موسى بـن نصـير بمساعى عبد العزيز بن مروان ، وكان موسى بن نصير عاملا لعبد الملك بن مروان على العراق مع بشر بن مروان أخو الخليفة .

لما وصل موسى إلى القيروان دعى الناس إلى المسجد ، ثم إرتقى المنبر فحمـد الله وأثنى عليه وقال : " أيها الناس إنما كان قبلى على أفريقية أحد رجلين ، مسالم يحب العافية ، ويرضى بالدون من العطية أو يكره أن يكلم ويحب أن يسلم ، ورجل ضعيف العقيدة قليل المعرفة راض بالهون ، وليس أخو الحرب إلا من إكتحل السهر ، وأحسن النظر وخاض الغمر ورسمت به همته و لم يرض بالدون من المغنم لينجو ويسلم دون أن يكلم أو يكلم ويبلغ النفس عذرها فى غير خرق يريده ولا عنف يقاسيه ، متوكلا فى حزمه ، جازما فى عزمه ، متزيدا فى علمه ، مستشيرا لأهل الرأى فى أحكام رأيه ، متحنكا بتجاربه ، ليس بالمتجابن أقحاما ولا بالمتخاذل إحجاما . إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذرا وإن نكب أظهر جلادة راجيا من الله حسن العافية للمتقين . وبعد فإن من كان قبلى يعمد إلى العدو الأقصى ، ويترك عدوا منه أدنى ، ينتهز منه الفرصة ، ويدل منهم على العورة ويكون عونا عليه عند النكبة . وأيم الله لا أريم هاته القلاع والجبال الممتنعه حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعها ويفتحها على المسلمين بعضها أو جمعها أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين " .

ويتضح من هذا النص أن موسى بن نصير كان هدفه الأساسى تقوية مركزه الشخصى فى الدولة بالعمل المتوالى ، فكثرت الضربات التى وجهها إلى القبائل البربرية، ، وكان ذلك من أسباب الفتنة البربرية الكبرى التى ستقوم أيام الخليفة هشام بن عبد الملك .

بدأ موسى بن نصير بتوجيه ضربة شديدة إلى بربر جبل زغوان وكان يتزعمهم رجل اسمه ورقطان ، فوجه إليهم ٥٠٠ فارس بقيادة رجل يقال له عبد الملك فقاتلهم إلى أن هزمهم وقتل زعيمهم ورقطان وفتح بلادهم سنة ٨٥ هـ .

وبذلك قضى على هؤلاء البربر الذين كانوا يشكلون خطرا على القيروان ، ثم بعث ابن عبد الرحمن وقيل عبد الله إلى بعض نواحي القيروان فسبى مائة ألف رأس ثم وجه ابنه مروان إلى منطقة أخرى من أفريقية فسبى مثل ذلك ، وعلى أية حال أرسل موسى ابن نصير إلى عبد العزيز بن مروان يبشره بأول فتحه وإخضاع بعض العناصر البربرية . وكان من الطبيعي بعد النصر الكبير الذى حققه موسى أن يوسع نشاطه العسكرى فى أفريقية فبعث قائده عياش بن أخيل لتأديب هواره و زناته فغار عليهما وقتل منهم جماعات كثيرة وأسر أعدادا أخرى ، فدعوه إلى الصلح فقادهم إلى موسى فصالحهم على رهائنهم عنده . كذلك فعلت كتامة فقد صالحت موسى فولى عليها رجلا منهم بعد أن قدموا إليه رهائن من وجهائهم ، ثم هاجم قبائل صنهاجة بأربعة آلاف من الجند وألفين من المتطوعين ففشيهم وهم لا يشعرون بقدومه حتى أوقع بهم ثم صالحهم وعاد إلى القيروان .

ثم سار موسى فى إتجاه الغرب ووصل إلى بلدة ساجومة على مقربه من تطوان الحالية وكانت هذه البلدة وما حولها مقرا لقتلة عقبة بن نافع فلما وصل عقبة بن نافع إلى نهر ملويه اصطدم مع رجل من أمرائهم فقتله ونهب ساجومه وأمر موسى أولاد عقبة ابن نافع ، عياضا ، وعثمان ، وعبيدة أن يتشفوا من قتلة أبيهم عقبة ويضعوا سيوفهم فى رقابهم فقتل عياض وحده فى ذلك اليوم ستمائة رجل من كبارهم . ولما بلغ موسى عدد من قتل منهم أرسل إليه : إمسك فقد إستوفيت وإشتفيت ، فقال عياض : أما والله لو تركني ما أمسكت عنهم وفيهم عين تطرف ، ثم عاد إلى القيروان بعد أن دانت له بلاد المغرب الأوسط .

وإنفتح الطريق إلى الغرب الأقصى من صحراء درعة إلى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة ثم تطلع إلى منطقة طنجة حيث نجح موسى فى إخضاع القبائل البربرية القاطنة حولها فقد أخذوا يستأمنون العرب على أنفسهم وتسابقوا فى إعلان خضوعهم لهم .

ونجح موسى فى إنتزاع طنجة وكان بها من البربر البتر والبرانس فأعلنوا الدخـــول فى طاعته ، وأقام موسى طارق بن زياد على طنجة وأعمالها بعــد أن طــهر المغــرب الأقصى من المتمردين وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلا إقليم سبتة الذى بقى بين يــدى يليان لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من البحر وذلك حوالى سنة ٩٠هــــ/ ٧٠٨ م وهكذا نجح موسى بن نصير فى بسط سلطانه على بلاد المغرب، كلها ونشر الإسلام بين البربر، ولكنه لم يحفل بعد ذلك بما كانت تثيره هذه الغزوات فى نفوس أهل المغرب مــن البربر من حقد وكراهية للعرب وإلى إنحراف كثير منهم إلى مذاهب مناوئــة للخلافــة الأموية فإنخرطوا فى مذاهب خارجية أباضية وصفارية وشيعية .

وإهتم موسى بن نصير بإنشاء أسطول قوى وسع به دائرة نشاطه لما واء البحــر ومقاومة هجمات البيزنطيين على طول سواحل المغرب ، ثم أرســل موســى حملــة توجهت من تونس لصقلية آخر سنة ٨٥ هــ وهى الغزوة المعروفة بالأشراف وعــادت بغنائم كثيرة .

وفى أول سنة ٨٦ هــ تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك فبعث موســى ببيعتــه إليه، فكتب الوليد إلى موسى يقر له بولاية أفريقية والمغرب . وفى سنة ٨٦ هــ أرســل موسى حملة لسردانيا حيث غنم منها المسلمون مغانم كثيرة كما غــزا جــزر البليــار وعادت محملة بالغنائم والأسلاب .

ويجب أن ننوه هنا إلى أن موسى بن نصير وطارق بن زياد قد قاما بفتــح بــلاد الأندلس بداية من سنة ٩١ هــ/٧١٠ م وهذا ما سنفصله فى القسم الخاص بالأندلس .

وبينما كانت جيوش المسلمين تواصل فتحها لبلاد الأندلس وقع خلاف بــين موسى وطارق بن زياد فإستدعاهما الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وعــاد موســى إلى الشرق ومعه طارق ، وعندما وصلا إلى دمشق وجدا أن الخليفة هو سليمان بن عبــد

الملك الذى ولى الخلافة سنة ٩٦ هـ بعد وفاة أخيه الوليد فإستقبله شر إستقبال وأخذ كل الهدايا والمغانم الكثيرة التى كان موسى يحملها معه وأغرمه مالا كثيرا ، ويقال أن موسى كان يسأل القبائل لكى يحصل على الفدية المطلوبة منه حتى أدى بعضها ثم سامحه سليمان بالباقى ، ومات موسى فى ظلال النسيان . أما طارق بن زياد فقد إختفى هو الآخر بعد أن قام بجهود عظيمة فى نشر الإسلام وتوسيع حدود الدولة الأموية .

أسباب صعوبة الفتح

ذكرنا من قبل أن فتح المغرب إستغرق ما يقرب من سبعين سنة حتى عبر موسى ابن نصير وطارق بن زياد مضيق جبل طارق إلى الأندلس . ولا شك أن الطبيعة الجغرافية من مسالك وعرة وجبال شاهقة قد هيأت للبربر وحلفائهم من الروم فرصا كثيرة للإيقاع ببعض الحملات العربية . كما كان إتساع رقعة بلاد المغرب وتنوع تضاريسها أن إحتاجت الجيوش العربية لخطط عسكرية مختلفة من أجل التعامل مع كل منطقة من تلك البلاد .

كان البربر محاربين أشداء يمتازون بقوة الشكيمة ويشبهون العرب الفاتحين فى الصبر والتحمل والفروسية ، فهم بدو وقبائل مثلهم ، وهم كثيروا العدد ويرفضون الخضوع للحاكم الأجنبى ، ومن ثم صمدوا بقوة للعرب . ويلاحظ فى ذلك أن العرب بعد أن فتحوا بعض بلاد المغرب كان البربر سرعان ما يتمردون عليهم فيعاود العرب فتحها من جديد مما أضاع وقتا كبيرا من ناحية وشكل عبئا حربيا لإخضاع المناطق الثائرة مرة أخرى .

كما أن ظهور زعامات قوية قادت المقاومة البربرية ضد الفاتحين العرب وأبرز هؤلاء كسيلة زعيم البرانس ، والكاهنة زعيمة البتر .

تعرضت الدولة الإسلامية لعدة فتن داخلية صرفتها عن تكثيف جهودها فى فتح أفريقية وبلاد المغرب . فتوقف الفتح عدة مرات بسبب الفتنة الكبرى فى عهد عثمان و خروج معاوية بن أبى سفيان على الخليفة على بن أبى طالب ، كما توقفت الحملات فى عهد عبد الملك بن مروان بإنشغاله بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير . فضلاً عن إختلاف بعض ولاة مصر وبعض القادة فى أفريقية والمغرب بإعتبار مصر هى القاعدة التى تشرف على الفتح وتحركات الجيوش الإسلامية فى تلك البلاد .

إختلاف سياسة بعض الولاة والقادة فى أفريقية بين اللين والشدة ومن أمثلة ذلك إختلاف سياسة عقبة بن نافع وأبى المهاجر دينار تجاه البربر فقد إصطنع الأخير البربر وإتبع معهم سياسة الموادعة ، أما عقبة فقد إتبع سياسة عنيفة مما أدى إلى إنقلابهم على العرب ، وقتل عقبة بن نافع .

تحالف الروم البيزنطيين مع القوى البربرية المناوئة للعرب ، وخاصة البرانس ضد الجيوش العربية طمعاً فى أن تعود سيادتهم على بلاد المغرب ، هذا بالإضافة إلى نقص وقلة المراكز الحربية التى بناها العرب لتكون مراكز فى أفريقية يرتكز عليها الفتح الإسلامى فى إعداد الهجوم أو مواجهة التفوق البحرى للروم خاصة المناطق الساحلية .

نتائج فتح العرب للمغرب

كان من نتائج الفتح العربى لبلاد المغرب تغيرا شاملا فى كل جوانب الحياة فى المجتمع المغربى . ومن أبرز هذه النتائج وأهمها :

إنتشار الإسلام بين القبائل البربرية ، وكان للفقهاء والعلماء دور كبير فى نشر الإسلام وتعليم البربر القرآن الكريم والحديث والفقه ، وأدى إنتشار الإسلام بين البربر إلى تحمسهم إلى الدين الجديد وساعد على ذلك ما قام به العرب من إدخال آلاف من البربر فى الجيوش الإسلامية وجعل سكان القبائل فى مراكز القيادة فإنضموا إلى صفوف العرب المجاهدين ينشرون الإسلام فى بلاد أفريقية والغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط .

ومما لا شك فيه أن إنتشار الإسلام أدى إلى إنتشار اللغة العربية بين البربر ، ساعد على ذلك أنها لغة القرآن الكريم . كما كان لهجرات القبائل العربية وإختلاطهم بالبربر وتعريب الدواوين فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان أثر كبير فى إنتشار اللغة العربية . بالإضافة إلى أن الفتح العربى أدى إلى تطور المجتمع المغربى وذلك من خلال تقارب العادات العربية والبربرية فهم بدو مثلهم وقبائل رحل تحكمها نفس العلاقات الإجتماعية .

ومما لا شك فيه أن العرب المجاهدين فى بلاد المغرب والذين إستقروا فى تلك المناطق قد تزاوج بعضهم من نساء البربر وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تغيير إجتماعى ثقافى خاصة بعد أن أصبحت بلاد المغرب جزء من الدولة الإسلامية . وقد ساهم البربر مساهمة كبيرة فى الجيش الإسلامى وظهر هذا واضحا عندما فتح المسلمون بلاد الأندلس وهذا ما سنتناوله فى موضعه .

المغرب فى عصر الولاة

عندما رحل موسى بن نصير إلى دمشق ترك إبنه عبد الله نائبا عنه على أفريقية وبلاد المغرب ، وإبنه عبد العزيز على بلاد الأندلس ، أما بالنسبة لعبد الله فقد كان الخليفة سليمان بن عبد الملك يستهجن سياسته القائمة على العنف والتسلط فى معاملة البربر . وفى غمرة الإنتقام من موسى أوعز الخليفة من قتل عبد الله من قواد الأندلس ويقال أن بشر بن صفوان هو الذى قتله ، ثم تولى محمد بن يزيد (٩٧-١٠٠هـ) ولاية المغرب - وفى عهده ساد السلم والأمن بلاد المغرب ،كما بعث السرايا إلى ثغور أفريقية والجزر المجاورة لها فضلا عن فتح المناطق الداخلية من المغرب الأقصى .

وكان لسياسة محمد بن يزيد الحكيمة أثرها الكبير فى دخول بعض البربر فى الإسلام . وعندما توفى سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ ، ولى الخليفة الجديد عمر ابن عبد العزيز رجلا صالحا هو إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر دينار على أفريقية سنة ١٠٠هـ وبعث معه عشرة من التابعين وأمرهم بتعليم وتثقيف البربر فى علوم الدين الإسلامى حتى يقوم إسلامهم على أساس متين .

وقد قام إسماعيل بتوزيع هؤلاء التابعين فى أنحاء المغرب ، ونتج عن ذلك دخول معظم سكان المغرب فى الإسلام سوى جماعة من الروم وطائفة من اليهود . ومن ثم فقد أدى ذلك إلى إنتشار اللغة العربية فى بلاد المغرب وإن ظلت اللغة البربرية منتشرة بصفة خاصة فى المناطق الرعوية وفى أطراف المغرب .

ولما توفى الخليفة عمر بن عبد العزيز واستخلف بعده يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١هـ . وكان يزيد من أشد الولاة وأكثرهم عصبية وتشيعا للقادة العرب ولايقر سياسة المساواة ، ويرى أن سياسة الترهيب والعنف أجدى على الدولة الأموية . وأن

إنتقال البربر إلى الإسلام أضاع موردا هاما من موارد الدولة وهو الجزية ، ولهذا بـــادر بعزل إسماعيل بن أبي المهاجر وولى على أفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجـــاج بـــن يوسف الثقفى ليطبق على البربر نفس السياسة التى طبقها الحجاج على أهل العـــراق . فأراد إرجاع أهل من أسلم من أهل الذمة إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام ، فلما شرع يزيد فى ذلك أوغر عليه صدور البربر فتآمروا عليه وقتلوه بعد شهر واحد من ولايتـــه وأعادوا إلى الولاية سلفه ابن يزيد الأنصارى وكتبوا بذلك إلى يزيد بن عبـــد الملـــك الذى أقر بولاية ابن يزيد على أفريقية.

ولما سكنت الثائرة صرفه عنها وعين مكانه بشر بن صفوان الكلبى سنة ١٠٣هـــ . وكان واليا على مصر فقدم إلى القيروان وإصطنع سياسة اللين والمساواة بـــين البربر والعرب ، وظل بشر واليا على أفريقية بعد أن استبقاه الخليفة هشام بن عبد الملـــك فى حكم المغرب . وفى سنة ١٠٩ هـــ خرج بشر بن صفوان لغزو صقلية ، وعاد محمـــلا بكثير من الغنائم ، وتوفى بالقيروان فى نفس العام . وإستخلف بعده على المغرب ابـــن قرط الكلبى ، وفى رواية أخرى العباس بن باضعة الكلبى وكان عصبيا صليب الـــرأى فأحدث إضطرابا وقلقا فى بلاد المغرب نتيجة سوء معاملته للبربر فعزله هشام لمنع الفتنـــة وولى عبيدة بن عبد الرحمن السلمى سنة ١١٠هـــ ، ولم يعدل عن إتبـــاع السياســـة العنصرية ، وكان قيسيا متعصبا متحاملا على عمال بشر بن صفوان وأنصـــاره وولى على الأندلس من قبله ولاة أربعة هم على التوالى :

١- عثمان بن أبى نعسة الخثعمى سنة ١١٠ هـــ .
٢- حذيفة بن الأحوص القيسى سنة ١١١ هـــ .
٣- الهيثـــم بن عبيد الكـــنانى سنة ١١٢ هـــ .
٤- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى سنة ١١٣ هـــ .

وفى أواخر سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م خرج عبيدة السلمى من القيروان متوجها إلى الشام وحمل معه هدايا كثيرة من الجوارى والأماء والخصيان والخيل والدواب والحلى النفيسة وإستخلف حين إنصرافه على المغرب عقبة بن قدامة التجيبى .

ولما لقى الخليفة الأموى استعفاه من الولاية ثم ولى عبيد الله بن الحبحاب واليا على أفريقية وبلاد المغرب . وكان قد أثبت مهارة كبيرة فى إدارة شئون مصر ، وصارت القيروان على عهده عاصمة لعدة ممالك تابعة لها فى أفريقية وبلاد الأندلس . وكان ابن الحبحاب قيسيا متعصبا كما كان متعصبا للعرب عامة على البربر كما أساء عماله معاملة البربر وإعتبروهم فيئا للمسلمين . وكان عامل ابن الحبحاب على طنجة والمغرب الأقصى عمر بن عبد الله المرادى أشد هؤلاء العمال ظلما . كما أساء إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب حاكم بلاد السوس معاملة البربر ونقموا عليهم أحوالهم وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات والجلود العسلية . وكانت نفوس البربر تغلى بهذه المظالم التى فرضت عليهم من قبل ابن الحبحاب وعماله .

وكان البربر خاصة قبائل هوارة وزناتة لهم دور كبير فى إستكمال فتح المغرب والأندلس وكانوا يتوقعون من ولاة المغرب أن يعاملوهم بالمساواة ولكن معاملة هؤلاء السيئة للبربر غيرت نفوسهم نحو العرب فقد تحالفت زناتة مع الأفارقة الذين إعتبرهم العرب موالى وغنموا أراضيهم .

الفتنة المغربية الكبرى (ثورة البربر سنة ١٢٢هـ)

كان البربر مسلمين معتزين بدينهم ويأبون أن تخالف أحكامه وكانوا يعرفون تحريم الشريعة لسلب المال وإنتهاك الحرمات وتعذيب الحيوان ، وكانوا يأنفون الذل . وسارت روح التمرد بين بربر المغرب خاصة فى أيام هشام بن عبد الملك ، وتحدر

الإشارة هنا إلى وجود عدة عوامل أثرت بصورة فعالة فى قيام ثورة البربر سنة ١٢٢هـ وهى إنتشار مذهب الخوارج فى بلاد المغرب ، فقد نجحت بعض فرق الخوارج فى الوصول إلى أفريقية وحققت نجاحا وإنتشارا بين بعض قبائل البربر الذين أقدموا على إعتناق مبادىء فرقتين من فرق الخوارج وهما : الخوارج الصفارية من أتباع زياد بن الأصفر ، وقد نشأت هذه الفرقة أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٠- ٦٣هـ وكانوا لا يكفرون مرتكب الكبيرة ويقولون أن العدو الوحيد هو الدولة ، أما من يؤيدونها فليسوا أعداء للإسلام ، وإنما هم متساهلون فى أحكام الإسلام فهم كفار نعمة ، لا كفار إيمان، أما رجال الدولة فهم كفار إيمان ، ويتساهلون مع عامة الناس ولكنهم يقاطعونهم .

أما الإباضية أتباع عبد الله الإباضى التميمى الذى ولد فى خلافة معاوية وكتب كتاب العقيدة المنسوب إليه فى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان ٦٥ - ٨٦ هـ فقد لقى قبولا كبيرا بين أهل المغرب ، ويدعون الناس الذين يؤمنون بآراء أصحاب الداعية إلى إقامة نظام سياسى لهم فى النواحى التى لا تستطيع الدولة الوصول إليها وهم يأذنون لأتباعهم التعامل مع الناس تاركين حسابهم على الله ، كما كانوا لايدعون إلى القيام على الدولة ، ولا يكفرون مرتكب الكبيرة وهم قريبون جدا فى فهمهم للشريعة من أهل السنة ، وقد إستطاع عبد الرحمن بن رستم أن يؤسس فى المغرب الأوسط الدولة الرستمية على أساس المذهب الإباضى .

وساعدت سياسة الأمويين تجاه بلاد المغرب وتعسف بعض الولاة فى جباية الأموال ونهب ثروات بلاد المغرب فى بعض الأحيان بالطرق الغير مشروعة لإرضاء ولتنفيذ أوامر بعض الخلفاء فى تزمر وثورة البربر .

ولا شك أن البربر كانوا راغبين فى الإستقلال سياسيا عن الحكم الأموى ورفضهم الخضوع للسيادة الأموية المتمثلة فى بعض ولاة بلاد المغرب المتعصبين للعرب ضد البربر والذين اعتبروا أنفسهم سادة على البربر.

بدأت الثورة على الحكم الأموى فى إقليم الريف بمنطقة طنجة والسوس سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠ م وتزعم الثورة ميسرة بن مطغرى وإنضمت إليه جموع هائلة من البربر مثل قبائل برغواطة ومكناسة ، وتقدم الثوار حتى وصلوا طنجة فإقتحموها وقتلوا عاملها عمر بن عبد الله الراضى ثم زحفوا إلى السوس وعليه إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب وقتلوه ، وإضطرم المغرب على إثر ذلك نارا ، ولما بلغ عبيد الله بن الحبحاب مقتل إبنه وعامله وضعف مركز العرب وتزايد أتباع ميسرة من البربر ، كتب ابن الحبحاب إلى قائد جنوده حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة الفهرى يأمره بالإقلاع عن صقلية حتى يتمكن العرب من مواجهة ثورة البربر ، فندب جيوشه فى السير وسيرها بقيادة خالد بن حبيب الفهرى ، وتقدم هذا الجيش قاصدا إلى طنجة لمقابلة حشود ميسرة من البربر ، ولما وصل حبيب بن أبى عبيده إنضم إلى خالد الذى تقدم حتى عبروا وادى شليف أو شلف بالقرب من تاهرت إلى أن لقى جيش ميسره قرب طنجة فوقع بينهما قتال عنيف ، وتراجع ميسرة إلى طنجة ولكن البربر قتلوه وولوا أمرهم خالد بن حبيب الزناتى .

ولما سمع خالد بن حميد بقدوم خالد بن حبيب ومعه حماة العرب خف إلى لقائه وكان بينهم قتال عصيب ، وإنتصر ثوار البربر على قوات العرب وقتل خالد بن أبى حبيب وسميت تلك المعركة معركة الأشراف بسبب كثرة من قتل فيها من أشراف العرب . ولما بلغ ذلك إلى هشام بن عبد الملك غضب غضبا شديدا وقال : (لأغضبن للعرب لهم غضبة عربية ولابعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندى ، ثم لا تركت حصن بربرى إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسى ويمنى) . وكتب إلى ابن الحبحاب يأمره بالمثول إلى دمشق سنة ١٢٣هـ/٧٤١ م ثم أرسل الخليفة رجلا قيسيا آخر هو كلثوم بن عياض القشيرى وأرسل معه جيشا عدته ١٢ ألف مقاتل من الشاميين ، إنضم إليهم ثلاثة آلاف من جند مصر وثلاثة آلاف من جند قنسرين ، كما إنضم إليه فى طرابلس حشد هائل من جند طرابلس ويقال أن جند كلثوم بقيادة ابن عمه بلج بن

بشر قد بلغ أربعون ألفا . وإلتقى الجيش العربي بالثوار البربر بقيادة خالد بن حميد وابن يوسف الهوارى فى وادى سبو جنوبى طنجة عند بلدة بقدورة ، وهزم العرب واكتسحهم الثوار سنة ١٢٤هـ وقتل من العرب خلقا كثيرا منهم كلثوم بن عياض وحبيب بن أبى عبيدة ، وسليمان بن أبى المهاجر دينار .

ويقال أن قتلى العرب فى هذه المعركة بلغ ثمانين ألف مقاتل ، وإنهزم من بقى منهم فذهب جند الشام إلى الأندلس وجند مصر إلى أفريقية وكان من أهم نتائج هذه المعركة إنفصال المغرب الأقصى والأوسط عن سلطان القيروان ، كما شجع هذا النصر خوارج الإباضية فى المغرب الأدنى لإعلان الثورة .

لما بلغ الخليفة هشام هزيمة كلثوم فى موقعة بقدورة ندب إلى أفريقية عامله على مصر حنظلة بن صفوان الكلبى اليمنى أن يسير إلى المغرب ويقوم بولايتها ، فوصل حنظلة إلى القيروان سنة ١٢٤هـ/٧٤٢ م ووجدها مهددة بإستيلاء الخوارج الصفرية ، وكان الخليفة هشام قد أرسل إلى حنظلة جيشا ضخما من العرب وقسم البربر أنفسهم إلى فرقتين لملاحقة حنظلة : فرقة يقودها عكاشة بن أيوب الفزارى ، والثانية : يقودها عبد الواحد الهوارى ، فسلك عكاشة طريق مجانة واقترب من القيروان وعسكر عند القرن بينما سار عبد الواحد فى طريق الجبال فلقيته قوات حنظلة فى موضع يسمى الأصنام على بعد ٤٠ كم غربى القيروان وهزموه هزيمة منكرة وقتل عبد الواحد الهوارى . ثم سارت قوات حنظلة نحو قوات عكاشة عند القرن وهزموه سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢ م .

وبهذا الإنتصار إنسحبت قوات الخوارج إلى المغرب الأوسط وجبال نفوسة ، وثبات أفريقية على مذهب السنة . وبعد معركة الأصنام والقرن كتب حنظلة بن صفوان إلى هشام يبشره بالنصر الذى أحرزه على البربر ثم توفى هشام فى سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣ م ، وخلفه الوليد بن يزيد فأقر حنظلة على ولاية أفريقية .

العصبية القبلية عند العرب

لم يكن إنتصار حنظلة بن صفوان على الثورة البربرية فى موقعتى الأصنام والقرن إلا بمعاونة العرب البلديين بالرغم من التنافس بينهم وبين الشاميين الجند الرسمى للدولة الأموية ، وننوه هنا إلى أن أهل الحجاز والشام كان بينهم أحقاد دفينة يرجعها بعض المؤرخين إلى واقعة الحرة سنة ٦٣ هـ فى عهد يزيد بن معاوية ثم إنتقال الخلافة إلى بلاد المغرب ، وكان بعض الولاة يزكى نار الفتنة بأن يؤثر أحد العنصرين على الأخر فيسخط عرب الحجاز على عرب الشام أو القيسية على اليمنية ، ولا شك أن سياسة الدولة الأموية لم تكن رشيدة فى إيثار القيسية على اليمنية وتوسيع هوة الشقاق بينهما من أجل السيطرة على كلا العنصرين ، وقد أدت هذه السياسة فى بعض الفترات إلى إلحاق الهزائم بالعرب فى بلاد المغرب . وهذا لاينفى أن الموقف كان يتطلب فى بعض الأحيان تجميع العنصرين لمواجهة البربر الثائرين على ولاة أفريقية والمغرب .

وتشير الأحداث التى جرت فى بلاد المغرب أن العصبية كانت تحول دائما دون تحقيق هذا التآزر وذلك من أجل الصراع على السلطان السياسى فى المغرب ، فقد تعرض جيش العرب بقيادة كلثوم بن عياض ، وكان من ولاة عرب الشام ، لهزيمة شنعاء فى معركة بقدورة سنة ١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م بسبب العصبية التى أذكى نارها كلثوم وابن أخيه بلج فأساءوا إلى العرب البلديين وهم العرب المحليون وكانوا يعيشون فى المدن خاصة القيروان وتونس والمسيلة وطبنة ، حتى إستاءوا منهم وكتبوا إلى قائدهم حبيب بن أبى عبدة وكان من وجوه اليمنية يشكون إليه بلجا وكلثوما ، وكادت الحرب أن تنشأ بينهما لولا إعتذار ابن عياض لإبن حبيب .

وجدير بالذكر أن الكراهية ظلت قائمة بين القيسية واليمنية حتى بعد هزيمة العرب فى بقدورة . فعندما تمكن بلج من الفرار هو ومن بقى معه من الشاميين وتحصن بهم فى

سبتة ، وأقبل البربر وراءه يحاصرون المدينة وينسفون مزارعها حتى أقفرت الأرض حول سبتة ، وأصبح جنود بلج يأكلون دوابهم ، وأشرفوا على الهلاك . وقد اضطر بلـــج إلى الإستنجاد بعبد الملك بن قطن الفهري، والى الأندلس ، واستأذنه فى العبور إليه ولكنــه رفض بتحريض من عبد الرحمن بن حبيب لأنه من عرب الحجاز وبلج من القيســـية ، فإشتدت الحال ببلج وأصحابه وضاق عليهم الأمر .

ومن الجدير بالذكر أن عبد الملك ابن قطن إضطر إلى الإستعانة ببلـــج ورجالــه المحصورين بسبته عندما إمتدت الثورة البربرية إلى الأندلس والتى سنتحدث عنـــها فى موضعها .

ولعل من أهم النتائج التى ترتبت على تأييد الخلافة الأموية وتعصبـــها للقيســـية أن شجعت العرب البلديين بالمغرب الأدنى على الخروج على سلطة ولاة أفريقية ، وتمثـــل ذلك فى إلتفافهم حول زعيمهم عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نـافع ، وكان يعتمد على سمعة جده عقبة بن نافع ، وكان ذا طموح سياسى إذ نجح بفضـــل العرب اليمنيين فى القيام بثورة على حنظلة بن صفوان سنة ١٢٦هـــ واستولى علـــى أفريقية .

على كل حال - كان عبد الرحمن بن حبيب قد سار إلى الأندلس بعـــد هزيمــة العرب فى معركة بقدورة عسى أن يمكن نفسه من الوصول إلى الإمـــارة خاصـــة وأن الأندلس كانت تدور فى دوامة الصراع بين العرب والبربر ، وبين العـــرب أنفســـهم قيسيين ويمنيين ، ولكن تعيين أبى الخطار حسام بن ضرار الكلبى واليا على الأندلس سنة ١٢٥ هـــ قضى على أحلامه ، فتوجه إلى تونس سنة ١٢٦هـــ ، فدعا أهلها إلى نفسه فأجابوه ثم سار إلى القيروان وكتب إلى حنظلة ومن معه يطلب منـــهم تـــرك المدينــة وأمهلهم ثلاثة أيام ، وتشير الروايات التاريخية إلى أن حنظلة كـــان رجـــلا زاهـــدا فى الإمارة ، يكره سفك دماء المسلمين ، فآثر أن يتنازل عنها لعبد الرحمن خاصـــة وأن

الأخير قد هدده بقتل ٥٠ رجلا كان قد إحتجزهم من أشراف القيروان وهم الذيـــن أرسلوا إليه من قبل حنظلة لينصحوه بعدم الحرب .

دخل ابن حبيب القيروان ونهى الناس عن تشييع حنظلة الذى خرج إلى دمشق سنة ١٢٧هـــ ، وسارع عبد الرحمن بإرسال بيعته إلى الخليفة مروان بن محمد آخر الخلفـــاء الأمويين فأقره على ولاية المغرب ، ولم يكن الخليفة فى موقف سياســـى أو عســـكرى يسمح له برفض إمارة ابن حبيب الذى إغتصبها وأصبح أميرا شبه مستقل عن الدولـــة الأموية .

وقد إعتمد عبد الرحمن فى سياسته على إخوة مخلصون له هم : إليـــاس وعمـــران وعبد الوارث ، وكانوا يشدون أزره ضد أعدائه من خوارج البربر خاصـــة فى جبـــل نفوسة فى طرابلس بزعامة أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الإباضى .وكان عبد الرحمن غير واضح السياسة ، فنفر منه العرب والبربر ووقعت الحرب بينهم وكـــان إلياس قائد جيش أخيه عبد الرحمن وولى عهده ، غير أن عبد الرحمن عزله وولى ابنـــه حبيب ولاية العهد مما أثار غضب إلياس فوقعت الحرب بين الأخوين بتحريـــض مـــن زوجة إلياس وكانت أموية ناقمة على عبد الرحمن نتيجة لقتله بعض أمراء بـــنى أميـــة الفارين من وجه العباسيين ، حيث كان عبد الرحمن يخشى منافستهم له على الأمـــارة ، فوثب إلياس على أخيه فقتله سنة ١٣٧هـــ بعد أن حكم أفريقية حوالى إحدى عشـــرة سنة .

فر حبيب بن عبد الرحمن بعد قتل أبيه إلى تونس وإجتمع مع عمه عمران وســـار إلياس إليهما وإقتتلا قتالا يسيرا ثم إصطلحوا على أن يكون لحبيب ولاية قفصة وقسطيلة ونفزة ، ويتولى عمران تونس وصطفورة وجزيرة شريك ، ويتولى إلياس سائر أفريقيـــة ، وتم ذلك سنة ١٣٨هـــ/ ٧٥٦ م .

لم يلبث إلياس أن غدر بعمران أخيه فقتله وأخذ منه تونس ، وقتل جماعة من الأشراف الذين ناصروه ، ثم قتل حبيب عمه إلياس إنتقاما منه لمقتل أبيه عبد الرحمن ، ثم طلب عمه عبد الوارث لمشاركته فى دم أبيه ففر الأخير إلى قبيلة ورفجومة وهم من بربر نفزة ، فزحف إليه حبيب للقبض عليه غير أن عاصم بن جميل وجنده الورفجوميين قاتلوا حبيب بن عبد الرحمن قتالا شديدا وتمكنوا من هزيمته ففر إلى جبل أوراس وقام بنصرته من كان هناك من المسلمين ، ولما رأى أهل القيروان تغلب عاصم على حبيب كتبوا إليه يدعونه للولاية عليهم فزحف عاصم إلى القيروان ودخل بربر ورفجومة المدينة سنة ١٣٨ هـ . ثم استخلف عاصم ابن جميل عبد الملك بن أبى الجعد الورفجومى على القيروان ، وسار لقتال حبيب فى جبال أوراس وإشتبك معه فى قتال عنيف أسفر عن مصرع عاصم وقتل معظم أصحابه ، ثم تقدم حبيب إلى القيروان فخرج إليه عبد الملك ابن أبى الجعد خليفة عاصم وإنقض على عسكر حبيب وتمكن من قتله فى محرم سنة ١٤٠هـ ، وإقتحم الورفجوميون القيروان وقضوا بذلك على بنى حبيب ، وتم بذلك سيادة البربر الصفارية على أفريقية والمغرب وإستحلوا المحارم ووضعوا سيوفهم فى رقاب أهلها وربطوا دوابهم فى جامع عقبة بن نافع ، وأصبحت أفريقية مركز الخوارج الصفرية.

ويمكن القول أن هذا العمل قد دفع الخوارج الإباضية فى ولاية طرابلس بزعامة أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى إلى أن يسيروا بجموعهم إلى القيروان ليطردوا الخوارج الصفرية منها واستعانوا ببربر طرابلس وفى مقدمتهم هوارة ومن إنضم إليهم من أهل القيروان ، واشتبك الفريقان بالقرب من القيروان سنة ١٤١ هـ وتمكن أبو الخطاب من هزيمة عبد الملك ودخول القيروان ، واستخلف عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضى وعاد أبو الخطاب إلى طرابلس لملاقاة قوات الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور التى أرسلها لمقاتلته بقيادة والى مصر محمد بن الأشعث وكان فى جملة عساكره الأغلب ابن سالم التميمى .

إستطاع ابن الأشعث أن يلحق الهزيمة بالخوارج الإباضية وقتل أبو الخطاب عبـــد الأعلى سنة ١٤٤هـ بالقرب من تورغا الواقعة شرق طرابلس . وعادت أفريقية بذلك إلى مذهب السنة ، وفر من بقى من الإباضيين بقيادة عبد الرحمن بن رستم إلى المغـرب الأوسط والبعض الآخر إلى جبل نفوسة .

ولاة أفريقيــة فى العصــر العباســى

لم يدم الملك طويلا لمحمد بن الأشعث فى أفريقية فقد إشتعلت نار العصبية القبلية من جديد وكان ابن الأشعث يمنيا ومعظم جنده من القيسية فإتفقوا على خلعه وأقاموا على أفريقية عيسى بن موسى الخراسانى على غير عهد من الخليفة المنصور .

غير أن أبو جعفر المنصور أسند ولاية أفريقية إلى زعيم من زعماء العرب البلديـين فى مصر وهو الأغلب بن سالم التميمى فى جماد الأخر سنة ١٤٨هـ فسار إلى أفريقيـة مع أهله ومن بينهم ابنه إبراهيم ودخل القيروان وأخرج منها جماعة من قواد المضريـة فإستقامت له الأحوال ودانت له البلاد بالطاعة . ومن ثم كتب إليه الخليفة المنصـور يأمره بإقامة العدل بين الرعية وتحصين القيروان وإحاطتها بخندق لوقايتها من الهجـوم ، وينظم حاميتها . لكن الخوارج الصفرية عادوا مرة أخرى يهاجمون أفريقية بزعامة أبـو قرة بن دوناس اليفرنى الصفرى ، وتمكن أحد قواد الأغلب وهو الحسن بـن حـرب الكندى والذى تمكن من إيغار قلوب القواد والجند على الأغلب وإستمالتهم إليه مـن قتل الأغلب سنة ١٥٠ هـ ونجا ابنه إبراهيم بمن معه إلى طبنة فى إقليم الزاب .

ولما بلغ المنصور قتل الأغلب بن سالم وخاف على أفريقية ولى عليها عمـر بـن حفص بن أبى قبيصة المهلبى ، ووصل أبو حفص إلى أفريقية سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م وبدأ بذلك عصر المهالبة الذى إستمر خمسة وعشرون عاما .

وكان أبو حفص عمر من المهالبة وهم أهل إستقرار وخبرة بشئون الإدارة . ومكث بالقيروان ثلاث سنوات فإستقامت له فيها الأمور ثم خرج إلى الزاب بأمر المنصور لبناء مدينة طبنة ، واستخلف على القيروان حبيب بن أبي حبيب المهلبي ، فإغتنم البربر فرصة خروجه وثاروا على حبيب وقتلوه ، وأجمعوا الرأى على أبي حاتم الإباضي وكان عامل عمر بن حفص بن أبي قبيصة على طرابلس . ومن ثم كان على أبو حفص أن يواجه أبو حاتم الإباضي لكنه إنهزم وقتل سنة ١٥٤هـ/٧٧١ م .

بلغ أبو جعفر المنصور ما نزل بالعرب فى أفريقية من الخوارج الإباضية ومقتل عامله عمر ابن حفص فأرسل إلى أفريقية يزيد بن حاتم المهلبي ابن عم أبي حفص وكان يتولى أمر مصر ، وقد أمره الخليفة أن يتجنب الإسخان فى البربر فوصل يزيد إلى أفريقية سنة ١٥٥هـ/٧٧٢ م . وبدأ فى تاريخ أفريقية عصرا من الإستقرار وهو عصر المهالبة .

تمكن يزيد بن حاتم من إقرار الأمور مستعينا بقوم من الأزد وظل فى حكم أفريقية خمسة عشر عاما دأب فى خلالها على إنهاك الإباضية بالهجوم عليهم فى فترات متعاقبة وتمكن من القضاء على تمرد ورفجومة ، وإهتم يزيد بإصلاح ما أفسدته الحروب والثورات وأعاد تنظيم مدينة القيروان حتى ظلت أفريقية تنعم بالهدوء والأمن حتى توفى سنة ١٧٠هـ فى خلافة هارون الرشيد .

وتوالى المهالبة على حكم أفريقية وأهمهم أخوه روح الذى نجح فى إقرار السلام والهدوء فى أفريقية وكان لا يقل عن يزيد كفاية وقدرة وتوفى سنة ١٧٤هـ . وكان آخر المهالبة الفضل بن روح بن حاتم الذى ولاه الرشيد على أفريقية سنة ١٧٧هـ/٧٩٣ م . غير أن جند أفريقية لم يرضوا عن إستبداده هو وابن أخيه المغيرة بن بشر حاكم مدينة تونس وكان مستخفا بالجند وقدموا على أنفسهم قائد منهم هو عبد الله ابن الجاروت ، واستطاع ابن الجارود قتل الفضل بن روح سنة ١٧٨ هـ/ ٧٩٤ م .

وهكذا إنتهت رياسة المهالبة فى أفريقية . ثم ولى هارون الرشيد هرثمة بـــن أعــين وكان من من أكبر رجال الحزب العربى فى بلاط هارون الرشيد وله درايـــة كبـــيرة فى الحكم والحرب .

قدم هرثمة إلى أفريقية ودخل القيروان فى ربيع الآخر سنة ١٧٩هـ / يونيو ٧٩٥ م وأقام على الزاب إبراهيم بن الأغلب . إهتم هرثمة بالإنشاءات فجدد إنشاء ميناء تونس ومسجد القيروان ، وإهتم ببناء القصور مثل القصر الكبير بالمنستير سنة ١٨٠ هـــــ/ ٧٩٦ م وبنى سور مدينة طرابلس ثم طلب من هارون الرشيد الإستعفاء عــــن إمـــارة أفريقية لكثرة ثورات أهلها فأمره بالقدوم إليه فخرج من أفريقيـــة ســـنة ١٨١هـــــ/ ٧٩٧ م .

وإستعمل الرشيد على أفريقية محمد بن مقاتل الكلبى ، فقدم إليها سنة ١٨١هـــــ وأساء السيرة فى الجند والرعية وقد ثار عليه أبو الجهل تمام بن تميم عامله على تونـــــس وإستطاع دخول القيروان سنة ١٨٣هــ/ ٧٩٩ م وفر محمد بن مقـــاتل إلى طرابلـــس وأقام بها إلى أن إستطاع إبراهيم بن الأغلب حاكم الزاب من دخول القيروان وإعـــادة محمد بن مقاتل الأمير الشرعى على أفريقية إلى القيروان ، وأنس فيه محمد بن مقـــاتل كفاية وإخلاصا فقربه وأعلى مكانته . غير أن أهل أفريقية كرهوا حكم محمد بن مقاتل وطلب بعضهم من إبراهيم بن الأغلب أن يتولى شئونهم بدلا من محمد بن مقـــاتل وأن يكاتب هارون الرشيد يطلب منه تعيينه على أفريقية فوافق هارون على ذلـــك وأمـــر بإرجاع ابن مقاتل إلى العراق سنة ١٨٤هــ/ ٨٠٠ م .

وبولاية إبراهيم بن الأغلب يبدأ عهد جديد فى تاريخ أفريقيـــة والمغـــرب حكـــم بواسطة أسرة عربية تابعة للخلافة العباسية .

الدويلات المستقلة فى بلاد المغرب

ظهور النظام اللامركزى فى الدولة العباسية :

أيقن بنو العباس فى خلافتهم بعد أن أيقظوا دعاوى القومية فى بلاد الإسلام أنه لا مفر من إعطاء الإستقلال الداخلى للولايات غير العربية ومنها ولاية أفريقية وذلك لسببين :

الأول : مطالبة أهالى الولايات غير العربية بالإستقلال وإدارة بلادهم البعيدة عن مركز الخلافة نتيجة سوء تصرف العمال والولاة .

الثانى : قيام السياسة العباسية على الدعاوى بتقبيح نظام المركزية فى الحكم الذى وضعه المروانيون وكانوا يشنون به الغارة عليهم تنفيرا للأعاجم من حكمهم . وقد كانوا يواعدونهم إن هم أجابوهم إلى دعوتهم سيتمتعون بنوع من الإستقلال وكان من الطبيعى أن يكون إنتقال الحكم إلى العباسيين فاتحة إنقلاب سياسى تتطور به حياة الشعوب غير العربية فى ظل الدولة العباسية وتعويضها بنوع من الإستقلال الجزئى عن الخلافة العباسية القائم على إصطناع الأسر وهذا ما تم بولاية أفريقية فى عهد هارون الرشيد وإناطة إدارتها لإبراهيم بن الأغلب وجعلها وراثية فى عقبه .

الدولة الأغلبية : ١٨٤ - ٢٩٦ هـ/ ٨٠٠ - ٩٠٩ م

تعتبر دولة الأغالبة من أهم الدويلات التى قامت فى المغرب ومركزها القيروان وكانت تتكون من طرابلس وأفريقية وإقليم الزاب ، وكان منهجها فى الحكم إدماج البربر فى العرب وتحويل نشاطهم فى الخارج والتوسع فى قارة أوربا . وإتسمت علاقتها مع الدول المجاورة لها على أساس القوة والسطوة . وتنسب هذه الدولة إلى مؤسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى وكان يتمتع بحسن التدبير والدراية بالحروب فضلاً عن تفقهه فى الدين .

وقد سبق أن ذكرنا أن أهل أفريقية كرهوا ولاية محمد بن مقاتل العكى ، وأن هارون الرشيد قد ولى إبراهيم أفريقية بعد أن تعهد الأخير لهارون بأن يتصرف كعامل عباسى تابعاً للخلافة العباسية ، وأن يستغنى عن مائة ألف دينار كانت ترسل من مصر إلى أفريقية سنوياً مساعدة لوالى أفريقية فضلاً عن أربعون ألف دينار ترسل من ولاية أفريقية إلى دار الخلافة ، على أن تكون الولاية فى بنى الأغلب ووافق ابن الأغلب على أن يكون للخليفة العباسى الحق فى تعيين قاضى القيروان وكذلك عزل الوالى الأغلبى إذا أساء التصرف بشرط أن تقيم والياً من بنى الأغلب بدلاً منه .

إتخذ إبراهيم بن الأغلب مدينة القيروان عاصمة لدولته واستطاع إنشاء قوة عسكرية خاصة به وقد تكونت تلك القوة من البربر المستعربة الذين عملوا جنداً مرتزقة فى الجيش الأغلبى ، والصقالبة وهم جند من أصل أوربى كانوا يشترون صغاراً من بلاد أوربا ويربون تربية عربية اسلامية وكانوا يعملون كخدم للدولة فى القصور أو يربون تربية عسكرية ويلحقون بجيش الدولة وكحرس للحكام والأمراء . وقد إستكثر إبراهيم بن الأغلب من جلب الصقالبة وأضاف إليهم بعد ذلك طائفة أخرى من السودان .

ورأى إبراهيم إجتناب الإقامة فى القيروان وأنشأ بالقرب منها قاعدة عسـكرية فى جهة الجنوب الغربى عاصمة سماها العباسية ثم سميت بالقصر القديم وإنتقل إليها بأهلـه وحاشيته وعسكره وأصبح القصر القديم قاعدة الحكم فى البلاد فـأمن علـى نفسـه وإنقطعت الفتنة . وكان القصر القديم مدينة كاملة محاطة بسور قديم على أركان عاليـة يقوم فيها الحراس وعلى غرار المدن الاسلامية فى العصور الوسطى يوجد فيها قصـور الأمير وخاصته ومعسكر لجنده ، هذا إلى جانب الأسواق وحفرت الآبار داخل المدينـة التى كانت تقدم لأهلها حاجتها من الماء .

ونجح إبراهيم بن الأغلب فى القضاء على ثورات الخارجين مثل ثورة حمديـس فى تونس سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م ، وهو رجل من أبناء العرب فأرسل إليه إبراهيم جنوده بقيادة عمران العامرى الذى نجح فى قمع هذه الثورة . كذلك قضى على ثورة عسـكر إفريقية بقيادة فريش الكندى سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢ م وكانت ثورة مناهضة للخلافـة العباسية ، ونجح عمران العامرى القائد الأعلى لجيوش الدولة الأغلبية فى القضاء علـى هذه الثورة .

وفى سنة ١٨٩هـ/٨٠٥ م أخمد فتنة الجند فى طرابلس ، ومن أخطر الثورات الـتى نجح إبراهيم فى القضاء عليها ثورة قائده عمران العامرى والتى اسـتمرت لمـدة عـام أضحت البلاد خلاله نهباً للإضطراب والفوضى حتى بلغ هارون الرشيد الخبر فأرسل إلى إبراهيم الأموال لدفع رواتب الجند والتى كانت بمثابة السحر فى قلوب الثوار فـإنفضوا من حول عمران الذى فر إلى الزاب .

ولما توفى إبراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦هـ/ ٨١١ م خلفه ابنه أبو العباس عبد الله ابن إبراهيم وإستمرت ولايته من سنة ١٩٦-٢٠١هـ/٨١٢ - ٨١٧ م . وتميز عـهده بالعنف وأوغر صدور العامة بإلغائه ضريبة الأعشار وتعويضها بخـراج ثـابت علـى

الأراضى على كل فدان ثمانية دنانير دون حساب لسنوات الخصب ولسنوات الجدب وكان ذلك فى نظر العامة أول أمير خرج على أحكام الشريعة فكرهوه كما أساء لأخيه زيادة الله الذى كان قد أخذ له البيعة عند وفاة والدهما إبراهيم .

بعد وفاة عبد الله خلفه أخوه زيادة الله وكان من أعظم ملوك الدولة الأغلبية وأعلاهم صيتاً . وكان حاله فى أفريقية أشبه ما يكون بحال عبد الملك بن مروان فى المشرق فى كثرة الخارجين عليه ومثابرته لهم حتى ظفر بهم ومن أعظم إنجازاته فتحه جزيرة صقلية إبتداء من سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، وترجع أسباب فتح صقلية إلى العوامل الآتية :

١-القضاء على غارات الروم فى غرب البحر المتوسط ، وتطهير الجزر من السفن البيزنطية .

٢-أهمية موقع جزيرة صقلية وقربها من سواحل أفريقية مما يهدد سواحل دولة الأغالبة .

٣-الجهاد فى سبيل الله ورفع مكانة دولة الأغالبة فى نظر المسلمين .

٤-أراد زيادة الله أن يتخلص من ثورات جنده وأن يكسر شوكتهم بعد أن إزداد عددهم فتاقت نفسه إلى إشراكهم فى هذه الغزوة .

٥-أما السبب المباشر الذى جعل زيادة الله يسرع بالحملة إلى صقلية أن قائداً رومياً يسمى فيمى ثار على حاكم صقلية بلاتوس ويعربه العرب بلاطه ، وأعلن الثورة واستقل بشرق الجزيرة وتحصن فى سراقوسة وأرسل يستنجد بزيادة الله ويعده بملك جزيرة صقلية .

لم يكد يصل إستنجاد فيمى إلى زيادة الله لفتح صقلية حتى هب لإجابة غياثه وأصدر أوامره دار الصناعة التى أنشأها بسوسة بإخراج أسطول إلى البحر وجهزه بعدة عظيمة وملأه بالجنود وأختار لقيادة الجيوش الفاتحة فقيهاً مالكياً هو أسد بن الفرات

فجمع له بذلك بين الإمارتين ، إمارة الجيش وإمارة الأحكام ، وتعرض المسلمون خلال الغزو لكثير من الأهوال حتى وصلوا إلى بلدة مازر ، وفر بلاطه إلى قلورية فقتل بها وإستولى المسلمون على عدة حصون فى الجزيرة ثم حاصر أسد بن الفرات سرقوسة براً و بحراً لكن حاكم بلرم حاصر المسلمين فى سرقوسة فخندق المسلمون على أنفسهم وفى أثناء الحصار أصاب الجيش وباء قضى على معظم معسكر المسلمين ومن بينهم أسد بن الفرات ، ونتج عن ذلك تفكك واضطراب القوات الفاتحة كما إنتهز بلاتوس أو بلاطه الفرصة وهاجم قصر يانة فقطع بذلك خط الإمدادات عن المسلمين وإضطرهم إلى الإرتداد عن سرقوسة فتحصنوا فى حصن مناو بالقرب منها .

ومما لاشك فيه أن هزيمة المسلمين ترجع إلى عدم خبرة الفقيه أسد بن الفرات وكان ينبغى عليه أن يسير رأساً إلى العاصمة بلرم ويستولى عليها وبذلك يتم الفتح الإسلامى لصقلية خاصة وقد تمكنوا فى بداية الأمر من النزول بأرضها مدفوعين بدافع الجهاد فى سبيل الله لنشر الإسلام ، ويبدو أن فيمى قد قدم بعض المساعدات للمسلمين حتى تمكنوا من الإستيلاء على بعض مدن صقلية التى أصبحت مهددة بالسقوط نهائياً فى يد المسلمين إذا تولى أمرهم قائداً عسكرياً يجمع بين القوة الروحية والحنكة والقوة العسكرية .

ثم حدث أمر لم يكن فى الحسبان إذ أقبل أسطول من الأندلس سنة ٢١٤هـ/٨٢٩ م يحمل نفراً من الأندلسيين يقودهم أمير البحر أصبغ بن وكيل المعروف باسم فرغوش ، كما وصلت سفناً من أفريقية مدداً للمسلمين فبلغت جميعها ثلاثمائة سفينة ولما رآهم الروم إنهزموا وفكوا الحصار عن المسلمين فى مناو ، وإتجه المسلمون بعد ذلك نحو بلرم وفتحوها فى شهر رجب سنة ٢١٦هـ/٨٣١ م وبعد أن تمكن أصبغ من دخول بلرم أصابه الوباء ومات شهيداً ، وبذلك أتيحت الفرصة أمام البيزنطيين فإستعادوا قصر يانة ، وأرسل زيادة الله بن الأغلب قائداً جديداً هو أبو فهر الأغلبى إستطاع دخول بلرم وطرد البيزنطيين ثم توفى وتولى بعده أخوه أبو غالب وفى

تلك الأثناء توفى زيادة الله بن الأغلب سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٧ م وأحدثت وفاتـــه أثـــراً كبيراً فى نفوس المسلمين فدب الوهن فى نفوسهم ، ولكنهم إستعادوا حماسهم فى قتـــال الروم والإغارة على مدن صقلية .

ظلت صقلية طوال العصر الأغلبى مركزاً للجهاد وتحولت شيئاً فشـــيئاً إلى بلـــد إسلامى تسوده الحضارة الإسلامية رغم قلة أعداد المسلمين فيها ولكن الصقليين دخـــل كثير منهم فى الإسلام وأنشأوا حضارة إسلامية فى صقلية وما زالت آثارهم فيها باقيـــة إلى اليوم فى هيئة قصور وبقايا مساجد ، وتحولت بلرم إلى مركز علمى عـــربى وفيـــها عاش بعد سقوط صقلية فى يد النورمان الجغرافى أبى عبد الله محمد بن إدريس المعـــروف بالشريف الإدريسى صاحب كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق رســـم خريطـــة كروية شاملة للعالم - معتمداً فيها على خريطة بطلميوس بعد تصحيحها - مقســـما محيط الأرض طولا الى عشرة أجزاء متساوية ،بخطوط تبدأ من قطب الكرة الشـــمالى ، وتنتهى عند قطبها الجنوبى ، ثم قسمها إلى سبعة أحزمة عرضية فوق خط الإســـتواء ، تنقسم فى داخلها إلى تسعين قسماً فيما بين خط الإستواء والقطب الشمالى ، ويعتـــبر الإدريسى سابقاً بذلك الجغرافى الإنجليزى مركاتور - القرن التاسع عشر - الذى رســـم خريطة للأرض يعتمد عليها الجغرافيون فى رسم الخرائط حتى وقتنا الحاضر .

وفى أثناء حكم محمد بن الأغلب فتح المسلمون مالطة ســـنة ٢٦١هـــ/٨٧٤ م وتمكن الأغالبة سنة ٢٨٤هـــ/٨٩٧ م من فتح ميقش فى شرق صقلية وغزو قلوريـــة فى أقصى جنوب إيطاليا .

خلفاء زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب :

١- لما توفى زيادة الله خلفه أخوه أبو العقال (٢٢٣-٢٢٦هـ/٨٣٧-٨٤٠ م) وكانت أيامه كلها هادئة إلا إنتفاض خوارج زواغة ولواتة ومكناسة سنة ٢٤٤هـ/٨٣٨ م وقد نجح أبو العقال فى القضاء عليهم .كذلك إهتم بإرسال الحملات إلى صقلية ونجح المسلمون فى إفتتاح عدد من حصونهم مثل حصن البلوط وإفتتاح مدينة قلورية .

٢- أبو العباس محمد بن الأغلب (٢٢٦-٢٤٢هـ/٨٤٠-٨٥٦م) ثم خلفه ابنه أبو إبراهيم أحمد بن محمد (٢٤٢-٢٤٩هـ/٨٤٠-٨٦٣م) ثم خلفه أخوه أبو محمد زيادة الله بن محمد (٢٤٩-٢٥٠هـ/٨٦٣-٨٦٤ م) ثم خلفه ابن أخيه أبي الغرانيق محمد بن إبراهيم أحمد (٢٥٠-٢٦١هـ/٨٦٤-٨٧٤ م) ثم أخوه إبراهيم ابن أحمد (٢٦١-٢٨٩هـ/٨٦٤-٩٠١ م) ويعتبر إبراهيم أعظم أمراء بنى الأغلب فقد أسس مدينة رقادة سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦ م جنوب القيروان وأتم بناء المسجد الجامع الذى بدأه أبوه إبراهيم أبو أحمد الأغلبى وإليه ينسب الماجل العظيم - والماجل عبارة عن حوض ماء مبنى بالحجر ليجتمع فيه ماء المطر - ، كما إهتم ببناء الحصون والمحار س على سواحل البحر وكانوا ينشئون فى كل محرس برجا للنار لإرسال الإشارات فكان الخبر يصل من بجاية على الساحل الشمالى لجمهورية الجزائر الحالية حتى طرابلس فى أقل من ليلة . أما بالنهار فكانت الإشارات ترسل بالدخان . وفى عهده ظهر أبو عبد الله الشيعى داعى الفاطميين فى منازل قبيلة كتامة وبدأ يغير على بلاد الأغالبة . وتوفى إبراهيم أثناء إغارته على ساحل إيطاليا الجنوبى وذلك سنة ٢٨٩هـ/٩٠١ م بأرض قلورية ، وبوفاة إبراهيم بدأ الضعف يدب فى كيان دولة الأغالبة .

ثم تولى بعده أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (٢٨٩-٢٩٠هـ/٩٠١-٩٠٢ م)ثم زيادة الله بن عبد الله آخر حكام الأغالبة (٢٩٠-٢٩٦هـ/٩٠٢- ٩٠٨ م) وقد استهل حكمه بقتل أعمامه وقتل أخاه أبو عبد الله ، وعكف على لذاته ولهوه وأهمل أمور دولته حتى أنهكتها الصراعات والضغوط الخارجية من جانب أبو عبد الله الشيعي الذى أخذت جيوشه تستولى على مدن الأغالبة ولما أحس زيادة الله الثالث بقرب النهاية فر من العاصمة إلى طرابلس ثم إلى مصر فسقطت رقادة وإنقرضت دولة الأغالبة[١] سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨ م .

ويعتبر عصر الأغالبة من أزهى عصور الإزدهار الإقتصادى والعمران فى تاريخ أفريقية خاصة زمن الإستقرار ، فقد إزدهرت الزراعة وساعد على ذلك عدم تعرض أفريقية للقحط إلا فى عهد أبى الغرانيق سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣ م ، وترتب على إزدهار الزراعة إزدهار الصناعة خاصة صناعة السجاجيد والمنسوجات وصناعة المعادن من الذهب والفضة وكذلك صناعة الزجاج ، وراجت التجارة نتيجة إهتمام الأغالبة بتأمين الطرق التجارية وإزدهار الزراعة والصناعة .

كما إهتمت دولة الأغالبة بصناعة السفن مما مكنها من إنشاء إسطول قوى جعلها من الدول البحرية الهامة على البحر المتوسط كما إهتموا بالعمارة والبناء ، ومن أعظم منشئاتهم مسجدا القيروان وتونس وهما مسجد كلا من عقبة ومسجد الزيتونة الذى بناه عبيد الله بن الحبحاب وإعطائهما صورتهما الباقية إلى اليوم . وكان زيادة الله بن الأغلب ينفق أموالا كثيرة فى تجديد مأذنة مسجد القيروان ورفع قبابه ، كما أكمل إبراهيم بن أحمد سادس أمراء الأغالبة مسجد الزيتونة الذى بناه عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤هـ/٧٣٢ م وأمر ببناء قبابه المضلعة ووضع فيه أعمدة الرخام وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية كما أمر ببناء القبة الكبيرة فى مسجد القيروان ،

وقام أبو العباس محمد الأغلبى خامس أمراء الأغالبة ببناء جامع سوسة ، ويعد من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية فى أفريقية .

كذلك إهتم الأغالبة بالمنشآت العسكرية فأنشأوا الأسوار والأبراج ودارين لصناعة السفن فى تونس وسوسة ، وأنشأوا أيضا الرباطات للمجاهدين والمرابطين .

وإهتم أمراء الأغالبة ببناء صهاريج المياه ، والصهريج خزان ماء فوق الأرض ، أما الجب فهو خزان واسع للمياه فى باطن الأرض يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى ٤٠ متر وعمقها نحو عشرين ، ثم يبنون عند الماء حجرة أو قبوا واسعا بالحجر أو الطوب المطلى وقد بطن بالرخام ويرفع سطح هذه الغرفة على أعمدة وبوائك وله سلالم تودى إلى حيث يوجد الماء فى الغرفة ، وللجب مداخل وممرات يدخل منها المطر والهواء ، ويستخرج الماء عن طريق فتحات فى السقف تشبه الآبار .

ومن أبرز فقهاء القيروان أسد بن الفرات ، وأبو سعيد عبد السلام بن حبيب المعروف بإبن سحنون ، وقد عاصر الأغالبة الأربعة الأول وتوفى سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٨م وتعرض للأذى على يد الأمير الأغلبى زيادة الله الأول الذى أشتدت محنة خلق القرآن فى أيامه ، وكانت الدولة العباسية تمتحن القضاة وكان سحنون ومعظم فقهاء المغرب لا يقولون بخلق القرآن أيام الخليفة المعتصم قبل أن ينال سحنون العذاب ، وينسب إلى سحنون تدوين كتاب مالك بن أنس المعروف بالمدونة . وكان طلاب العلم يفدون إلى القيروان ينهلون من علم علمائها الذين أقاموا حلقات خاصة للدراسة فى المساجد .

دولة الرستميين فى تاهرت

ذكرنا من قبل أن الدولة العباسية قد أرسلت محمد بن الأشعث والى مصر على رأس حملة عسكرية إستطاعت أن تهزم الخوارج الإباضية سنة ١٤٤هـ/٧٦١م وتقتل أبا الخطاب المعافرى ، وفرار عبد الرحمن بن رستم الإباضى عامل أبو الخطاب إلى المغرب الأوسط عند بلدة حصينة وسط الجبال تسمى تاهرت جنوب الجزائر الحالية ، ولما علم ابن الأشعث بذلك جمع جيشا وسار به لمحاربة عبد الرحمن بن رستم قبل أن يستفحل أمره ، وبالرغم من محاصرة ابن الأشعث لعبد الرحمن بن رستم إلا أنه إضطر إلى فك الحصار لمناعة موقع تاهرت وإنتشار وباء الطاعون بين جند ابن الأشعث .

إستقر عبد الرحمن فى تاهرت حتى إجتمع إليه عددا كبيرا من وجهاء الإباضية وعلماؤهم ، وتسارعت قبائل هوارة ولواتة ولماية بالإنضمام إليه ، وأجمع هؤلاء على مبايعة عبد الرحمن ابن رستم لرئاستهم ، وكان لابد له أن يؤسس مدينة يترل فيها هو وأتباعه تكون عاصمة لدولته فإختار تاهرت حيث لا يمكن الوصول إليها من الغرب والشرق لموقعها بين الجبال ، أما من جهة الجنوب فكان من السهل الإتصال بالإباضية فى جبل نفوسة ، ووقع إختياره على الموقع الذى تقوم عله مدينة تاهرت القديمة . ولما كانت تاهرت مدينة صغيرة وعبد الرحمن فى حاجة إلى مدينة كبيرة لذا أنشأ تاهرت الجديدة وبناها على ضفة نهر يسمى مينه على سفح جبل جزول وتقع على بعد خمسة أميال من تاهرت القديمة ، وأنشأ فيها مسجدا جامعا ، وحصنها بأسوار ، ثم أقبل الناس على بناء الدور والقصور والحمامات والحوانيت .

وكان لتاهرت عدة موانىء أهمها مرسى وهران الذى كان يربط الدولة الرستمية بالأندلس . وفتحت تاهرت أبوابها لكل الخارجين على الدولة العباسية ، وأقام عبد الرحمن إمامة إباضية تحكم على أساس مبادىء الإباضية القائمة على الأخوة والمساواة

والورع ، ولم يبايع الإباضيون عبد الرحمن بن رستم إلا في سنة ١٦٠هـ/٧٧٦ م ، وقد راعوا أربعة أسس إختاروا على أساسها إمامهم وهي :

١- **الفضل** : ويراد به العدالة وهي جماع صفات الكمال الأخلاقي من حيث سلامة الإعتقاد ، وصحة الجوارح ، ونزاهة النفس .

٢- **العلم** : وهو العلم الكامل للإسلام وعلومه ، وهو ما يوصل إلى مصلحة الجماعة في الدنيا وسعادتها في الآخرة .

٣- **الوصية** : ويراد بها إيصاء الإمام بمن يخلفه ، ولا تكون هذه الوصية فرضا ملزما للإباضيين وإنما هي توجيه على غرار ما فعله أبو بكر عندما أوصى لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما . وكان الإباضيون أميل لإتباع ما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بإختيار ستة من الصحابة لينتخبوا من بينهم خليفة للمسلمين .

٤- ألا يكون الإمام من عصبية تؤيده حتى لا يعتمد عليها في فرض سلطانه على الناس ، ويتم إنتخابه بذلك على أساس الشورى .

وبهذه الصورة بويع عبد الرحمن بن رستم بالإمامة في جامع تاهرت ، وسلو في الناس بالعدل فوفدت على تاهرت جاليات كثيرة من الكوفيين والبصريين والمصريين والأندلسيين ، وكان لكل جالية من هؤلاء حي خاص من أحياء القيروان ، وتوفي عبد الرحمن سنة ١٦٨هـ/٧٨٤ م وكان قد أوصى قبل موته إقتداء بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يختار خلفه سبعة من خيرة رجال الدولة الرستمية وهم : مسعود الأندلسي ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وعمران بن مروان الأندلسي ، وأبو الموفق سعدون بن عطية ، وشكر بن صالح الكتامي ، ومصعب بن سدمان ، ويزيد بن فندين . وبعد إجتماع شيوخ الإباضية تم إختيار عبد الوهاب بن عبد الرحمن وبويع له بالإمامة . وكان رجال الدولة الرستمية يميلون إلى اختيار مسعود الأندلسي وكادت الإمامة تخرج

من عبد الوهاب لولا تأييد قبيلة زناته له لأن أمه كانت من هذه القبيلة ، كذلك أيده الفرس بإعتباره من أصل فارسى ، وفضل مسعود الأندلسى الإنسحاب وبذلك غلب مبدأ الوراثة على مبدأ الإختيار والشورى .

وكان يزيد بن فندين يطمع فى الإمامة لنفسه فقام بإثارة الفتنة فى تاهرت وأنكر إمامة عبد الوهاب عن طريق الوراثة ، وأدى ذلك إلى إنشقاق فريق على الإمام عبد الوهاب وسمى هذا الفريق بالنكارية وبذلك إنقسم الإباضية إلى فرقتين :

الأولى : تسمى الوهابية ، وهم أنصار عبد الوهاب بن عبد الرحمن . والثانية: النكارية ، أى المنكرين لإمامة عبد الوهاب . وقامت المعارك فى تاهرت بين الفريقين وإنتهت بهزيمة فرقة النكارية . ولم ينته أمر النكارية بهزيمتها عند هذا الحد إذ إنضم إليها الواصلية المعتزلة من قبيلة زناتة وخرجوا على عبد الوهاب خاصة وأنه قتل ابن فندين. ووقعت حروب كثيرة بينهم وكان الواصلية يدعون إلى الإمامة الإسلامية باللسان وإنتشر مذهبهم فى شمال تاهرت وشمال غرب المغرب الأقصى وإستطاع عبد الوهاب بن رستم القضاء على تمردهم وحاولت قبيلة هوارة الخروج على طاعة عبد الوهاب متحالفين مع قبيلة لواته عن طريق المصاهرة وقد حارب عبد الوهاب هذا الحلف بنفس الوسيلة فزوج إبنته لأمير هوارة وأصهر من شيخ لواته .

ساد الهدوء بلاد الرستميين بعد ذلك فعزم عبد الوهاب أن يختم حياته بالحج إلى مكة فاستخلف ابنه أفلح على القيروان ومضى شرقا إلى جبل نفوسة فنزل فى مدينة شروس غير أن أهل جبل نفوسة منعوه من مواصلة السير إلى مكة خشية الوقوع فى أيدى العباسيين فأقام عبد الوهاب فى جبل نفوسة سبع سنوات كان يتولى خلالها التدريس فى مسجد جبل نفوسة .

وواتت هوارة الفرصة للإنفصال بطرابلس عن دولة الأغالبة نتيجة لإقامة عبد الوهاب فى جبل نفوسة فأعلنت إستقلالها عن الخلافة العباسية سنة ١٩٦هـ/٨١١ م فإستنجد عامل طرابلس بإبراهيم بن الأغلب فأرسل جيشا بقيادة ابنه أبا العباس عبد الله وتمكن من هزيمة هوارة ودخول طرابلس ، وإستنجدت هوارة بعبد الوهاب فزحف بجيش ضخم إلى طرابلس وشدد عليها الحصار ، وفى شوال سنة ١٩٦هـ/ يونيو ٨١٢ م توفى إبراهيم بن الأغلب فإتفق ابنه عبد الله مع عبد الوهاب على أن تكون أعمال طرابلس للدولة الرستمية بينما يحتفظ الأغالبة بمدينة طرابلس والساحل ، ومن ثم عاد عبد الوهاب إلى جبل نفوسة وعزم على العودة إلى تاهرت حيث توفى فى سنة ٢١١هـ/٨٢٦ م وقيل سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣ م .

وإجتمع شيوخ الإباضية على مبايعة ابنه أفلح بالإمامة ، وعنى بنشر الأمن فى أنحاء الدولة الرستمية ، وسار على نهج أبيه فى قمع الثائرين وتمكن من هزيمة خلف بن السمح ابن أبى الخطاب الذى أراد الإستقلال عن الدولة الرستمية فى جبل نفوسة وأعمال طرابلس وقابس سنة ٢٢١هـ/٨٣٥ م .

وتوفى أبو سعيد ميمون الأفلح سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤ م وخلفه ابنه أبو بكر وعندما عاد أخوه أبو اليقظان من بغداد بعد أشهر من إمامة أخيه أسلم إليه أبو بكر مقاليد الإمامة وترك مهمة القيام بشئون الدولة واستغرق فى حياة اللهو وإحتجب عن العامة ، ثم وكل إلى صهره محمد بن عرفه وكان من أعيان تاهرت مهمة الإتصال بالرعية وكان ابن عرفة يحسن إلى الناس حتى أصبحت الإمامة الفعلية لمحمد بن عرفة والإسمية لأبى بكر فغضب أهل الشورى من علماء تاهرت لإستبداد ابن عرفة وخافوا على إمامتهم وحرضوا أبو بكر ضده فعهد أبو بكر إلى أحد غلمانه بقتل ابن عرفه فإغتاله الغلام ، وإشتعلت نار الفتنة فى تاهرت، وإنقسم أهلها إلى فريقين فريق من أنصار ابن عرفة ويتألف من جند العباسيين وأنصارهم وفريق الإمام أبو بكر ويتألف من نفوسة والعجم واضطر أبو اليقظان محمد إلى الخروج من تاهرت هو وخاصته بعد أن إحتدمت نار الفتنة فى المدينة ، وإستغل محمد

الهوارى الإباضى ذلك وإستولى على عاصمة الرستميين . أما الإمام أبو اليقظان محمد فقد إستنجد بأهل جبل نفوسة وتمكن من إسترجاع تاهرت بعد حصار طويل دام نحو سبع سنوات ، وعمل بعد ذلك على بسط الأمن والعدل فى البلاد ، وتمكن من هزيمة جيش العباس بن أحمد بن طولون سنة ٢٦٧هـ/ ٨٨٩ م الذى حاول الإستيلاء على طرابلس وأعمالها ، واستمر أبو اليقظان فى الامامة ٤٠ عاما ثم توفى سنة ٢٨١هـ/٨٩٥ م ، وتعتبر فترة حكمه فترة إستقرار .

وأسندت الإمامة بعد ذلك إلى أبى حاتم يوسف بن محمد ، وفى إمامته قامت الحرب الأهلية فى تاهرت إذ خرج عليه عمه يعقوب بن أفلح فإحتدم القتال بين الإمام وعمه وانتهى بهزيمة عمه يعقوب وتناقصت قوة الدولة الرستمية ، فقد استطاع ابراهيم ابن أحمد الأغلبى هزيمة جيش الرستميين بقيادة أفلح بن العباس فى واقعة قصر مانو بين قابس وطرابلس ونتج عن هذه المعركة إستنفاذ قوى الرستميين وسقوط هيبة الإمام وقتله على يد أبناء اليقظان سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٦ م .

بويع بالإمامة اليقظان بعد مصرع أخيه وقد إنتهت دولته على يد أبو عبد الله الشيعى الذى دخل تاهرت سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩ م وقتله اليقظان آخر أئمة الرستميين فى تاهرت .

وقد ساهم الإباضيون بدور كبير فى إزدهار التجارة إزدهارا كبيرا فى المغرب الأوسط وبلاد الصحراء ، وتحولت تاهرت إلى مركز تجارى تفد إليه قوافل التجار من فزان وجبل نفوسة وطرابلس شرقا وأصبحت أركلا قاعدة الرستميين التجارية على أبواب الصحراء مركزا تجاريا هاما تفد إليه القوافل من سجلماسة عاصمة دولة بنى اليسع بن مدرار الصفرية فى الجنوب الغربى وبوابة أفريقية المدارية ، ومما لاشك فيه أن التجار الإباضيون كانوا يفدون على سجلماسة يحملون المنسوجات الصوفية والقطنية والكتانية والفخار ويعودون محملين بالذهب والعاج وجلود الحيوانات .

كذلك كانت هناك علاقات تجارية بين تاهرت وبلاد الأندلس فكانت السفن تـتردد بين وهران والمرية حاملة السلع التجارية المختلفة إلى كل من البلدين .

أما بالنسبة للحياة العلمية فى عصر الرستميين فقد ساهم الأئمة الرستميون بدور كبير فى إنعاش الحياة العلمية فكانوا يقومون بالتدريس فى جامع تاهرت ومدينة شـروس بجبـل نفوسة ومدينة جالو وورجلان ، وكان عبد الرحمن بن رستم له باع طويل فى علوم الديـن واللغة والفلك كذلك الحال بالنسبة للإمام عبد الوهاب حتى أنه صنف كتابا سماه (نـوازل نفوسة) وهو مجموعة من الفتاوى الشرعية كان علماء نفوسة يستفتونه فيها ، وكان الإمام أفلح أديبا شاعرا وعالما فى الحساب والفلك .

ومن أبرز علماء الإباضية فى جبل نفوسة الشيخ مهدى النفوسى ، ومحمد بن يـانس . ومن علماء تاهرت ابن أبى إدريس ، وأبو العباس بن فتحون وغيرهم . وتشير الروايـات التاريخية إلى أن مكتبة تاهرت كانت تضم نحوا من ٣٠٠ ألف مجلد فى مختلف العلوم وقـد خربت هذه المكتبة على أيدى رجال الدولة الفاطمية .

دولة الأدارسة :١٧٢-٣٧٥هـ / ٧٨٨-٩٨٥م

قامت دولة الأدارسة فى بلاد المغرب الأقصى وقد سبق أن ذكرنا أن المغرب الأقصـى يشمل الأراضى الواقعة ما بين تلمسان شرقا و المحيط الأطلنطى غربا و بين سبتة و طنجـة شمالا و سجلماسة جنوبا ، وقد تميز هذا الإقليم بتنوع تضاريسه فيضم سلسلة من جبـال أطلس و سهول ساحليه بين الجبال وساحل المحيط الأطلنطى ، و تشق هذه السهول أنهـار أو وديان تنحدر من جبال أطلس إلى المحيط و هى من الشمال إلى الجنوب وادى لوكـس ، ووادى سبو وأهم مدنه فاس و مكناس ، ثم وادى أبو الرقراق وعلى ضفته الشرقية عنـد

المصب مدينة سلا وعلى ضفته الغربية مدينة رباط الفتح ، ثم وادى أم الربيع ثم وادى تانسيفت وتقع على أحد فروعه مدينة مراكش ، ثم وادى السوس و من أهم مدنه أغادير ثم وادى درعة فى أقصى الجنوب .

وقد أدى تنوع تضاريس بلاد المغرب الأقصى إلى تنوع المناخ و تنوع الحياة الإقتصادية سواء كانت زراعية ورعوية حيث إمتدت المراعى فى السهول وعلى قمم الجبال كما قامت صناعات أولية على معادن الحديد والنحاس والفضة ، كما نشطت حركة التجارة خاصة فى نفيس و إغماد . وعلى الرغم من إمتلاء المغرب الأقصى بهذه الثروة الإقتصادية إلا أن الفوضى السياسية قد أثرت تأثيرا سلبيا على الإزدهار الإقتصادى ومن ثم على الأوضاع الإجتماعية ، فشهد المغرب الأقصى صراعات متعددة ما بين القبائل البربرية بعضها ببعض وبين العرب والبربر.

و قد أدى ذلك إلى ظهور طبقة الأرستقراطية التى تمتلك الأرض وتحتكر إستغلال المناجم و التجارة خصوصا مع بلاد السودان . وظهرت طبقة وسطى أغلبها من الفرس الذين وفدوا إلى المغرب زمن الفتح الإسلامى ، والأندلسيين الذين إستقروا فى الجهات الشمالية ، فضلا عن اليهود الذين عملوا بالتجارة بصفة خاصة ، ثم طبقة العامة و أغلبها من البربر و السودان ، وقد أدى هذا التباين الطبقى إلى صراعات مهدت لنجاح قيام دولة الأدارسة .

ومن الناحية الدينية سنجد أن الإسلام قد إنتشر فى بلاد المغرب الأقصى قبيل قيام دولة الأدارسة مع وجود بعض الديانات السماوية الأخرى مثل النصرانية واليهودية ، وعلى الرغم من ذلك فإن بعض القبائل المغربية البربرية التى إعتنقت الإسلام قد مزجته بمعتقدات قديمة كالكهانة والسحر .

أما المذاهب الدينية فكان أكثرها إنتشارا المذهب الصفرى الخارجى وإستطاع معتنقوه من إقامة دولتى المدراريين والبرغواطيين ، وإمارة بنى وكيل ، وإمارة برغوث بن سعيد . كما إنتشر مذهب المعتزلة بين قبائل أوربة وزناتة ، ووجدت بعض تجمعات منهم فى درعة والسوس الأقصى وملوية .

كما إنتشر مذهب الإمام مالك بن أنس فى إمارة نكور ، وفى أصيلة ، وتمركز المالكيون فى الأربطة لجهاد البورغواطيين وفى منطقة السوس الأقصى لجهاد اليهود .

وقد إختلف المؤرخون بخصوص تحديد مذهب دولة الأدارسة ، فيذهب بعض المؤرخين إلى أن دولة الأدارسة رغم علويتها لم تكن دولة شيعية بل لم يكن أحد من رجالها أو أتباعهم شيعيا فقد كانوا سنيين ، لايعرفون الآراء الشيعية التى شاعت على أيام الفاطميين ، بينما يرى البعض الآخر من المؤرخين أن قيام دولة الأدارسة يرتبط بالتشيع الزيدى فكرا ودعوة والذى إمتزج بالمعتزلة خاصة فى نظرية الإمامة ومبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويبرهن على ذلك أنه بعد فشل ثورة زيد بن على سنة ١٢٤هـ و التى فشلت نتيجة خذلان أهل العراق لزيد بن على خاصة وأن طبقة الأرستقراطية قد ناهضوا الدعوة الزيدية لأنها كانت تنادى بالعدالة الإجتماعية فقد دعت إلى توزيع الخراج بالعدل و رد الفيئ إلى من حرموا منه . كما أن الدعوة الزيدية قد نادت بجواز إمامة المفضول ، أى أنها إعترفت ضمنيا بخلافة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأحدث هذا إنشقاقا فى صفوف أنصارها من الشيعة فتخلى الكثيرون منهم عن مناصرتها ومن ناحية أخرى فقد آزرها الفقهاء من أهل السنة و لم يجدوا غضاضة فى ذلك .

وبعد فشل ثورة يحيى بن زيد سنة ١٢٥ هـ إندمجت الدعوة الزيدية فى الدعوة العباسية سنة ١٢٧ هـ بزعامة محمد النفس الزكية ، وبعد قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ إنفصلت الدعوة الزيدية بزعامة النفس الزكية و ساندهم المعتزلة لمعارضتهم للعباسين ومن ثم فقد إستقطبوا الكثير ممن اندرجوا فى الدعوة العباسية فإتسع نطاق الشيعة

الزيدية وقد شجع ذلك محمد النفس الزكية على إعلان راية العصيان فى وجه العباسيين سنة ١٤٥ هـ ، وبعد فشل هذه الثورة إنقسم العلويون على أنفسهم ما بين حسينين وحسنيين، فآلت زعامة الزيدية إلى عيسى بن زيد وعلى بن العباس بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب وقد قتل الأخير مسموما على يد الخليفة المهدى العباسى كما قبض على عيسى بن زيد وسجنه إلى أن توفى .

أما الزيدية فقد تزعمهم الحسين بن على بن الحسن بن على الذى ثار على الخلافة العباسية فى منطقة الحجاز سنة ١٦٩ هـ و تمكن الخليفة موسى الهادى من القضاء على ثورته فى معركة دامية قرب مكة وهى معركة فخ حيث دارت مذبحة قريبة الشبه بمذبحة كربلاء حيث لم ينج منها إلا يحيى بن عبد الله بن الحسن و أخاه إدريس ، أما الأول وهو يحيى فقد أسس دولة فى بلاد الديلم و قضى عليها هارون الرشيد أما إدريس بن عبد الله فقد فر إلى بلاد المغرب وإستطاع أن يؤسس دولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ و قد مهدت ظروف المغرب التى أشرنا إليها لإستمرار دولة الأدارسة حوالى قرنين و نصف .

أما بخصوص جهود الزيدية فى المغرب وكيف إستطاع إدريس تأسيس دولة الأدارسة فهذا ما سنتاوله بإيجاز ، ذلك أن الصراع بين العباسيين ومحمد النفس الزكية قد جعل الأخير يرسل عيسى بن عبد الله الزيدى إلى بلاد المغرب فإستطاع أن يبث الدعوة الزيدية بين البربر ثم عاد إلى الشرق فبعث محمد النفس الزكية أخاه سليمان إلى المغرب فنزل بتلمسان و أخذ يدعو للحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بعد مقتل النفس الزكي لكنه عاد للشرق للمشاركة بجانب الحسين بن على فى ثورته ضد العباسيين سنة ١٦٩ هـ/٧٨٦ م فى خلافة الهادى العباسى ، و قام بأمر الدعوة فى المغرب إدريس بن عبد الله والذى دعى أيضا بإمامة الحسين بن على ولكنه عاد إلى الشرق للمشاركة فى معركة فخ .

وبعد هزيمة الحسين بن على فر إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى مصرحيث دبر له الإقامة بها وأمر خروجه منها والى مصر على بن سليمان الذى اعتنق المذهب الزيدى . وفى رواية أخرى تشير إلى أن واضح مولى صالح بن الخليفة المنصور صاحب بريد مصر هو الذى ساعد إدريس ومولاه راشد فى الخروج من مصر إلى برقة ومنها إنتقل إدريس برفقة راشد إلى القيروان ثم إلى تلمسان ، وبعد رحلة سنتين أى خلال سنة ١٧١هـ / ٧٨٨ م ظهر راشد وإدريس فى مدينة طنجة فإتصل بإسحق الأوروبى فى واليلى حيث تم الإتفاق بين إدريس وإسحق على أن يترل إدريس مدينة واليلى وأخذا فى إعداد العدة لتأسيس الدولة وبويع إدريس الأول فى ربيع الأول ١٧٢هـ / أغسطس ٧٨٨ م وبدأ يدعو لنفسه وبايعه شيوخ قبائل أوروبا وزيناتا ومكناسا وغمارة وكانت معظم هذه القبائل خاصة قبيلة غمارة ناقمة على قبيلة برغواطة .

وقد قام إدريس الأول بإلقاء خطبة حرص فيها على إرضاء القبائل البربرية سواء كانوا من السنة أو الخوارج وكذلك المعتزلة كما لم يذكر فى خطبته أى ذكر للتشيع ولعل هذا هو ما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن دولة الأدارسة كانت دولة قائمة على المذهب السنى ، ويبدو أن إدريس قد نهج سياسة بارعة فى هذا الشأن وفى نفس الوقت تعهد بإتباع سياسة العدل بين الرعية وبعد قليل أصبح إدريس الأول أمير واليلى وزعيم قبيلة أوروبا الغربية وإستطاع أن يسود حوض سبو وبعض المناطق الشمالية من المغرب الأقصى ، و فى أقل من عام تمكن إدريس من مد سلطانه من تلمسان إلى ريف تامسنا الغنى بإنتاجه الزراعى والحيوانى ومن طنجة إلى وادى أم الربيع و يبدو أن توسع إدريس جهة الشرق قد أدخل الفزع فى قلوب العباسيين والأغالبة فى أفريقيا فلجأ الخليفة هارون الرشيد إلى تدبير مؤامرة للتخلص من إدريس بالتواطؤ مع إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقيا ، و تشير الروايات التاريخية إلى أن هارون الرشيد إستشار وزيره يحيى البرمكى والذى أعلمه بإستحالة إرسال قوات عباسية إلى المغرب الأقصى للقضاء على دولة إدريس بن عبد الله وأشار عليه بأن يرسل من يغتاله ووقع إختيارهما على رجل يسمى سليمان بن جرير ويدعى بالشماخ فحمل السم وتمكن من الدخول فى خدمة إدريس وكسب ثقته ثم تحيل فدس له السم فتم

إغتياله سنة ١٧٧هـ وقام مولاه راشد بتولى أمر دولة الأدارسة حتى ولدت جارية لإدريس إبنه إدريس الثانى وإهتم راشد بتربيته وإعداده للإمارة إلى أن توفى راشد ويقال أن إبراهيم ابن الأغلب قد تحيل فى قتله هو الآخر .

لما توفى راشد خلفه أبا خالد يزيد بن إلياس العبدى فى الوصاية على إدريس الثانى فجدد له البيعة سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م ، وفى سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م حكم إدريس الثانى حكما مستقلا وقد بلغ من العمر ١٧ سنة وفى سنة ١٩٣هـ أسس إدريس الثانى عدوة القرويين غربى مدينة أبيه إدريس الأول على الضفة اليسرى من وادى فاس ومن العدوتين تكونت مدينة فاس وإبتنى إدريس لنفسه دارا فى عدوة القرويين وأنشأ مسجد فاس الجامع وإتخذ مدينة فاس عاصمة لدولة الأدارسة من سنة ١٩٦ هـ /٨١١ م .

وفى سنة ١٩٧ هـ / ٨١٢ م بدأ إدريس الثانى بعد أن إستقر له الأمر وكثر أتباعه خاصة بوفود عناصر جديدة إنضمت إليه من البربر وعرب الأندلس وعرب وفرس أفريقيا ومن ثم كثرت جيوشه وإستطاع أن يشن سلسلة من الحملات ثبتت سلطان دولة الأدارسة من تلمسان شرقا إلى ساحل المحيط الأطلنطى غربا كما نشط إدريس الثانى فى حرب الخوارج فى جبال الأطلس ، وحرب البرغواطيين .

توفى إدريس الثانى فى شهر ربيع الأول سنة ٢٠٢ هـ / سبتمبر ٨١٨ م ، وخلفه فى حكم الدولة الإدريسية إبنه محمد بن إدريس وقد قام بتقسيم دولته بين أخوانه مما تسببَ فى ضعف دولة الأدارسة نتيجة لإستقلال هؤلاء الأخوة بما تحت يده من أراضى ، فى حين يرى أن سياسة إدريس الثانى هذه كانت محاولة منه لإقرار نظام لا مركزى فى الحكم و أن سياسته كانت لتقوية أسرة الأدارسة بأن تكون الولايات والقيادات العسكرية بين أيدى أفرادها مما يضع حدا لصراع العصبيات حول المناصب القيادية فى دولة الأدارسة وإحكام سيطرة الأدارسة على القبائل داخل الدولة .

وقد إكتفى محمد بن إدريس بولاية فاس ، وولى أخوه القاسم طنجة وسبتة وحجر النسر وبلاد معمورة ، وتولى داود بلاد هوارة وتسول وتازة ومكناسة وجبال غياثة ، وعمر بلاد الهبط أو هبط غمارة و ما والاها ، وتولى أحمد مدينة مكناسة وبلاد فازاز ومدينة تدله ، وعبد الله أغمات ونفيس وجبال للصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى ، أما حمزة فقد تولى تلمسان وأعمالها ، وتولى يحيى أصيلة والعرائش وبلاد زواغة ، أما عيسى فقد تولى بلاد شالة وسلا وأزمور وتامسنا وبرغواطة .

وبالرغم من نجاح هذه السياسة ، إلا أنها فجرت الصراع بين أفراد أسرة الأدارسة منذ عهد محمد بن إدريس وقد بدأ الصراع بخروج عيسى بن إدريس على أخيه محمد بفاس وقد إستعان الأخير بأخيه عمر على الثائرين من إخوته وأعطاه أعمالهم فإتسعت ولاية عمر حتى بلغت نصف الدولة الإدريسية من جهة الشمال والغرب كله ولما توفى محمد بن إدريس الثانى سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ترك دولة مفرقة وضعيفة ، فخلفه إبنه علي بن محمد وكان فى التاسعة من عمره ولقب حيدرة وهو لقب كان يطلق على علي بن أبى طالب ومعناه الأسد فحكم تحت وصاية أقاربه حتى توفى فى شهر رجب سنة ٢٣٤ هـ فخلفه أخوه يحيى بن محمد وفى عهده بلغت دولته أوجها فعظمت فاس وقامت فيها للنشآت فأنشأ جامع القرويين على يد السيدة فاطمة بنت محمد الفهرى ،كما بنيت بفاس الحمامات والفنادق للتجارة ، وبنيت خارجها الأرباض .

وبعد يحيى بن محمد حكم إبنه يحيى الثانى وكان شابا طائشا سيء السيرة فثارت عليه العامة فإختفى بعدوة الأندلس ومات فى مخبأه ، فإختار أهل فاس إبن عمه على الثانى بن عمر بن إدريس الثانى فإنتقل ملك الأدارسة إلى فرع عمر بن إدريس وإستقرت قدمه فترة من الزمن ، حتى ثار عليه عبد الرازق الفهرى أحد زعماء الخوارج الصفرية ففر على بن عمر إلى قبيلة أوروبا .

وقد خلفه يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثانى الذى صرف وقته فى قتال الخـوارج الصفرية منذ توليه الحكم حتى سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م حين قتله الربيع بن سليمان .

إنتقل الملك إلى يحيى الرابع بن إدريس بن على بن عمـر بـن إدريـس (٢٩٢ - ٣١٠هـ) ويشير المؤرخون إلى أن يحيى الرابع كان أوسع أمراء الأدارسة سلطانا وأعلاهـم قدرا ولاشك أن فى ذلك قدر كبير من المبالغة فقد إستطاع الفاطميون هزيمة يحيى الرابـع وإستطاع قائد عبيد الله المهدى مصالة بن حبوس فتح تاهرت ثم هزيمة يحيى بـن إدريـس بالقرب من مكناسة وحاصر مدينة فاس وإضطر يحيى إلى طلب الصلح على أن يودى إليـه بعض الأموال وأن يبايع الخليفة الفاطمى للمهدى وولى مصالة يحيى بن إدريس فاس ، كمـا ولى موسى بن أبى العافية شيخ مكناسة وجعله عاملا على تسول وبلاد تاسا .

وفى سنة ٣١٣ هـ إستطاع موسى بن أبى العافية القضاء على أمراء الأدارسة القائمين بالأمر فى بعض نواحى المغرب الأقصى ، ونفى الباقين إلى قلعة فى جبال الريـف تسـمى حجر النسر وبذلك ينتهى الدور الأول من تاريخ الأدارسة إلى أن قامت دولتهم على يـد زعيم من أحفادهم وهو الحسن بن قنون الذى إتخذ من قلعة حجر النسر مقـرا لإمارتـه ودخل بنو قنون فى سلسلة من الصراعات مع الفاطميين والأمويين فى الأندلس وكان أبـو القاسم بن محمد بن القاسم بن كنون آخر أمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى التى زالـت فى عهده على يد الفاطميين وقامت دولة بنى زيرى المغراوية على أنقاضها .

على أى حال ، فقد نجحت دولة الأدارسة فى القضاء على جانب كبير من إنحرافـات قبيلة برغواطة وأسهمت مدينة فاس حاضرة دولة الأدارسة فى نشـر الإسـلام الصحيـح وأصبحت مركزا رئيسيا للثقافة العربية الإسلامية .

قيام الخلافة الفاطمية فى المغرب

كان قيام الدولة الفاطمية فى المغرب فى حد ذاته ثمرة من ثمرات الأزمات السياسية فى التاريخ الإسلامى ونجاح الشيعة الإسماعيلية فى إقامة خلافة فاطمية فى بلاد المغرب بعد سلسلة من المحاولات الفاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية للظفر بالخلافة ثم ناصبهم العباسيون العداء فلجأ أئمتهم منذ أيام جعفر الصادق بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب (١٤٨هـ/ ٧٦٥ م) إلى التقية - التقية عند الشيعة النظام السرى فى شئونهم - وقد لجأوا إليها لما إشتدت محنتهم بقتل زيد بن على زين العابدين بالكوفة سنة ١٢١هـ/ ٧٣٩ م وقتل يحى بن زيد فى خراسان سنة ١٢٥هـ/٧٤٣ م ثم قتل عبد الله بن يحى بن زيد فى اليمن سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨ م - واهتموا بصفة خاصة بالتقية فى الأسماء خشية التعرف عليهم وقتلهم ومن ثم كان للأئمة من ولد جعفر الصادق إلى جوار الإسم الحقيقى إسم حركى رمزى و لم يطلعوا على أسمائهم الحقيقية إلا ثقات رجالهم فكانوا أحيانا يتسمون بأسماء حججهم وهم نواب الأئمة فى رئاسة الدعوة مثل مبارك وميمون كما كانوا يتسمون جميعا بإسم محمد خلا عبد الله بن جعفر الذى تسمى بإسماعيل وإليه ينتسب الفاطميون ، وطبقا لمبدأ التقية لم يظهر جعفر الصادق إسم إبنه عبد الله ومن ثم تعلقت بكل واحد من أولاده الأربعة وهم عبد الله وإسماعيل وموسى ومحمد فرقة من الشيعة على غير عقد مؤكد منه وكان إسماعيل الشقيق الأصغر لعبد الله من أم عربية علوية أما موسى فكان يصغرهما وكان هو وشقيقه الأصغر محمد من أم زنجية الأصل. ومن ثم كانت الإمامة لعبد الله - إسماعيل - الإبن الأكبر لجعفر الصادق . أما إسماعيل فقد توفى فى حياة أبيه سنة ١٣٨هـ/٧٥٥ م فلم يكن له أو لعقبه حق فى الإمامة . وقد أثارت مسألة وراثة الإمامة بعد وفاة جعفر الصادق صراعا مريرا بين أبنائه ، فقد تقبل جمع هائل من شيعة جعفر إبنه عبد الله - إسماعيل - كإمام ثم لم يلبث أن مات . ونفى محمد إلى بلاد فارس إثر ثورة فاشلة على العباسيين فمات بجرجان سنة ٢٠٣هـ/ ٨١٨ م وإنتقلت الإمامة إلى موسى (ت ١٨٣هـ/ ٧٩٩ م) وإنتقال الإمامة فى ولده إلى الثانى عشر منهم

وهو محمد بن الحسن العسكرى (ت ٢٦٤هـ/ ٨٧٧ م) وقد سمى أتباع موسى بالقطعية لقطعهم بموته وبموت أخيه إسماعيل .

أما محمد بن عبد الله – اسماعيل – فقد عمل على الحد من النفوذ المتزايد لعمه موسى وإنتحل لأبيه إسم إسماعيل حتى يستقطب جمهور الإسماعيلية ويوفر الحماية له وللأئمة من ولده ، فأعلن أتباعه أنه المهدى وإمعانا فى التخفى تسمى محمد بن عبد الله بإسم حجته ميمون ، وأدار دعوته فى الخفاء متنقلا من مكان إلى آخر لئلا يكتشف أمره ، ونجح فى ذلك حتى لقب بالمكتوم أو المستور ، وهو بذلك أول من أوجد دور الستر الأول عند الإسماعيلية – الفاطمية العبيدية – الذى ينتهى بقيام الدولة الفاطمية .

وخلف محمد بن عبد الله (ت ١٩٣هـ/ ٨٠٨ م) ابنه عبد الله واستتر تحت إسم عبد الله بن ميمون وتلقب بالرضى ، ومن هنا ظهرت خرافة ميمون القداح –والقداح هو بارى النبال ، أى النبال ، وهو أيضا من يستخرج ماء العين المتورمة ، والقداح عند الشيعة الإسماعيلية هو قادح زناد الحق ومورى نور الحكمة – كموسس للشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية .

وفى إمامة عبد الله تم ترتيب الدعوة الإسماعيلية إلى سبع درجات وراجت فى الأهواز والبصرة وسلمية من أعمال حماة وقد إتخذها عبد الله مركزا لنشر الدعوة وتوفى بها سنة ٢٦٢هـ/٨٧٥ م أو سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦ م وخلفه ابنه أحمد الملقب بالوفى و لم يظهر غير إسم محمد وفى عهده إنتشرت الدعوة فى الكوفة وإنضم إليهم كبار دعاة الإثنى عشرية ومن هؤلاء الحسن بن فرح بن حوشب الكوفى (٣٠٢هـ/٩١٤ م) وأبو الحسن على بن فضل اليمانى (٣٠٣هـ/٩١٥م) وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد ابن زكريا الكوفى المعروف بأبى عبد الله الشيعى (٢٩٨هـ/٩١١م) وأخوه أبو العباس محمد الملقب بالمخطوم (٢٩٨هـ/٩١١م) . وفى سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م توفى أحمد وخلفه محمد الذى تكنى بأبى الشلعلع وتلقب بالحبيب وفى عهده أرسل سنة ٢٦٨هـ/٨٨١م ... حوشب الكوفى

وابن الفضل اليمني لنشر الدعوة في اليمن وتمكن ابن حوشب سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م من إقامة الدعوة الإسماعيلية باليمن ، وتسمى بالمنصور وأرسل الدعاة إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب لنشر الدعوة الإسماعيلية .

وتشير الروايات التاريخية إلى أن محمد - أبو الشلعلع - أرسل إلى المغرب داعيين أحدهما يعرف بالحلواني و الآخر بأبي سفيان ، وقال لهما : " إن المغرب أرض بور فاذهبا فأحرثا حتى يجيء صاحب البذر " . فنزل أبو سفيان ببلدة مرماجنة ، والحلواني ببلدة سوجمار أو سوف جمار ، وكلاهما من أرض أفريقية . ومن مرماجنة وهى على بعد ثلاث مراحل من القيروان استطاع أبو سفيان أن ينشر الدعوة الإسماعيلية في بعض نواحي أفريقية خاصة في تالا والأربس وأرض كتامة - تمتد من حدود جبل أوراس في الجنوب إلى غربي مدينة الجزائر - ومن سوجمار وهى بلدة ببلاد الجريد تمكن الحلواني من إجتذاب كثير من قبائل كتامة ونفزة وسماتة ببلاد المغرب الأدنى إلى الدعوة الإسماعيلية .

وفي سنة ٢٧٨هـ/٨٩١ م أرسل أبو الشلعلع إلى المغرب أبو عبد الله الشيعي وأمره بالمرور على ابن حوشب باليمن ليأخذ عنه أصول الدعوة قبل ذهابه الى المغرب . ولما علم ابن حوشب بوفاة أبي سفيان والحلواني حوالي سنة ٢٧٩هـ/٨٩٣ م عهد الى عبد الله الشيعي بالدعوة الاسماعيلية وقال له : " إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان ، وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر فانها موطأة ممهدة لك". وأمده ببعض المال وأخرجه إلى مكة في موسم الحج سنة ٢٧٩هـ/٨٩٣ م والتقى أبو عبد الله ببعض رؤساء كتامة وكانوا من الشيعة الإسماعيلية من بينهم موسى بن مكارمة وحريث الجميلي من أصحاب الحلواني وقد يسر هؤلاء الرجال لأبي عبد الله السبيل لدخول المغرب باصطحابهم له كمعلم لأولادهم في الظاهر وسموه المعلم . وعندما وصلوا إلى سوجمار من أرض سماتة بلاد الجريد تلقاهم رجال من الشيعة مثل أبي حيون المعروف بأبي المفتش ، وأبي القاسم الورفجومي ، وأبي عبد الله الأندلسي الباجي الذى إستضافه ، ثم ارتحلوا إلى أرض كتامة في ربيع الأول سنة ٢٨٠هـ/ يونية ٨٩٣ م فسألهم عن فج الأخيار وهو واد يخترق جبل

إيكجان ونزل فيه على موسى وحريث من بني سكتان من بطون كتامة وقال لهم : " هـــذا فج الأخيار وما سمى إلا بكم . وقد جاء فى الآثار أن للمهدى هجرة تنبو عن الأوطـــان ، ينصره فيها الأخيار من أهل الزمان ، قوم إسمهم مشتق مـــن الكتمـــان ، فـــإنهم كتامـــة وبخروجكم من هذا الفج سمى بفج الأخيار" . فإجتمع إليه الكثير من أهل كتامة وأعلـــن أبو عبد الله الدعوة لأهل البيت بإمامتهم " للرضا من آل محمد " . وقال لرجال كتامـة : " أنتم أنصار أهل البيت وشيعته " . وكشف الستر عن نفسه ، فقل لهم : " أنا صاحب البذر الذى ذكر لكم أبو سفيان والحلوانى " ثم حدد لهم شخصية صاحب الدعوة دون أن يعينـــه بالإسم . ثم أخذ أبو عبد الله ينظم مجتمعهم على غرار مجتمع المدينة زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم نظم حكومتهم سياسيا وعسكريا إستعدادا لنشر الدعوة الإسماعيلية وإستغرق ذلك ست سنوات أو سبع سنوات (٢٨٠-٢٨٦هـ/٢٨٧/٨٩٣-٨٩٩/٩٠٠م) إتسعت بعدها دعوته ودخلت فيها قبائل كثيرة مثل عجيسة من بربر البرانس ، وزوارة من بربـــر البتر مما أزعج إبراهيم بن الأغلب ، وحاول تحطيم قوة أبو عبد الله الشيعى . وهنا تنتـــهى مرحلة الإعداد وتبدأ مرحلة الصدام المسلح وكانت نتائجها فى صالح عبد الله الشيعى .

وفى سنة ٢٨٩هـ/٩٠١/٩٠٢م توفى الإمام أبو الشلعلع بعد أن أوصى بالإمامـــة إلى إبن أخيه سعيد بن حسين بن أحمد المعروف بسعيد الخير لأن ابنه على بن محمد قد تـــوفى سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨ م بسلمية وترك له حفيدا صغيرا إسمه محمد وكنيته أبو القاسم، فقـــام سعيد الخير بمهام الدعوة الإسماعيلية وتلقب بالمهدى وإكتنى بأبى محمد ، وأظهر إسم عبـــد الله ، وأبطن اسم على ، وبهذا الاستخلاف والاكتناء أصبح أبو محمد عبد الله المهدى إماما مستودعا وأبا روحيا لا جسمياً للإمام الشرعى محمد بن على ، وبهذا الإســـتيداع تجنـــب المهدى ما وقع فيه الشيعة الموسوية من قبل عندما توقفوا عند إمامهم الثانى عشر فضعفـــت دعوتهم .

وحينما إزداد طلب الدولة العباسية للشيعة وتضييقهم على الإمام المهدى إضطر تحـــت هذا الضغط العباسى إلى مغادرة سلمية متوجها إلى المغرب للحاق بأبى عبد الله الشـــيعى ،

وإصطحب معه إبنه الروحى أبا القاسم محمد بن على وأبا العباس المخطوم شقيق أبى عبد الله الشيعى . أما الخليفة المكتفى العباسى (٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠٢-٩٠٨م)فقد أصدر أوامر للولاة فى مصر وأفريقية بالقبض عليه . فتنكر المهدى فى زى تاجر وقدم إلى مصر فى ركب من أتباعه وأحمال من أمواله سنة ٢٩١هـ/٩٠٤م على عهد هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٨٣-٢٩٢هـ/٨٩٦-٩٠٤م) وفى رواية أخرى سنة ٢٩٢هـ/٩٠٥م أثناء ولاية عيسى النوشرى (٢٩٢-٢٩٧هـ/٩٠٥-٩١٠م) خليفة محمد بن سليمان الكاتب مسترد مصر للعباسيين من الطولونيين . ثم غادر المهدى مصر إلى المغرب غير أن زيادة الله الثالث (٢٩٠-٢٩٦هـ/٩٠٣-٩٠٩م) علم بذلك وأمر عامله على طرابلس بالقبض على المهدى ، ففر منها إلى سجلماسة فأكرمه أميرها اليسع بن مدرار (٢٧٠-٢٩٦هـ/٨٨٣-٩٠٩م) لكنه تخوف من أمره عندما وصله كتاب زيادة الله واكتشف أمره فسجنه هو وولده الروحى أبا القاسم .

وفى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م سقطت الأربس فى يد أبو عبد الله الشيعى وهى مفتاح القيروان وعلى إثر ذلك فر زيادة الله الثالث إلى مصر فدخل أبو عبد الله الشيعى مدينة رقادة ثم إستولى على القيروان غرة رجب سنة ٢٩٦ هـ/مارس ٩٠٩م وسقطت بذلك دولة الأغالبة . ثم خرج أبو عبد الله الشيعى على رأس حملة قوية من القيروان متوجها إلى سجلماسة لتخليص المهدى وابنه من السجن ، وفى يوم الأحد سابع ذى الحجة سنة ٢٩٦هـ/ أغسطس ٩٠٩م تمكن أبو عبد الله من إطلاق سراح المهدى وإبنه ، وتشير الروايات التاريخية إلى أن أبا عبد الله ترجل للمهدى وقبل يديه وركبتيه وهو يبكى من شدة فرحه بلقاء مولاه ، ثم سلم إليه الأمر وقال لمن معه : " هذا مولاى ومولاكم وولى أمركم وإمام دهركم ومهديكم المنتظر الذى كنت به أبشر ، قد أظهر الله عز وجل أمره كما وعده ، وأيد حزبه وجنده " . وأوصى المهدى بالإمامة من بعده إلى إبنه الروحى أبى القاسم محمد بن على ولقبه القائم وأعلن أنه " أبو القاسم محمد بن عبد الله" و " القائم بن المهدى " وبذلك إنتهى دور الستر وإبتداء دور الظهور بالمغرب . سار أبو عبد الله بين يدى المهدى متوجها إلى القيروان فوصلوا رقادة ربيع الأول سنة ٢٩٧هـ/ نوفمبر ٩٠٩م،

وفى طريق العودة قضى الفاطميون على ملك الرستميين وجعل المغرب الأوسط إلى تلمسان جزءا من الدولة الفاطمية التى نسبت إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث كانوا يرون أنفسهم أبناء على وفاطمة من ولد الحسين بن على بن أبى طالب .

خلافة المهدى (٢٩٧-٣٢٢هـ/٩١٠-٩٣٤م)

١- التخلص من أبى عبد الله الشيعى وأخاه أبا العباس : على الرغم من أن الدولة الفاطمية تدين بظهورها فى المغرب لأبى عبد الله الشيعى ، إلا أن المهدى بعد أن إستقامت له الأمور فى المغرب إصطنع سياسة ترتكز على جمع كل خيوط السلطة فى يده وسرعان ما أسفرت هذه السياسة عن إصطدامه مع أبى عبد الله الشيعى ، إذ إستبد بأمره وإستولى على الأموال التى جمعها أبو عبد الله فتغيرت نفوس الكتاميين وشككوا فى إمامة المهدى بتحريض من أبى عبد الله وأخيه المخطوم ، فعزم المهدى على قتلهما وإستعان برجل من الكتاميين هو غزوية بن يوسف فقتلهما ، وفى رواية أخرى أن المهدى أمر غزوية وأخاه حباسة بقتلهما فترصدا لهما ثم أجهزا عليهما فى ذى الحجة سنة ٢٩٨هـ/٩١١ م . وقد أثار حادث مقتل أبى عبد الله فتنة كبيرة قام بها رجل من الكتاميين يعرف باسم المارطى ، لكن المهدى سرعان ماقضى على ثورتهم لما أخضع ثورة الإباضية بطرابلس سنة ٣٠٠هـ/٩١٢ م .

رأى المهدى أن يبنى عاصمة لدولته ليتخذها مركزا يحتمى فيه عند الشدائد وملاذا فى أوقات المحن خاصة وأنه قد شعر أن الناس فى أفريقية ليس لديهم استعداد بقبول فكرة خلافة تقوم على مبادىء الشيعة الإسماعيلية كما صاغها دعاتهم فى فترة الإستتار ، وكما طبقه الخلفاء الفاطميون عندما أحاطوا أنفسهم بهالات من التقديس والتعظيم كما أن أهل المغرب إتضح لهم أن الوعود التى وعدهم بها عبد الله الشيعى عن حلول عهد العدل والإصلاح لم تكن إلا سرابا بالإضافة إلى البدع الدينية .

ففى العقيدة أو " الإلهيات " نجد أن الشيعة فى مسألة الولاية أوالإمامة هى خاتمة الفرائض وأشرفها وأعلاها رتبة فهى عندهم أصل الدين الذى تدور عليه الفرائض فلا يصح وجودها إلا بوجوده وفى رأيهم أن الإسلام بنى على سبع أركان هى : الولاية ، والطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، فأقاموا الولاية – ولاية على وأبنائه من آل البيت – مقام الشهادة وضموها إياها . كما قالوا بقصر التأويل على الأئمة وبتسلسل الإمامة وإستمرارها مدى الدهر ثم بإستيداعها وإستقرارها ، وأن طاعة الأئمة واجبة لأنها من طاعة الله وتتساوى فى وجوبها مع طاعة الرسل ودعوا إلى إحترام الأئمة والقول بعصمتهم ، وجعلوا طاعتهم جزءا من الإيمان .

وفى العبادات : أسقط الشيعة المسح على الخفين فى الطهارة مستندين على أن على ابن أبى طالب كان لايرى المسح ، وفى الصلاة زادوا عبارة " حى على خير العمل وعلى خير البشر " فى الآذان بعد عبارة " حى على الصلاة " وقالوا أن الآذان بحى على خير العمل كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .كذلك أسقطوا من آذان الفجر بعد حى على الفلاح " الصلاة خير من النوم " لأنها من زيادة موذن الرسول بلال بن رباح وكان قد أذن بها وهو شاك أن بالرسول ثقلا من نوم فإستحسن الرسول منه تلك الزيادة وأقره عليها وغير ذلك مما لايتسع له المقام هنا .

كان بناء المهدية بين سفاقس والمنستير سنة ٣٠٥هـ/٩١٧ م وهى حصن منيع يقوم على رأس بارز فى الساحل الشرقى لتونس شمال سوسة ولا يصل إليه من البر إلا عن طريق مدخل ضيق وهو محاط بسور منيع ، وبين السور والبحر قطعة من الأرض أقيمت فيها دار صناعة السفن ، وشيد على المرسى برجين بينهما سلسلة من الحديد يغلق بها بعد دخول السفن وزود المدينة بصهاريج المياه ، وبنى بها القصور وجعل عبيد الله العمال والسوقة يعيشون خارج المهدية فى مكان يسمى زويلة فلا يدخلونها إلا نهارا فإذا هبط الليل مضوا إلى زويلة . وعندما فرغ المهدى من بناء المهدية قال :" آمنت اليوم على الفاطميات " يقصد أنه آمن على نفسه وبناته وأمواله .

ونجح المهدى فى إجتذاب قبيلة صنهاجة الغرب الأوسط بزعامة مصالة بن حبوس حيث أغراه بالمال وأرسله فى جيش كبير يغزو المغربين الأوسط والأقصى وإستطاع هزيمة الزناتيين فى المغرب الأوسط وعلى رأسهم على بن حمدون الزناتى وبنو خزر المغراويين الذين فزعوا إلى الأمويين فى الأندلس ووصلت قوات مصالة إلى المغرب الأقصى ودخلت مدينة فاس أيام يحيى ابن إدريس بن عمر سنة ٣٠٥هـ/٩١٧ م ، ورحل عنهم مصالة إلى أفريقية سنة ٣٠٧هـ/٩١٩ م بعد أن صالح يحيى على مال يوديه إليه ، وقد ولى مصالة إبن عمه موسى ابن أبى العافية أميرا على تسول وبلاد تازى، وترك يحيى أميرا على فاس .

ولكن الجيوش الفاطمية ، بعد إحرازها هذه الإنتصارات على الأدارسة ، تصدت لقبيلة مغراوة التى كانت تتنقل فى جميع أنحاء الغرب الأوسط من منطقة الشلف إلى ما وراء تلمسان . وقد أعلنوا الثورة وقتلوا مصالة بن حبوس سنة ٣١٢هـ/٩٢٤ م ، فخرج أبو القاسم بن المهدى سنة ٣١٥هـ/٩٢٨ م لتهدئة المغرب الأوسط وإنتصر على المغراويين وإحتل تاهرت وأجلاهم إلى الصحراء ، وواصل أبو القاسم مسيرته إلى أن بلغ نكور وجراوة . وفى تلك الأثناء نادى الأمير الأموى عبد الرحمن الثالث بنفسه خليفة وأمير المؤمنين فى قرطبة وتلقب بالناصر لدين الله ، معلنا عن قيام خلافة سنية مضادة للخلافة الشيعية سنة ٣١٦هـ/٩٢٧ م .

وبعدما إستولى الأمويون على مليلة منذ سنة ٣١٤هـ/٩٢٧ م ، وإحتلوا مدينة سبتة ، خلع موسى بن أبى العافية طاعة الفاطميين وأعلن ولائه للأمويين ، وإقتدى به محمد بن خزر ومغراوة وبنو يفرن ، فى حين ظلت مكناسة فى طاعة الخليفة الفاطمى فى تاهرت ، إلا أن معظم مناطق شمال المغرب الأقصى وقسما من المغرب الأوسط قد أصبحت شبه محميات أموية . وعندما توفى المهدى سنة ٣٢٢هـ/٩٢٧ م ،وجد موسى بن أبى العافية نفسه على رأس ممالكه السابقة وتضم قسم كبير من المغرب

الأقصى فى حين إستولى المغراويون على المغرب الأوسط حتى حدود منطقة الشلف ، وتمكنت مجموعة أخرى مغراوية بعد ذلك بقليل من الإستيلاء من جديد على تاهرت . وقد وجه أغلب الملوك الأدارسة ورؤساء مكناسة وزناتة سفارات متكررة إلى قرطبة . كما أغدق الأمويون الهدايا والإعانات على رؤساء مغراوة الذين قدموا إليهم فروض الطاعة .

وقد خلف المهدى القائم أبو القاسم محمد (٣٢٢-٣٣٤هـ/٩٣٤-٩٤٦م) وفى عهده إشتعلت الثورة فى المغرب حيث وجدت القبائل البربرية بعد وفاة المهدى فرصة مواتية للتحرر من الحكم الفاطمى ، فثار إبن طالوت القرشى بنواحى طرابلس وإدعى أنه ابن المهدى غير أن حامية طرابلس تمكنت من هزيمته وإتضح لأتباعه كذبه فإنقلبوا عليه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى الخليفة الفاطمى .

وفى فاس ثار أحمد بن بكر الجذامى على واليها حامد بن حمدان فقتله ، وبعث برأسه إلى موسى بن أبى العافيه فأرسله إلى الناصر بقرطبة فأرسل إليه القائم ميسور الفتى فوصل فاس سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥ م ، وألقى ميسور القبض على أحمد بن بكر غدرا عندما قدم إلى معسكره فإمتنع أهل فاس داخل أسوارها وحاصرها ميسور ثم صالحهم على أن يبايعوا للقائم وأقر عليهم حسن بن قاسم اللواتى .

ومن أهم الثورات التى قامت فى عهد القائم الفاطمى ثورة " صاحب الحمار " أبو اليزيد مخلد بن كيداد الزناتى الذى ثار فى جبل أوراس وكادت هذه الثورة تفضى إلى إجلاء الفاطميين خارج بلاد المغرب . فقد إندلعت الثورة فى أواخر سنة ٣٣٢هـ/٩٤٤ م وإتخذت من مدينة تاهرت مقرا لها وإجتمع لصاحب الحمار كثير من البربر خاصة زناتة ، وكان أبو يزيد يلقب بصاحب الحمار لأنه ظهر فى أول الأمر بمظهر الزهاد فكان يركب حمارا هزيلا يتنقل به بين البدو والقبائل يدعو إلى تكفير الشيعة والخروج على سلطان الفاطميين الذين إنحرفوا عن مبادىء الإسلام ، كما دعى

إلى تغيير المنكر ، وقد تمكنت قواته فى أقل من ستة أشهر من إخضاع أفريقية ما عـــدا المهدية التى حاصرها حتى شهر صفر ٣٣٤هـ/ سبتمبر ٩٤٥ م قامت خلالهـا قواتـه بشن هجومات عنيفة عليها ويقال أن أهلها قد إضطروا إلى أكل الـدواب ، وإضطـر صاحب الحمار إلى العودة إلى القيروان فى صفر ٣٣٤هـ/أكتوبـــر ٩٤٥ م بعـد أن إنفصل كل جنوده الذين سئموا طول الحصار .

وفى ١٣شوال سنة ٣٣٤هـ/ ١٨مايو ٩٤٦ م توفى القائم بـأمر الله . إلا أن ولى العهد المنصور الذى كتم خبر وفاة والده ، قد تمكن من تخليص سوسة والدخـــول إلى القيروان يوم ٢٣شوال ٣٣٤هـ/ ٢٨مايو ٩٤٦ م . فإضطر أبو اليزيد إلى التقـهقر إلى الغرب .

وبعدما هزم المنصور أبا يزيد قرب مقرة فى جمادى الأولى ٣٣٥هـ/ ٩ديســـمبر ٩٤٧ م ودخل المسيلة ، إنضم قسم كبير من قبيلة مغراوة الزناتيين إلى صف المنصـور ، كذلك إنضم إليه زيرى بن مناد الصنهاجى .

وفى بلاد كسلاوة إنهزم أبو اليزيد هزيمة نكراء وكاد أن يقبض عليه ، ومن المســيلة إنطلق المنصور أول رمضان ٣٣٥هـ/٢٦مارس ٩٤٧ م لملاحقة أبى يزيد الذى تمكـن من الفرار إلى قلعة تاقربست ، وهى تقع فى الموضع الذى ستقام عليه فيما بعد قلعة بـنى حماد ، وإستمر القتال بين الطرفين إلى أن ألقى القبض على أبى يزيد وقتله يوم ٢٧ محرم ٣٣٦هـ/١٨أغسطس ٩٤٧ م .

وبعد إنتهاء الثورة نظم المنصور بلاد المغرب ، وأنعش مواردها ، وشرع فى إنشـاء أسطول كبير وبنى مدينة صبرة المعروفة بإسم المنصورية سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨ م بجـــوار القيروان ولا تبعد عنها بأكثر من نصف ميل ، فغدت حاضرة للفاطميين حتى قدومـــهم إلى مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣ م .

ولما توفى المنصور سنة ٣٤١هـ/٩٥٣م آلت الخلافة إلى إبنه أبو تميم معد الملقب بالمعز لدين الله فعمل على توطيد نفوذ الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب الأقصى الذى إنضوى إلى الخلافة الأموية بالأندلس ، ونجح قائده جوهر الصقلى وزيرى بن مناد الصنهاجى سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م من إعادة النفوذ الفاطمى على معظم المغرب الأقصى، وفر كثير من أعداء الفاطميين إلى الأندلس ومنهم بنو يعلى اليفرنى ، وبنو إدريس ، وبرغواطة بزعامة أبو صالح البرغواطى .

أما مصر فقد كانت أمنية خلفاء الفاطميين لثرائها ولقربها من بلاد الشام والحجاز، ولم يكن من العسير على الفاطميين الإستيلاء على مصر خاصة بعد وفاة كافور الأخشيدى سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م ، وحدوث مجاعة ظلت تسع سنوات منذ سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م قاسى المسلمون خلالها الشدائد ، وإنتشرت الفوضى وعظم فيها الغلاء ، وفى تلك الأثناء وضع المعز تحت تصرف قائده جوهر الصقلى كل طاقته لغزو مصر .

خرج جوهر الصقلى على رأس جيش عدته مائة ألف من البربر فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٥٨هـ/فبراير٩٦٩م فى طريقه إلى مصر ، فدخل الإسكندرية دون مقاومة ، وتقدم إلى الفسطاط والتقى جيش الإخشيديين بقيادة نحرير الأرغلى ، ويمن الطويل ، والجيش الفاطمى بقيادة جوهر الصقلى ، وإنتهت المعركة بإنتصار جوهر ودخوله الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ/ يوليو٩٦٩م وأصبحت مصر ولاية فاطمية .

وقبل رحيل المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢هـ رأى أنه من المستحيل على الفاطميين أن يوجهوا الإهتمام اللازم نحو أفريقية والمغرب فتخلىّ عن السلطان الحقيقى وأسند أمرها إلى بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى وإكتفى من ولاتها بالطاعة الرسمية، وفى نفس الوقت أخذ استقلال بنى زيرى فى أفريقية والمغرب يتحول إلى حقيقة واقعة

إلى أن أعلن المعز بن باديس قطع الدعوة الفاطمية للخليفة المستنصر وإظهار الدعوة للخليفة العباسي القائم بأمر الله حوالي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م .

الدولة الصنهاجية

لما عزم المعز الفاطمي على الرحيل إلى مصر ونقل الخلافة الفاطمية إليها فكر فيمن يوليه على إفريقية ، وكانت صنهاجة قد أيدت دعوتهم بزعامة شيخها زيري في حرب الثائر الصُفْري مخلد بن كيداد ، وكان لزيري اليد الكبرى في هزيمة مخلد وإنقاذ المهدية والقيروان منه ، وقد كافأه الخليفة المنصور بتوليته على المنطقة الغربية في الجزائر ، وفيها أسس مدينة أشير وأمر ابنه بلكين بتأسيس ثلاث مدن : الجزائر ومليانة جنوبي شرشال، وقد تميزت بلكين بالشجاعة والبأس وكان من المخلصين للشيعة الإسماعيلية ، ومن ثم رأى المعز أن يسند إليه حكم أفريقية خاصة وأنه زعيم صنهاجة وأنزله القيروان وكناه أبو الفتوح يوسف ، ولم يجعل له ولاية على طرابلس وصقلية . وكان بلكين ثاقب البصيرة ، فأخذ يعمل على إقامة دولة بربرية إسلامية في بلاد المغرب ، وهي أول مرة في التاريخ الإسلامي يتاح لبربري من أهل المغرب تأسيس دولة مغربية إسلامية .

كان الأمويون في الأندلس يثيرون أهل فاس والمغرب الأقصى على الفاطميين وواليهم بلكين ، فقاد جيشا سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م لقمع الخارجين على الدولة هناك فدخل مدينة فاس كما دخل أصيلا على المحيط الأطلنطي وتوفي سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م وخلفه إبنه المنصور ونشبت حروب بينه وبين أعمامه وانهزموا ولحق بعضهم بالأندلس وإستطاع زاوي بن زيري تأسيس مملكة غرناطة في الأندلس ، وتأسيس مملكة غرناطة في الأندلس ، وإشتبك المنصور مع قبيلة زناتة ، وأنهكه الحروب معها ومع أعمامه فقرر أن ينسحب من المغرب الأقصى حتى يضع نهاية لحروب المستمرة مع زناتة ، وقصر إمارته على أفريقية التونسية والجزء الشرقي من الجزائر حتى الزاب ووادي

نهر شلف ، وتوفى المنصور سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦م وخلفه ابنه باديس أبو مناد ، وقد إستقرت له أمور الدولة الزيرية فى إفريقية التونسية ، وثارت عليه قبيلة زناتة فى المغرب الأوسط " الجزائر " سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م فسير إليها جيشا بقيادة عمه حماد ، ولـه ملك ما يفتحه ، وإنتصر عليهم ، وعاد إلى قسنطينة ، وأسس حماد قلعة نسبت إليـه بإسم قلعة بنى حماد ، وجعلها قاعدة لحكمه ومركزا لجيشه ، لكن سرعان ما نشب الخلاف بين باديس وعمه حماد ذلك أن الأول قد طلب من الأخير التنازل عن قلعة بنى حماد وما يمتلكه فنشبت بينهما حروب ، غير أن الموت عاجل باديس وهو يوشك على النصر فى المحمدية بالجزائر سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م .

تولى بعد باديس ابنه المعز فقام بشئون الدولة كبار رجالاتها وأعمامه ما عدا حمادا فانه ظل مصمما على الإستقلال بقلعته عن القيروان وإستولى على بعض مدن فى الزاب، ونازله جيش للمعز سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م وهزمه فتقدم يطلب الصلح مع المعز بشرط أن يتمتع بالإستقلال فى قلعته ومنطقته . وإنقسمت بذلك دولة صنهاجة إلى إمارة شرقية عاصمتها القيروان وإمارة غربية عاصمتها قلعة بنى حماد ، أما الشعب فقد كان حانقا على المذهب الإسماعيلى لإنحرافه عن روح الإسلام وأخذت تنشب فى القيروان ثورات على أتباع تلك العقيدة فتابع المعز شعبه ، وخلع طاعة الفاطميين وحمل جميع رعيته على مذهب الإمام مالك بن أنس الذى إرتضته المغرب وفقهاؤها منذ القرن الثانى الهجرى ، وفى سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ م أمر المعز بقطع إسم خلفاء القاهرة الفاطميين من خطب الجمعة وذكر إسم الخليفة العباسى فى بغداد ، وحين علم الخليفة الفاطمى بذلك إمتلأ غيظا ، فعرض عليه أحد وزرائه المسمى بإسم اليازورى أن يتخلص من جموع نجدية بدوية نزلت بشرقى النيل فى الصعيد من قبائل سليم وهلال وزغبة ورياح ، وأخذت هذه القبائل تعيث فيه فسادا بدفعها إلى المغرب للقضاء على المعز بن باديس فوافق الخليفة الفاطمى المستنصر ، وأقبلت جموع هذه القبائل وكانت تقدر بمئات الألوف على ليبيا وإفريقية التونسية تعيث فيها فسادا وإستطاعت هزيمة المعز

ابن باديس واضطرته إلى إخلاء القيروان والإنتقال إلى المهدية وكان عاملها إبنه تميم فإنتقل إليها بأهله وحاشيته إلى أن توفى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م .

وبلغت القيروان وأفريقية التونسية فى عهد المعز بن باديس كل ما كان يأمله أهلها من تقدم فى المدنية والحضارة والعلوم ، وإزدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ، كما إزدهرت النهضة الأدبية .

وتولى تميم بن المعز الحكم فانكمشت دولته إذ لم يعد يتبع تميما منها إلا جزء من ساحل البحر المتوسط بين سوسة وقابس ، وفى عهده أغار أسطول جنوة مكون من ثلاثمائة سفينة على المهدية سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ولم يلبث أن إنصرف لشدة مقاومته وأغارت بعده ثلاث وعشرون سفينة إيطالية فهزم بحارتها وقتل كثيرون منها ، وفى أيامه إستولى النورمان سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م على جزيرة صقلية وفى السنة التالية على جزيرة مالطة ، وفى سنة ٥٠١ هـ توفى تميم بن المعز وخلفه ابنه يحيى وأنشأ أسطولا كبيرا غزا به جنوة وسردانية وعاد بأموال وغنائم وافرة وتوفى سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٧ م وخلفه ابنه الحسن ، وفى سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م هاجم أسطول نورمانى المهدية غير أن جنود الحسن أنزلوا بهم هزيمة قاسية . وأعد رجار الثانى أسطولا مكونا من ثلاثمائة سفينة وهجم به على المهدية فإنسحب الحسن منها سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م واستغاث بعبد المؤمن بن على أمير الموحدين بالمغرب الأقصى فحرر الأخير المهدية سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وولى عليها الحسن بن على الصنهاجى وأشرك معه عاملا من الموحدين وبذلك إنتهت الدولة الصنهاجية من إفريقية التونسية .

دولة المرابطين

يرجع تأسيس الدولة المرابطية إلى مجموعة من صنهاجة الجنوب عرفت بـالملثمين ، وفى مقدمتها قبيلة لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وجزولة وبنو وارث .

أما عن سبب تلثمهم فقد وردت أقوال كثيرة ، منها أن الطبيعة الصحراوية فرضت عليهم اللثام إتقاء لعواصف الصحراء الرملية وشدة الحر . وثانيا كما ورد فى الحلل الوشية أنهم آمنوا بالرسول وكانوا قلة فإضطروا للهرب لما غلبهم أهل الكفر فتلثموا بقصد التمويه . وأخيرا أن طائفة منهم أغارت على عدو لها ، فخالفهم إلى مضاربها وهى خالية من النساء والأطفال والشيوخ فأمر الشيوخ النساء بأن يرتدين لباس الرجال ويتلثمن ، ففر الأعداء . وعرفوا أيضا باللمتونيين نسبة إلى قبيلة لمتونة التى كانت تتولى رئاسة قبائل صنهاجة فيما وراء الرمال الصحراوية جنوبى جبال درن .

إستوطن الملثمون المنطقة الصحراوية الممتدة من غدامس شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ومن جبال درن شمالا إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوبا . ولإنقطاعهم فى صحرائهم التى حرمت من الأنهار دائمة الجريان زمن الغطاء النباتى الأخضر وقلة سقوط الأمطار ، عمد الملثمون إلى التنقل سعيا وراء المرعى ، والإستفادة من توفر بعض المياه وعملوا فى الزراعة وخاصة زراعة الشعير فهو ينبت فى الأرض الفقيرة ويكتفى بـالقليل من الماء ، وكان النخيل أهم أشجارهم المثمرة ، وكانت سجلماسة من أهم مناطق الواحات عمرانا بشجر النخيل ، كما إزدهرت زراعة القطن قصير التيلة فى واحة سجلماسة .

إعتنق المرابطون الإسلام بعد الفتح الإسلامى للأندلس ، وكان دينهم قبل ذلك المجوسية ، وكانت رئاستهم فى قبيلة لمتونة ، وكان ملكهم أيام عبد الرحمن الداخل

الأموى تيولوثان بن تيكلان ، وبعد وفاته ٢٢٢هـ/٨٣٧ م خلفه حفيده وقد حارب القبائل الوثنية مثل جده حتى توفى ٢٨٧هـ/٨٩٩ م فخلفه إبنه تميم الذى قتل ٣٠٦هـ/٩٢٠ م على يد مشايخ صنهاجة . وإفترقت كلمة الملثمين مدة مائة وعشرين عاما إلى أن وحدهم محمد بن تيفاوت اللمتونى ، وخلفه صهره يحيى بن إبراهيم الجدالى بعد ثلاث سنوات من حكم ابن تيفاوت الذى قتل على يد الوثنيين .

خرج يحيى بن إبراهيم من ديار الملثمين لأداء فريضة الحج تاركا الحكم لإبنه إبراهيم سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥ م وبعد أداء فريضة الحج إنطلق يحيى يبحث عن المعرفة والإستزادة من أمور الدين والبحث عن فقيه يطمئن إليه فيعود به إلى قومه ليفقههم فى أمور الدين ويوحد صفوفهم ، فوجه وجهه شطر القيروان وإرتاد مجلس الفقيه أبى عمران الفاسى ، وكان من أكبر فقهاء المذهب المالكى فى القيروان فى عصره ، فقد برع فى علم الأصول وعلم الكلام والمناظرة ، وطلب الأمير يحيى من الفقيه ابن عمران أن يرسل معه فقيها يعود به إلى قومه الملثمين ليعلمهم الكتاب والسنة ويفقههم فى الدين لأن قومه منقطعون فى الصحراء لا يصل إلى بلادهم إلا التجار الذين حرفتهم البيع والشراء فوعده الفقيه خيرا.

ويبدو أن يحيى بن إبراهيم لاحظ أن كل من حركوا القبائل البربرية لإنشاء الدول كانوا من رجال الدين من أمثال أبى عبد الله الشيعى ، وأبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى وغيرهم . وكان يحيى يرجو أن تزول السيادة الزناتية على قبيلة صنهاجة لأن سيادة قبيلة على قبيلة أخرى لمدة طويلة تنتهى بإستذلال القبيلة المستضعفة، وفى نفس الوقت أراد يحيى أن ينتبه قومه إلى الحصار الذى يضربه عليهم أهل السودان من جهة الجنوب ويحولون بينهم وبين السكنى فى الأراضى الخصبة فى وديان أنهار السودان الغربى .

أرسل الفقيه أبو عمران الفاسى كتابا إلى أحد أصحابه بمدينة نفيس مـن أعمـال السوس ويدعى وجاج بن زلو اللمطى وكانت رسالته إلى هذا الفقيه ، " يبحث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ، ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم فى الدين " وقد ذكر المؤرخون أن الشيخ وجاج ما كاد يتلقى رسالة ابن عمران حـتى وقع إختياره على تلميذ من تلاميذه صنهاجى الأصل يدعى عبد الله بن ياسين ، فلـم يتردد عبد الله فى القيام بهذا الأمر ورأى فيه لونا من الجهاد فى سبيل الله .

عبـد الله بـن ياسـين :

ولد عبد الله بن ياسين بن مكوك الجزولى فى قرية تماماناوت فى طـرف صحـراء غانة، درس الفقه على يد وجاج بن زلو ، ثم رحل إلى الأندلـس فى عصـر ملـوك الطوائف وأقام بها سبع سنوات وتردد على أئمة العصر وأعـلام الفكـر والمعرفـة فى الأندلس ، وبذلك يكون عبد الله قد جمع بين علم الأندلس والقيروان وقد ذاع صيتـه كمحدث ، وتميز بحسن التدبير وقوة النفس والحزم ، والتقى والفقه .

دخل عبد الله بن ياسين المغرب الأقصى مع الأمير يحيى بن إبراهيم الجـدالى سـنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م إلى ديار جدالة . ويبدأ بذلك عهد جديد فى تاريخ الملثمين والمغرب والعالم الإسلامى فإليه يرجع الفضل فى جمع كلمة الملثمين وإقامة دولة كـبرى تحمـى تراث الإسلام وتشارك فى حركة الجهاد ضد أعداء الإسلام خاصة فى الأندلس .

بادر عبد الله بتعليم قبيلة جدالة مبادىء الإسلام ، فحرم عليهم الزواج بأكثر مـن أربع حرائر كما حرم عليهم القتل والسرقة وأمرهم بأداء الذكاة والأمـر بـالمعروف والنهى عن المنكر فتعلق به عامة الناس ، وبذلك أضحى خطرا على الأمـراء فثقلـت عليهم وطأته فكان لابد من إخراجه من بينهم حفاظا على إمتيازاتهم ، فعزلوه وهدمـوا داره .

واضطر عبد الله بن ياسين أن يخرج من ديارهم ، فلجأ إلى يحى بن عمر ، وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن عبد الله فكر فى العودة من حيث أتى ، فثناه الأمير يحى عن عزمه واقترح عليه الذهاب معه للمرابطة فى جزيرة فى حوض نهر السنغال ، وهو الحد الفاصل بين مضارب الملثمين ومضارب الزنوج . وهكذا غادر ابن ياسين ديار الملثمين إلى حوض السنغال وهناك أسس فى الجزيرة رباطا للعبادة والجهاد ونشر الإسلام فى ديار الزنوج وصد غاراتهم على الملثمين . ١

ولكي نعرف الرسالة التى أداها الرباط الذى أنشأه ابن ياسين والدور الذى لعبه الرباط فى قيام دولة المرابطين ومهمة الربط وما أدت من خدمات للإسلام ، لابد من تعريف الرباط .

فالرباط معناه ملازمة ثغر العدو ، والحفاظ على أوقات الصلاة ، والجهاد فى سبيل الله من أخص صفات المرابطة ، والجهاد فى الثغور حيث ترابط خيل المقاتلة ، تحمى حياض المسلمين .

والرباط حصن حربى ، ويحتوى على برج للمراقبة وحصن صغير . وقد أقام ولاة الثغور كثيرا من هذه الربط ، فكان فى بلاد ما وراء النهر عشرة آلاف رباط وكذلك فى الثغور الفراتية ، وكانت سواحل بلاد المغرب المطلة على البحر المتوسط عرضة لغارات الروم فأقيمت فيها الربط وشحنت بالمجاهدين للدفاع عنها ، حتى أن عقبة بن نافع عندما أراد بناء القيروان إقترح عليه رجاله إقامتها على الساحل للمرابطة وبلغ توسع ذروته فى عهد الأغالبة ، وكانوا يسمون هذه الربط بالقصور والمحاريس ، وقد إنتشرت من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسى . وقد صمدت هذه الربط أمام الأساطيل البيزنطية الذين عجزوا عن إحتلال الساحل الأفريقى ، وإلى جانب المهمة العسكرية

المربط فقد إهتمت أيضا بالناحية العلمية ، فمع إنتشارها أخذت الثقافة العربية تنتشر مع الإسلام ، خاصة وأن للمغرب شهد التيارات الفكرية والمذهبية التي عصفت بالمشرق ، مما دفع بالمقيمين فيها إلى التفقه في الدين الإسلامي لمواجهة تلك التيارات . وكانت الربط تقوم على أسس التعاون بين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية ، وكان أفرادها يخرجون إلى القبائل لترغيبها في مذهبهم ونشر الإسلام .كذلك إنتشرت الربط في للمغرب الأقصى حتى أدركت المحيط الأطلسي وأوغلت في قلب بلاد السوس حتى وصلت إلى أطراف الصحراء . ومن أشهر ربط للمغرب الأقصى : رباط وادي ماسة ورباط سلا .

أما ربط عبد الله بن ياسين في جزيرة مصب نهر السنغال فقد إحتذى في بنائه إلى حد كبير بطريقة بناء الربط في المغرب وأفريقية وفي نمط الحياة . وقد بدأت المرابطة في الجزيرة سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٠م بسبعة أشخاص منهم الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي ويحيى بن عمر اللمتوني ، أقاموا في رباطهم ثلاثة أشهر دون أن ينضم إليهم أحد وبعد ذلك بدأ الإنضمام إلى تلك الجماعة المرابطة حتى بلغ عددهم ألف رجل من الرجال المخلصين الأشداء . وكان عبد الله يفرض على رجاله الجدد إنكار ماكانوا عليه من قبل وأن يدخلوا الإسلام من جديد ، وأقام عليهم الحدود ليطهرهم من الذنوب ، وفقا للشريعة الإسلامية وفرض عليهم قضاء ما فاتهم من صلاة ، فاذا تقبل المريد ذلك راضيا، فقد طهرت نفسه من الرجس ، وكفر عن آثامه ، وقبل في زمرة المرابطين ، وإذا تزمر أعتبرت نفسه غير مطهرة ، ومن ثم لايضمه عبد الله بن ياسين إلى المرابطين . وقد رفع عبد الله العلماء إلى مراتب عالية ، وجمع الزكاة والعشور وخمس الغنائم ، وقد سار الفقيه عبد الله على خطى فقهاء المالكية ، فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ومحاربة الفساد في مجتمع الملثمين ، وغدوا رهن إشارة ابن ياسين الذي وهب نفسه للجهاد في سبيل الدعوة الجديدة ، وبعد أن كثر أنصاره أمرهم بالخروج لتوحيد قبيلة صنهاجة ، وبدأ عملياته العسكرية بثلاثة آلاف مرابط ، فهاجم قبياة جدالة التي تذمرت

عليه ، واستطاع إخضاعها سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م ، ثم إتجه صوب لمتونة فبايعته على الكتاب والسنة ، وأخضع كذلك قبيلة مسوفة . وبذلك وحد عبد الله قبيلة صنهاجة .

وفي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م توفي الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي ، فإختار عبد الله الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ٤٤٠-٤٤٧هـ/١٠٤٨-١٠٥٦م ، ونتج عن ذلك تمرد جدالة إلا أن الفقيه هزمهم وردهم إلى الطاعة . وقد استشهد الأمير يحيى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٦م في قتال ضد قبيلة برغواطة ، فقدم ابن ياسين أخاه الأمير أبي بكر ابن عمر ٤٤٧-٤٥٣هـ/١٠٥٦-١٠٦١م وأمره بمواصلة الفتح باتجاه الشمال ، فغزا بلاد المصامدة والسوس وهاجم منطقة الواحات في جنوب بلاد المغرب سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م وجعل على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني ، وقد تألق نجم يوسف في معركة الواحات ٤٤٨هـ/١٠٥٦م ، وبعد فتح مدينة سجلماسة عينه الأمير أبو بكر واليا عليها ، وغزا بلاد جزولة وفتح ماسة ثم دخل المرابطون بلاد السوس سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م . ثم توجه المرابطون إلى أغمات وكانت إحدى مراكز النصرانية القديمة ومقرا للبربر المتهودين ، وكان يحكمها الأمير لقوط بن يوسف بن علي المغراوي ، فلما إنقضت عليه قوات المرابطين بقيادة يوسف ابن تاشفين، رأى لقوط أنه لا جدوى من المقاومة ففر منها والتجأ إلى بني يفرن ودخل المرابطون المدينة أواخر سنة ٤٤٩هـ ثم هاجم يوسف تادلا وفتحها وقتل من بها من بني يفرن ومن بينهم لقوط المغراوي ، وبعد أن تم للمرابطين النصر في أغمات وتادلا أوتادلة ، سار المرابطون نحو تامسنا لجهاد برغواطة ونشبت المعارك بين الفريقين ، استشهد خلالها عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م .

تولى زعامة المرابطين من بعد عبد الله جماعة من فقهاء المالكية ثم إختار المرابطون أبا بكر ابن عمر اللمتوني فواصل الجهاد ضد برغواطة حتى عادت إلى الإسلام الصحيح، ثم عاد إلى أغمات وأقام بها حتى صفر ٤٥٢هـ/١٠٦٠م ثم توجه إلى فازا

ومكناسة ، وبعدها إلى مدينة لواتة فخربها وقتل بها كثيرا من بنى يفرن ثم عاد إلى أغمات فى ربيع الثانى ٤٥٢هـ/١٠٦٠م .

وفى هذه السنة حدث شقاق بين لمتونة وجدالة فى بلاد الصحراء فخشى أبو بكر أن تتفرق كلمتهم فى وقت كان المرابطون يتهيئون لمدافعة زناتة وحلفائها بنى يفرن ومغراوة ، ويبدو أن الزنوج فى الجنوب إنتهزوا فرصة وجود معظم القوات المرابطية فى الشمال المغربى فأرادوا أن يطعنوها من الخلف ومن ثم قرر أبو بكر التوجه إلى الصحراء ليقضى على هذه الفتن ، ويوحد بين قبائل المرابطين ، وعهد إلى يوسف بن تاشفين بقيادة جيوش المرابطين وأمره بمتابعة قتال زناتة وحلفائها فى شمال المغرب بعد أن ترك له ثلث الجيش المرابطى ، وأنابه على المغرب .

زحف يوسف بن تاشفين نحو المغرب فتغلب على أكثر مناطقه ، فقد هزم مغراوة وزناتة وبنى يفرن وسارعت سائر القبائل إلى الإستسلام وخلال مدة قصيرة لا تتجاوز بضعة أشهر إستطاع يوسف بن تاشفين أن يبسط سلطانه على المغرب الأوسط والجنوبى ثم عاد إلى أغمات سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ، وبدأ فى تأسيس عاصمة جديدة للمرابطين وسماها مراكش وهى بالبربرية مركوش ومعناه قصر الحجر لأن مبانى المدينة أقيمت بالحجر .

وإستطاع يوسف أن يستأنف فتوحات المرابطين فى بلاد غمارة ، وتمكن من دخول مدينة فاس سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م بعد فرار أميرها معنصر بن المعز المغراوى وهذا هو الفتح الأول ، ثم عين يوسف عليها واليا من لمتونة وتوجه إلى بلاد غمارة وإستولى على حصونها . إنتهز معنصر فرصة خروج يوسف ودخل فاس وقتل أميرها المرابطى ، وعلى إثر ذلك دارت عدة حروب بين المرابطين ومعنصر إلى أن تمكن يوسف من فتح البلاد المحيطة بفاس ثم ضرب الحصار على فاس سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م بجيش قوامه مائة ألف جندى وتمكن من دخولها عنوة وأحدث فيها

بجزورة رهيبة ، وأمر بهدم الأسوار التى تفصل بين عدوة الأندلسيين التى تأسست سنة ١٩٢هـ وعدوة القرويين ١٩٢هـ وجعلها مصرا واحدا وأدار عليها الأسوار وأمر ببنيان المساجد فى أنحائها ، وبنى الحمامات والفنادق وأصلح الأسواق . وفى سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م توجه إلى بلاد ملوية وفتحها .

وفى سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م بسط يوسف نفوذه على سائر بلاد المغرب الأقصى بإستثناء طنجة وسبتة . أما أبو بكر بن عمر فقد كان فى هذه الأثناء قد فرغ من القضاء على الفتن الجنوبية وعاد إلى المغرب سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م ، فتلقى يوسف ابن عمه بمظهر السلطنة وإستظهر جيوشه أمام أبو بكر بن عمر مما أدخل الرعب فى قلب الأمير أبى بكر الذى أحس بمطامع يوسف فى الإستئثار بالسلطة خاصة عندما جاءه جواب يوسف بأنه يستعين بهذه القوات على من يخالفه ، ومن ثم جمع الأمير أبو بكر شيوخ الملثمين وأشهدهم على نفسه بالتخلى عن الإمارة ليوسف وعاد إلى الصحراء لمواصلة الجهاد .

واستدعى يوسف أمراء المغرب وشيوخ القبائل من زناتة ومصمودة وغمارة لمبايعته فبايعوه بالإمارة ، وإتخذ لقب " أمير المسلمين " ، و " ناصر الدين " وذلك سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م .

وفى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م وجه الأمير يوسف بن تاشفين جيشا بقيادة صالح بن عمران وأمره بمهاجمة طنجة ، وعندما إقترب المرابطون منها برز إليهم الحاجب سقوط البرغواطى حاكم سبتة وطنجة على رأس جيشه وكان شيخا فى التسعين من عمره فقاتل الفاتحين حتى قتل .

بعد فتح طنجة إستأنف يوسف توسعه جهة الشرق لمطاردة زناتة التى لجأت إلى تلمسان ، واستطاع الجيش المرابطى هزيمة جيش تلمسان ثم العودة إلى مراكش . بعد

ذلك إتجه يوسف إلى منطقة الريف ففتح مليلة وسائر أنحاء المغرب وضرب مدينة تكرور حتى لا تتخذها زناتة حصنا لمقاومة المرابطين ، وفى سنة ٤٧٤هـ/١٠٨٠م إتجــه إلى تلمسان فإستولى عليها وقتل أميرها العباس بن يعلى المغراوى ، ثم تتبع زناتــة شـرقا فإستولى على وهران وتنس ووادى الشلف حتى دخل مدينة الجزائر وتوقف عند حـدود مملكة بجاية التى يحكمها بنــو حمـود الصنـهاجيين ، ثم عـاد إلى مراكـش سـنة ٤٧٥هـ/١٠٨٠م ، وفى سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م تمكنت قوات المرابطين بقيادة المعـز ابن يوسف بن تاشفين ومساعدة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية من إقتحام سبتة وأسر ضياء الدولة بن سقوط وقتله بيد المعز ، وهكذا قامت دولة المرابطين ، وأقامتها عبقريـة رجل واحد هو يوسف بن تاشفين ، بعد أن وضع أسسها الفقيه عبد الله بن ياســين ، وهنا ننتقل إلى صفحة أخرى من حياة يوسف بن تاشفين والمرابطين ودورهم فى بـلاد الأندلس .

دور المرابطين في الأندلس

كانت الأندلس فى الوقت الذى قامت فيه دولة المرابطين القوية تجتاز مرحلة مـن أخطر المراحل التاريخية التى مرت بها ، فقد شهد القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى تفكك الوحدة السياسية فى الأندلس على أثر سقوط الدولة العامرية وإنهيـار الخلافة الأموية . وكان من نتائج ذلك ظهور ما عرف بملـوك الطوائـف ، لتصبح الأندلس نهبا لكل مغامر أنس فى نفسه القدرة والجرأة ، وقد تقاسمها الزعماء الطـامحون إلى الرياسة ، وتكونت من هؤلاء المستبدين دويلات هشة بلغ تعدادها بضعا وعشـرين دويلة ، أهمها دولة بنى عباد فى إشبيلية .

وقد أغرقت هذه الدويلات نفسها فى صراعات زادت من هشاشـتها ، ينـتزع القوى منهم أملاك الضعيف ويحالفون نصارى أسبانيا النصرانية بعضهم على بعـض ،

وكان الأمراء النصارى يرحبون بتلك الفرص للتفريق بين ملوك الطوائف وإضعاف شوكتهم . وكان هذا يشكل خطرا على مستقبل الإسلام فى الأندلس .

والواقع أن هذه السياسة الخطرة أسفرت عن تشجيع النصارى على توجيه ضربات موجعة إلى مسلمى الأندلس ، فقد شنوا حربا شنعاء لاهوادة فيها تهدف إلى طرد العرب والمسلمين من الأندلس وقد بدأت هذه الحرب بدافع الدين والقومية وأسموها حرب الإسترداد . ١

كان على عرش مملكة قشتالة فى ذلك الحين ملك قوى البأس هو ألفونسو السادس فرأى الفرصة سانحة للبطش بهذه الدويلات الأندلسية وإفتتاحها واحدة بعد الأخرى وضمها لمملكته ، وكانت طليطلة أول قاعدة أندلسية يهدف الفونسو إلى إنتزاعها لوقوعها على مقربة من حدود مملكته ولتخاذل صاحبها القادر بن ذى النون وتخلى ملوك الطوائف عن إنجادها فكان سقوطها فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وكان لسقوطها دوى هائل فى الأندلس والعالم الإسلامى . وتوالت الغارات القشتالية على المدن الأندلسية خاصة الدويلات الكبرى المجاورة لها أى إشبيلية وبطليوس ، فقد أرسل ألفونسو إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب منه تسليم بعض الحصون والقلاع المجاورة لحدود مملكته مع تأدية الجزية ، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض ، ولكن المتوكل رفض التهديد ، ثم وجه ألفونسو تهديداته نحو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وطالبه بتسليم بعض الأراضى والحصون إلى عماله ورسله وتشطط عليه فى الطلب ورد عليه المعتمد بخطاب شديد اللهجة سخر فيه من تهديداته وأبدى فى نفس الوقت إستعداده هو وملوك الطوائف للجهاد .

وهكذا أيقن ملوك الطوائف خاصة المعتمد وابن الأفطـ[illegible] الدويلات الأندلسية أصبحت مطمعا لملك قشتالة ونصارى الشمال إذ لم [illegible] إلى الإتحاد على قمع الخطر المشترك ، وإجتمعت كلمتهم بعد البحث والتشاور [illegible]ضرورة الإستنجاد

بالمرابطين ، وكان المرابطون يومئذ فى أوج قوتهم ، فوفدت وفود عديدة من الأندلس شعبية ورسمية إلى يوسف بن تاشفين تلتمس العون منه ، وكان المعتمد بن عباد أول من ذهب إلى المغرب من ملوك الطوائف ليستنجد بيوسف بن تاشفين الذى إستجاب إلى نداء ابن عباد وملوك الطوائف وأهل الأندلس ، فعبر إليهم فى جيش ضخم فنزل بالجزيرة الخضراء فى ربيع الأول سنة ٤٧٩هـ/يونيو ١٠٨٦م وإتخذها مركزا لتأمين خطوط مواصلاته .

تقدم يوسف بن تاشفين بقواته صوب إشبيلية ، فسارع المعتمد لملاقته فى مائة فارس ووجوه دولته بالهدايا والمؤن ثم إتجها إلى إشبيلية ومنها إلى بطليوس وسارع كل ملك من ملوك الطوائف إلى جمع ما بوسعه من الجند والمؤن الا أن المعتمد كان أسبقهم وأكثرهم مشاركة فى حشد الجند الإشبيلى والمتطوعين الأندلسيين خاصة وهو صاحب الدعوة الرسمية لإبن تاشفين والمرابطين لإنقاذ الأندلس من التهديدات القشتالية والنصرانية . سارت القوات الإسلامية إلى قتال ألفونسو الذى خرج بقواته النصرانية نحو بطليوس ، فوصل إلى موضع قريب منها يسمى الزلاقة ، وتشير النصوص إلى تفوق الجيش الأسبانى على جيش المسلمين من حيث العدد والعدة ، وأن الفونسو قد هاجم بجيوشه معسكر الأندلسيين فى سهل الزلاقة ، فنشبت معركة شرسة بين النصارى والأندلسيين بقيادة المعتمد بن عباد ، فصدمت قوات الأندلس صدمة شديدة وإرتبكت صفوفهم وأشرفوا على الهزيمة إلا أن المعتمد ومعه الإشبيليون إستطاعوا الثبات فى ميدان المعركة بعد أن فر عنه رؤساء الأندلس إلى بطليوس تتبعهم جيوش النصارى يأسرون ويقتلون وينهبون سلاحهم ، وفى هذه الأثناء أرسل المعتمد إلى يوسف الذى كان يختبىء بقواته عن عيون ألفونسو فى أماكن متفرقة ، فإقتحم بقواته مؤخرة جيش النصارى ، وإلتحم الفريقان ، وإنتهت المعركة بهزيمة ساحقة للقوات النصرانية فى يوم الجمعة الثانى عشر من رجب سنة ٤٧٩هـ/٢٣أكتوبر ١٠٨٦م .

وكانت لمعركة الزلاقة نتائج مهمة بالنسبة للأندلسيين فقد رفع نصر الزلاقة من الروح المعنوية لهم وأنقذت سرقسطة من سقوط محتم ، وأزاح عن ملوك الطوائف وقتئذ أطماع النصارى التى لاتنتهى ، أما ألفونسو والنصارى فقد تحطمت أمالهم بالإستيلاء على الأندلس ، أما المرابطون فقد إستطاعوا بقيادة يوسف بن تاشفين أن ينقذوا الأندلس من السقوط فى أيدى النصارى ، وكان لهذا الموقف وقع طيب فى الأوساط الأندلسية والمغربية بل وفى العالم الإسلامى وإعتبره المسلمون مماثلا لإنتصارات اليرموك والقادسية .

وعاد يوسف إلى المغرب ، وإضطربت أحوال بلاد الأندلس ، فقد عاد رؤساء الأندلس إلى سيرتهم الأولى من الإختلاف فيما بيهم والإتصال بنصارى الشمال ، وإستأنف الإسبان أعمالهم الحربية من جديد ، وشنوا الغارات على شرق الأندلس، وإستولى ألفونسو على حصن لييط الواقع بين مرسية وبلنسية ، وباتت مناطق شرق الأندلس وكأنها على شفير الهاوية والسقوط فى يد النصارى الأسبان ، وإرتفعت أصوات الإستغاثة من جديد تستنجد بيوسف ابن تاشفين وعادت الوفود الأندلسية إلى التردد على المغرب .

ولخطورة الوضع فى الأندلس ونتيجة للضربات المتتالية التى كان يوجهها النصارى إلى أراضى المعتمد فى مرسية ولورقة ، عبر المعتمد إلى المغرب وطلب المساعدة من يوسف بن تاشفين فجاز الأخير إلى الأندلس سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م للإستيلاء على حصن لييط ، بعد أن إستكمل المسلمون تجمعهم قادهم يوسف بن تاشفين نحو حصن لييط ، وبدأ المسلمون الهجوم على الحصن فصمد أمامهم ، وأثناء الحصار إشتغل القادة الأندلسيون بمشاكلهم الشخصية ، وتحالف البعض الآخر مع الفونسو السادس ، وتخاذل البعض عن نصرة ابن تاشفين ومن ثم فقد إنسحب يوسف بن تاشفين من أمام الحصن ، وإستطاع ألفونسو إنقاذ من تبقى من حامية الحصن وقرر إخلاءه و تدميره وإسترجع المعتمد الحصن بعد أن تركه النصارى أطلالا .

وفى سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب وقد أضمر فى نفسه عزل ملوك الطوائف ، فجاز إلى الأندلس للمرة الثالثة سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م وإستولى على مالقة ، وغرناطة ، وقرطبة ، واشبيلية ، والمرية ، وغيرها من دويلات الطوائف الأندلسية عدا مملكة سرقسطة التى دخلت فى طاعته ، وهذا ما سنفصله فى موضعه .

وهكذا إتسعت دولة يوسف بن تاشفين إتساعا جعل منها دولة كبرى تمتد فى قارتين أوربا وأفريقية حدودها الشمالية فيما بين نهر تاجة والوادى يانة فى الأندلس ، وحدودها الجنوبية فى أفريقية المدارية ، وفى سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م إستطاع القائد محمد بن مزدلى المرابطى إسترداد مدينة بلنسية ، وكان لإستردادها من يد ألفونسو دوى هائل فى العالم الإسلامى . تابع المرابطون زحفهم نحو الحصون الواقعة فى شرق الأندلس فإستولوا على مربيطر والمنارة والسهلة والبونت سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م ، وفى سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م تقدم المرابطون نحو الشمال فإستولوا على شنتمرية وخلعوا حاكمها عبد الملك بن رزين ، كما هاجموا مملكة برشلونة وعادوا بالغنائم والأسلاب إلى بلنسية.

وفى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م توفى يوسف بن تاشفين ، فخلفه ابنه على وفى عهده تمكن المرابطون بقيادة تميم بن يوسف من هزيمة قوات قشتالة فى معركة أقليش شرقى طليطلة وفى هذه الواقعة قتل شانجة بن ألفونسو السادس كما قتل سبعة قوامس ، وقد عرفت هذه الموقعة بمعركة الأكناد السبعة سنة٥٠١هـ/١١٠٨م .

وإسترد المرابطون جزائر البليار " ميورقة ومنورقة ويابسة " سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م، ومن أهم المعارك التى خاضها المرابطون فى الأندلس معركة افراغة جنوب لاردة سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م ذلك أن ألفونسو المحارب ملك أراغون قد عزم على ضم المدن الواقعة مابين نهرى الزيتون وشيقر وأهمهما لاردة وأفراغة ، بالإضافة إلى ثغر طرطوشة

مصب نهر ابرة فإستولى على مدينة مكنسة سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م ثم تقدم صوب أفراغة للإستيلاء عليها ففرض عليها الحصار في رمضان سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م فصمد أهلها بقيادة حاكمها سعد بن محمد بن مردنيش ، فلما ضيق ألفونسو عليهم الخناق إستغاثوا بحاكم مرسية وبلنسية يحيى بن غانية فسارع إلى نجدتهم ، كذلك هرع إلى نجدة أفراغة الزبير ابن عمرو اللمتونى من قرطبة ، وعبد الله بن عياض والى لاردة ، ودارت معركة ضارية بين قوات أراغون وقوات المرابطين ، وإنتهت المعركة بهزيمة نكراء منى بها ألفونسو المحارب ، وأثخن المسلمون فى عسكر النصارى فهلك منهم عدد هائل وتوفى ألفونسو بعد الهزيمة بفترة من الوقت ، ومن ثم تلاشى الخطر الذى كان يتهدد مدن وقواعد الثغر الأعلى إلى حين .

وبينما كان على بن يوسف يواصل جهاده ضد نصارى أسبانيا ، بدأ محمد بن تومرت دعايته ضد المرابطين معتمدا على بربر المصامدة البرانسية ، فلما توفى على بن يوسف سنة ٥٣٧هـ/١١٣٤م بدأت النهاية لدولة المرابطين .

وعلى الرغم من المحاولات المستميتة التى كان يبذلها تاشفين بن على بن يوسف ابن تاشفين الذى خلف أباه فى مدافعة النصارى الأسبان خاصة القشتاليين الذين ظلوا يمارسون ضغوطهم على البلاد الأندلسية فأغاروا سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤م على قرطبة وإشبيلية وقرمونة وغرناطة حتى المرية منتهزين فرصة إنشغال المرابطين فى المغرب وصراعهم مع الموحدين دفاعا عن دولتهم حيث توالت هزائم تاشفين فى المغرب على أيدى عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين .

وإستغل أهل الأندلس ضعف المرابطين فأعلنوا تمردهم ومن ثم تمزقت الأندلس من جديد بعد وفاة تاشفين سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م ومن هؤلاء الثوار عبد الله بن عياض بشرق الأندلس ، ومحمد بن على الحجام ببطليوس ، ومحمد بن المنذر بشلب وغيرهم .

فى ذلك الوقت تزايدت قوة الموحدين فإستولوا على فاس سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م ثم دخول مراكش سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م ، وقتل اسحاق بن على أمير المرابطين ، وأصبح عبد المؤمن بن على الموحدى بعد فتح مراكش سيد المغرب .

دولة الموحدين

ظهرت الحركة الموحدية التى أفضت إلى نشوء دولة من أعظم ما عرف التاريخ الإسلامى من دول : إتساع رقعة ، وجهادا فى سبيل الله ، وإزدهار علم وحضارة ، ألا وهى دولة الموحدين فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى بزعامة محمد بن عبد الله بن تومرت الذى ينتسب إلى قبيلة هرغة وهى بطن من بطون قبيلة مصمودة ، أما ما إشتهر به من لقب المهدى فقد أطلق عليه حينما أظهر المهدية وبايعه الناس ، وأطلق عليه حينئذ لقب الإمام ، واستعمل أتباعه من بعده فى رسائلهم ومخاطباتهم صيغة " الإمام المعصوم المهدى المعلوم " .

يتفق المؤرخون على أن ابن تومرت ولد بمنطقة السوس جنوب المغرب فى قرية ايجليز هرغة ، ويرجح أنه ولد سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، وكان والده زعيم هذه القرية وشيخها فنشأ ابن تومرت فى بيت يغلب عليه طلب العلم ، ولاشك أن ابن تومرت بدأ حياته العلمية بالتردد على بعض الكتاتيب لحفظ القرآن الكريم وبعض العلوم الأخرى وهى عادة أهل المغرب كما يذكر ابن خلدون بقوله : " فأما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان الإقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله ، وإختلاف حملة القرآن فيه ، ولا يخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس تعليمهم وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر و أمم المغرب فى ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة ".

وتفيد بعض الروايات التاريخية إلى أن ابن تومرت قد عاش فى المغرب قبل بدء رحلته إلى المشرق إلى ما بعد الخامسة والعشرين من عمره ، فإلى جانب حفظ القرآن ، درس المهدى العلوم الفقهية ، ويبدو أنه قد حصل بعض علوم الأدب واللغة ، ومن المحتمل أيضا أنه قد إنشغل بالواقع الذى كانت تجرى عليه الحياة فى جوانبها المختلفة بالمغرب ، خاصة تلك المظاهر التى تثير الإنتباه فى مجال السلطة والأخلاق العامة ، وأنه كان يتردد على العاصمة المرابطية مراكش ، وقد عزم على الإرتحال إلى المشرق لتلقى العلم ليكسبه القدرة على تغيير المنكر فى السياسة والأخلاق ، وتأسيس دولة تنجز الرؤى الإصلاحية مثلما قام به من قبل الفقيه المغربى عبد الله بن ياسين فى إقامة دولة المرابطين .

يكاد يتفق المؤرخون على أن ابن تومرت إرتحل إلى المشرق فى أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن السادس الهجرى ، ولكن تحديد السنة كان محل إختلاف بينهم فقد ذكر ابن القطان أخبار هذه الرحلة فى السنة الأولى من المائة السادسة وفى رواية أخرى فى السنة الأولى من المائة السادسة أو السنة التى قبلها ، وقال المراكشى فى سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م ، وابن خلدون حددها بسنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م .

ويمكننا القول أن ابن تومرت خرج من وطنه فى طلب العلم فى سنة ٥٠٠هـ أو سنة ٥٠١هـ وقضى فترة فى الأندلس ، ثم إتجه إلى المشرق الإسلامى ، فقصد مدينة المهدية حيث درس هناك على أبى عبد الله المازورى (ت٥٣٦هـ/١١٤١م) ثم إتجه صوب الإسكندرية وتلقى هناك دروسا على أبى بكر الطرطوشى (ت٥٢١هـ/١١٢٧م) ، ثم سافر لقضاء فريضة الحج ، وقصد إثر ذلك إلى بغداد فيما بين سنتى ٥٠٤-٥٠٥هـ وكان الإمام الغزالى ببغداد يضطلع بالتدريس فى المدرسة النظامية بين سنتى ٤٨٤-٤٨٨هـ /١٠٩١-١٠٩٥م ، وفى سنة ٤٨٨هـ غادر بغداد فى رحلته التأملية التى إستمرت حتى سنة ٤٩٩هـ فتوجه إلى [illegible] ار بيت المقدس والإسكندرية ومكة والمدينة ، ومن ثم لم يلتقى إبن تومرت بال[illegible] ـسة وأن الغزالى

لم يمكث ببغداد سوى فترة يسيرة ، ثم رحل منها إلى نيسابور إستجابة لدعوة السـلطان ملك شاه ثم غادرها إلى مسقط رأسه طوس وإنقطع بها للعبادة والتأليف حتى تـوفى فى جمادى آخر سنة ٥٠٥هـ/ ديسمبر ١١١١م .

لما أتم محمد بن تومرت بغيته من الدراسة بالمشرق ، إعتزم العـودة إلى المغـرب ، وكان قد أفاد علما واسعا حتى غدا كما يذكر ابن خلدون " بحرا متفجرا من العلـم ، وشهابا واريا من الدين . وكان قد لقى بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخـذ عنهم وإستحسن طريقهم فى الإنتصار للعقائد السلفية والذب عنها بـالحجج العقليـة الدافعة فى صدر أهل البدعة . وذهب إلى رأيهم فى تـأويل المتشـابه مـن القـرآن والأحاديث " . وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأى الإمامية من الشيعة .

كانت مصر هى المرحلة الأولى فى طريق العودة ، وقد يكون قد مر بها فى سـنة ٥١١هـ/١١١٧م ، ويقال أنه خرج من الإسكندرية منفياً بسبب مبالغته فى مقاومة ما خالف الشريعة ، ودعوته إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى ضاق به أهـل المدينة.

ولما ركب البحر ، إتخذ من تجمع المسافرين فى السفينة فرصة للوعظ والإرشـاد ، وإشتد فى ذلك حتى قيل أن ركاب السفينه ألقوه فى البحر ، فلبث أكثر من نصف يـوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شيء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعظم فى صدورهم .

ويذكر ابن خلدون أن محمد بن تومرت نزل بطرابلس أول بلاد المغرب ، ومبتـدأ دعوته الحقيقية إلى منهج التأويل فى العقيدة ، منكراً على علماء المغرب عدولهم عنـه ، آخذاً نفسه بتدريس العلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما إستطاع . وفى المهديـة واصل ابن تومرت ما كان قد شرع فيه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويـدو

أنه عمد إلى آلات اللهو فكسرها ، وأواني الخمر فأحرقها مما أحدث إضطرابا في المدينة جعل الأمير علي بن يحيى بن تميم يكلف الفقيه أبا عبد الله المازوري بمعاتبته بشأن ما أحدث بالمدينة وخوفه إن هو تمادى في نفس الطريق فينتصح إبن تومرت ، ويغادر المهدية إلى المنستير ثم أخذ طريقه إلى تونس ، وهناك قصده طلاب العلم يأخذون عليه الأصول بصفة خاصة . ثم مضى محمد بن تومرت إلى قسنطينة ثم إنتقل إلى بجاية وحاكمها يومئذ العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي (ت٥١٨هـ/١١٢٣م) ، ونزل بمسجد الريحانة ، حيث إتخذ منه مدرسة لتدريس العلم، ولم يكن يمر في المدينة بمنكر إلا نهى عنه ، وجعل ينكر على الناس شرب الخمر ويكسر أوانيها ، ويبدو أنه بدأت تميل إليه قلوب أهل بجاية مما أوغر صدر الحاكم عليه وتوعده بالهلاك . ولذلك خرج ابن تومرت إلى مكان غير بعيد عن بجاية يسمى رباط ملالة ، ونزل في كنف أصحابها وهم من أعيان صنهاجة ، فآووه ولبث بينهم حينا يدرس العلم ، وكان بعد الفراغ من التعليم يجلس تحت شجرة على قارعة الطريق يكثر من التأمل وفي ذات يوم وفد إليه كهل وفتى حسن التكوين ، و لم يكن هذا الفتى سوى عبد المؤمن بن علي ، وكان قد قدم مع عمه من بلده القريب من تلمسان في طريقه إلى المشرق طلبا للعلم وأداء فريضة الحج ، ويذكر المؤرخون أن ابن تومرت عندما التقى بعبد المؤمن وهو من قبيلة كومية المصمودية قرأ على وجهه علامات الذكاء ومخايل النبوغ والمعرفة ، وإرتبط به منذ ذلك الحين برباط صداقة بعد أن تبين لابن تومرت أن عبد المؤمن من الرجال الأقوياء الصالحين لإعانته على ما يعتزمه من عمل المستقبل ، فإرتحل ابن تومرت مع أصحابه إلى تلمسان ثم إلى فاس ، وكان الطلبة يهرعون إليه في كل مسجد ينزل به ، وكان ابن تومرت يجد في تغيير المنكر مركزا على عيبين أخلاقيين يبدو أنهما كانا متفشيين بالمغرب : معاقرة الخمر ، وإختلاط الرجال بالنساء ، كما أمر رفاقه بتحطيم آلات الطرب في الحوانيت ، ولما علم بذلك والي فاس أمر بإخراجهم من المدينة ، فإرتحلوا إلى مراكش عاصمة المرابطين ، وقد كثر أنصار وأتباع ابن تومرت حيث عمل على نشر دعوته في مطاردة المنكر وإزالته كلما إستطاع إلى ذلك سبيلا ، وإستمر إبن تومرت في دعوته الأخلاقية الدينية دون هوادة . وكانت مراكش هي

العاصمة التى تؤوى السلطة المركزية فى عهد الأمير على بن يوسف بن تاشـفين ، وإلى جانب هذه السلطة كانت تقوم سلطة الفقهاء ، متمسكين بـالفروع مبتعديـن عـن الأصول ، وكانت مراكش تبدى أيام المرابطين كثيرا من التسامح الدينى حـتى نمـت مظاهر الفساد الأخلاقى والبدع ، وقد ساهمت تلك الأحوال التى تمر بها مراكـش فى زيادة إصرار إبن تومرت على تبليغ دعوته وتغيير المنكر فى هذا التجمع البشرى الكبير .

إنطلق إبن تومرت فى الحاضرة المرابطية يلقى الدروس العامة ، ويـأمر بـالمعروف وينهى عن المنكر ، ولم يكن يكتفى بأن يغير المنكر فى أوساط العامة بل إقتحم دائـرة الحكام ، وكانت البداية أنه لما رأى أخت أمير المسلمين مع جواريها ، وهـن جميعـا سافرات على عادة المرابطين ، من سفور النساء ، وإتخاذ الرجال اللثام ، فأمرهن بسـتر وجوههن ، وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت الأميرة عـن دابتـها ، ووقـع الإضطراب والهرج ، فذهبت الأميرة تشتكى أمرها إلى أخيها الأمير على بن يوسـف . ولم يكن إبن تومرت يتهيب أمير المرابطين فقد جمعتهما صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ لـه القول ، وذلك أنه لما دخل الأمير المسجد قام له الناس جميعا إلا هو وعند إنتهاء الصـلاة قال له : غير المنكر ببلادك لأنك أنت المسئول عن رعيتك ، فلم يجبه ، وأمر بأن تقضى حاجته إن كانت له حاجة ، فأجابه بأنه ليست لـه حاجـة ، ومـاقصده إلا تغيـير المنكرات. فلما علم على بن تاشفين بما حدث لأخته ، أحضر الفقهاء لمناظرته ، وكانوا يحقدون على ابن تومرت لإعتناقه مذهب الأشعرية ، وما يملى من تأويل المتشابه وحمله عليهم ، وإنكاره لجمودهم إزاء مذهب السلف ، وأبدى محمد بن تومـرت تفوقـا فى مناظرته للفقهاء المرابطين . وقد كان أخص ما تمتاز به هذه المناظرات الدينية هو تمسك ابن تومرت بأصول الشريعة أمام الفقهاء المرابطين أصحاب مذهب الفروع ، فجعـل المناقشة تدور حول الأصول لا الفروع ، وأبدى فى عرضه لأصول الشريعة أنه يرجـع إلى القرآن والحديث ، ولا يعتبر الإجتهاد مرجعا من مراجع الشريعة ، وكـان مقـدم الفقهاء أبا عبد الله مالك بن وهيب الأندلسى (ت٥٢٥هـ/١١٣٠م) وكان متبحرا فى علوم الدين والفلسفة ، ولكنه كان لايظهر من علمه إلا ما يروج فى هذا الزمن ، فبيـن

لعلى بن تاشفين خطورة ابن تومرت ، وقال له أن هذا الرجل ليس له قصد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنه يبغى تضليل العامة ، وإثارة الفتنة ، والوصول إلى السلطان ، وطلب منه أن يقتله بسبب ذلك ، وأن يقلده دمه . وأشار البعض الآخر بإعتقال إبن تومرت وسجنه وعبر عن ذلك أحدهم بقوله لعلى بن تاشفين : " ألقه فى الكبول قبل أن يسمعك الطبول " ، ولكن رجلا من المرابطين يسمى بيان بن عثمان أثناه عن عزمه ، قائلا لعلى بن تاشفين :" ماذا يقال عنك فى البلاد ، أتسجن رجلا يعرف الله ، وهو أعرف أهل الأرض به " فترك سبيله وأمر بإخراجه من مراكش .

غادر إبن تومرت وصحبه مراكش إلى أغمات ، ويبدو أنه إستمر حينا يقيم فى ضواحى مراكش يبث بين طلابه الدعوة ضد المرابطين ويرميهم بالتجسيم والكفر ، والتجسيم معناه إعطاء الله سبحانه وتعالى صورة مادية أو ملموسة ، كالقول بأن له سبحانه وتعالى وجه ويدين وعينين ، وما إلى ذلك . ومن المعروف أن المرابطين كانوا جماعة سنية مجاهدة لم يكن لأفرادها كما يذكر بعض المؤرخين رأى خاص فى أى ركن من أركان الإسلام ، وأنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر خاصة فى بداية دعوتهم ، وإن كان بعض فقهاء المغرب من أهل الظاهر يقولون بأن القرآن يقول : " يد الله فوق أيديهم " ٤٨ ، "بيدك الخير إنك على كل شيء قدير " آل عمران ٣ . فلا بد أن تكون لله سبحانه وتعالى يد دون تحديد صورة هذه اليد أو معناها . فلا ينبغى أن نقول : أن يد الله سبحانه وتعالى لابد أن تكون مثل أيدينا ، فقد يكون المراد بها شيئا آخر " سبحانه وتعالى عما يصفون " الأنعام ٦ ،" سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون " الزخرف ٤٣ .

ومما لاشك فيه أن محمد بن تومرت أمعن فى ذم المرابطين وبيان معايبهم وحيادهم عن الحق لتهيئة النفوس لتقبل دعوته ، وبث الضعف والإنخذال فى نفوس أعدائه من المرابطين وأتباعهم ، والظهور بنفسه بمظهر المصلح الدينى الثائر على مايقع فى بلاد المغرب من ظلم إجتماعى وتهاون بالدين فى ظل دولة المرابطين . ويذكر ابن الخطيب فى

كتابه رقم الحلل أن المرابطين لقبوا الموحدين بالخوارج ، فقال ابن تومـرت لأصحابـه سبقونا بالقبيح ، لقبوهم أنتم ، وقولوا لهم أنتم أيضا المجسمون .

وبعد أيام من إقامة محمد بن تومرت بأغمات غادرها نحو مسقط رأسه جنوبـا ، وذهب أولا إلى تيفنوت ، ثم إلى هنتاتة ، ثم إلى إيكلين ، ورحل بعد ذلـك إلى قريـة ايجليز أو جبل ايجليز من بلاد هرغة موطن قومه ، وشرع فى الدعوة ، وهناك إنضم إليـه عدد من الناس ، جعل يتكاثر يوما فيوما ، ومن ثم إستدعى من ذلك أن يقوم بعمـل سياسى يهدف إلى إستيعاب هؤلاء الأتباع المتزايدين باطراد ، وتهيئة نفوسهم إلى قتـال المرابطين . وكان يسلك فى سبيل ذلك أساليب متعددة تختلف بإختلاف الظروف ومـن أهم هذه الأساليب الدعوة الإعلامية لتقبل دعوته ، والطعن فى المرابطين وبيان أنهم أهل باطل ، وبعد أن إزداد جمعه أعلن أنه المهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلا كمـا ملئت جورا ، ومن المعروف أن لقب المهدى من ألقاب الشيعة مما يشير إلى أن محمد بن تومرت أخذ من المذاهب ما يفيده فى نشر دعوته وتجميع الأتباع من حوله خاصـة وأن فكرة المهدية لم تكن غريبة على أهل المغرب ومنطقة السوس موطن ابن تومرت ، فقـد ألفوها من الدعوة الشيعية التى وصلت إلى المغرب الأقصى ، ولم يكن ليعلن لأصحابـه بأنه المهدى دون أن يتخير بعض الأتباع المخلصين تحسبا من أن تستعصى هذه المقولـة عن تصديق باقى أتباعه ، وعندما تمكن من غرس فكرة المهدى فى نفوس بعض أتباعـه ، إدعى ذلك لنفسه وأعلن المهدية فى موكب مشهود حضره كافـة الأتبـاع فى شـهر رمضان سنة ٥١٥هـ/ديسمبر ١١٢١م ، وقام إبن تومرت فى الجمع خطيبا فقال كمـا يروى أبو زرع الفاسى فى الأنيس المطرب بروض القرطاس : " الحمد لله الفعال لما يريد القاضى بما يشاؤه ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمـد رسول الله ، المبشر بالإمام المهدى ، الذى يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت جـورا وظلما ، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل ، وأزيل العدل بالجور ، مكانه المغرب الأقصـى منبته ، وزمانه آخر الزمان ، وإسمه إسم النبى عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبـى صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم . وقد ظهر جور الأمراء ، وامتلأت الأرض

بالفساد ، وهذا آخر الزمان ، والإسم الإسم ، والنسب النسب ، والفعل الفعل " ، ولما سمع أصحابه المقربون هذه المقالة قالوا له هذه الصفات لا توجد إلا فيك ، فأنت هو المهدى .

وعلى أثر ذلك ، وفى ظل شجرة خروب ، هرع إلى المهدى أصحابه وبايعوه على أنه المهدى المنتظر ، وعلى أن يكونوا يدا واحدة على القتال والدفاع ، وكان أول من بايعه عبد المؤمن بن على ، وأبو محمد عبد الله الوانشريشى المسمى بالبشير ، وعبد الله ابن ملويات ، وأبو حفص بن يحيى الهنتاتى ، وأبو حفص عمر بن على أزناج ، وسليمان بن مخلوف ، وإبراهيم بن إسماعيل الخزرجى ، وأبو محمد عبد الواحد الحضرمى ، وأبو عمران موسى ، وأبو يحيى بن بكيت . وسمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة ، ثم بايعه من بعدهم خمسون رجلا يمثلون مختلف القبائل ، فسموا أهل الخمسين ، وهم الطبقة الثانية من أصحاب المهدى ، ثم بايعه سبعون آخرون فسموا أهل السبعين ، وهم الطبقة الثالثة .

قسم ابن تومرت بقية أصحابه إلى طبقات تلى هذه تتكون أحيانا بحسب القبائل وأحيانا بحسب المهن ، فالطبقة الرابعة هى : الطلبة ، ثم طبقة الحفاظ ، وأهل الدار وهم أقارب المهدى وعشيرته ، وطبقة أهل هرغة بلد المهدى ، وطبقة أهل تينملل ، وطبقة أهل جدميوه ، وطبقة أهل جنفيسة ، وطبقة أهل هنتاتة ، وطبقة الجند ، والطبقة الأخيرة من الغزاة والرماة ، وجعل المهدى لكل منها رتبة لا تتعداها إلى غيرها وذلك فى سبيل المزيد من الإنضباط والإنقياد ، كأساس للدولة الموحدية .

لم يبدأ المهدى المرابطين بالحرب أولا ، بل حاول إقناعهم بدعوته سلما وجعل يبعث إليهم الرسائل والبعوث لإقناعهم بإتباع الحق كما يراه ، والإقرار بالإمام المهدى المعصوم ، وعندما رفض المرابطون ذلك ، جعل يجمع الجيوش والمقاتلين ويتخير منهم القوى الصادق فيبقيه ويبعد الضعفاء والمنافقين . ولما إستكمل عدده وعدته ، شرع فى

غزو المناطق القريبة منه التي تدين بالطاعة للمرابطين . ثم إنتقل من إيجلـيز إلى مدينـة جبلية منيعة هى " تينملل " ولا يدخلها الفارس إلا من شرقها وهو طريق ضيق وفيـه مواضع خشبية إذا أزيلت لم يمر عليها أحد ، وهو الطريق الذى يصلها بمراكش .

وعندما شعر محمد بن تومرت بقوته خاصة بعد مبايعة أهل تينملل له ، حشد جيشاً عظيماً من الموحدين ووجهه إلى مراكش للإطاحة بحكم على بن يوسف بن تاشـفين والقضاء على الدولة المرابطية ، وأمر على هذا الجيش عبد المؤمن بن على ، فإنهزم هزيمة منكرة ، فى موقعة البحيرة فى ظاهر مراكش سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م . ومع هذه الهزيمـة المنكرة لم ييأس المهدى من النصر ، وإحتسب ذلك من الإبتلاء ، وحتى يخفف وطـأة الهزيمة على أصحابه ، قال لأول قادم يخبره بما حدث : هل عاش عبد المؤمن بن علـى؟ فلما أجابه بالإيجاب قال : كأنه لم يمت أحد ، والبركة فى بقائه ، وكأنكم بـالفتح . ثم توفى المهدى على إثر ذلك فى شهر رمضان من هذه السنة أغسطس ١١٣٠م .

كان المهدى قبل وفاته قد أوصى أن يخلفه عبد المؤمن الذى أخفى خبر موته ثـلاث سنوات قـام الموحـدون خلالهـا بشـن الغـارات علـى المرابطـين . وفى سـنة ٥٣٣هـ/١١٣٩م إستطاع عبد المؤمن هزيمة قوات على بن يوسف المرابطى بقيادة إبنه تاشفين ، وعاد الأخير إلى مراكش منهزماً .

وبعد وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م خلفه إبنه تاشفين ، وحـدث إنقسام بين صفوف المرابطين فتشجع عبد المؤمن بإنضمام قبيلة مسوفة إليه على مهاجمة المرابطين فى سبتة وملوية ، ونجح فى دخول تلمسان سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م ثم إسـتولى على وهران ، وتوفى تاشفين بن على فى شهر رمضان سنة ٥٣٩هـ/فـبراير ١١٤٥م أثناء دفاعه عن وهران . ثم إستولى عبد المؤمن الموحدى علـى مدينـة فـاس سـنة ٥٤٠هـ/١١٤٦م . وفى شهر محرم سنة ٥٤١هـ/يوليو ١١٤٦م دخل عبد المؤمـن

مراكش عاصمة المرابطين وقتل إسحق بن على بن تاشفين وأصبحت للموحدين السيادة على المغرب الأقصى وورثوا دولة المرابطين .

كان لإنتصار عبد المؤمن على المرابطين أثره على بلاد الأندلس إذ تطلع إليه بعض ثوار أهل الأندلس يستنجدون به ، وكان ذلك خلال حروبه مع على بن تاشفين . وكان أول جيش أرسله الموحدون للأندلس فى سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م وقد استطاعوا السيطرة على شريش ورندة ولبلة ومرتلة وشلب وباجة وبطليوس ، ثم إستولوا على إشبيلية ومالقة ، ودخلت قرطبة وجيان فى طاعة الموحدين سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م .

أما المرية التى دخلت فى طاعة الموحدين سنة ٥٤١هـ فقد إستولى عليها ألفونسو السابع الملقب فى المصادر العربية بالسليطين ملك قشتالة فى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م إلى أن إستعادها الموحدون سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م . وفى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م إستولى الموحدون على غرناطة وتوطد نفوذهم فى جنوب الأندلس .

وبإستعادة الموحدين للمرية توحدت الأندلس تحت سلطان عبد المؤمن بن على الذى ولى إبنه أبا سعيد عثمان أميراً على بلاد الأندلس ، وفى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م أمر الخليفة ـدى ـسن ومدينة جبل طارق فتم بناؤه على يد الحاج يعيش المهندس.

وبينما كانت جيوش الموحدين تعمل على بسط نفوذ الموحدين فى الأندلس ، تفتحت أمام الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على جبهة أخرى فى المغرب الأدنى والأوسط ، فقد إستولى النورمان على سواحل أفريقية ، وقيام عرب بنى سليم وهلال بالعـ ث فيها تخريباً وتدميراً ، فزحف فى سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م من مراكش قاصداً مملـ يحيى بن عبد العزيز بن المنصور الحمادى ببجاية فدخل مدينة الجزائر ، فتلقاه الحسن بن على بن يحيى بن تميم وكان قد إنتقل إليها بعد سقوط المهدية فى يد

النورمان، وصحبه فى غزو أفريقية ، وإستطاع عبد المؤمن هزيمة قوات يحيى بـــن عبـــد العزيز ودخول بجاية ، وفر يحيى الحمادى إلى صقلية ، أما عبد المؤمن فقد توجه إلى قلعة بنى حماد وإستولى عليها ، وإستعمل علي تلك المناطق إبنه عبد الله ، وتوجـــه هـــو إلى مراكش واستطاع إبنه عبد الله هزيمة عرب الأثبج ورياح وزغبة فى سطيف ، وأعلنـــوا خضوعهم للموحدين . وفى سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م إستولى عبد المؤمـــن بـــن علـــى الموحدى على مدينة تونس ثم دخل المهدية سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م من النورمان وبذلك خضع المغرب كله لحكم عبد المؤمن بن على .

وفى سنة٥٥٨هـ/ ١١٦٣م جاز عبد المؤمن إلى الأندلس لإخضاع محمد بن سعيد ابن مردنيش وابن همشك وحلفائهما من النصارى الذين هاجموا إشبيلية وغرناطة ، وقد تمكن عبد المؤمن من دخول غرناطة وفرار ابن مردنيش إلى حدره وابـــن همشـــك إلى شـــقورة ، ثم عـــاد عبـــد المؤمـــن إلى المغـــرب وتـــوفى فى جمـــادى آخـــر ســـنة ٥٥٨هـ/يونيو١١٦٣م فخلفه فى الحكم ابنه أبى يعقوب يوسف بن عبـــد المؤمـــن ، وكان والياً على إشبيلية ، وكان ذا ثقافة واسعة ، وقد بذل أقصى جهده فى القيام بـأمر دولة الموحدين التى تمتد من طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً والأندلس أيضـــاً . ومن ثم لا تخلو سنة من سنوات حكمه من قيام فى أقليم من أقاليم دولـــة الموحديـــن المترامية الأطراف فى المغرب والأندلس .

ومن أشد الفتن التى واجهها فى المغرب فتنتان الأولى : سنة ٥٦٢هـــــ/ ١١٦٦م عندما ثار سبع بن منغفاد بجبال غمارة وإنضمت إليه قبيلة صنهاجة فإضطر للخـــروج إليهم وهزمهم . والثانية : سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م عندما ثار على بن المعز فى قفصـــة . فتوجه إليه الخليفة الموحدى وقضى على هذا الثائر ، غير أن هذه الثورة كانت مقدمـــة لخطر وافد من الشرق وهو خطر مماليك الغز بقيادة شرف الدين إبن أخى صلاح الدين بهدف تمهيد هذه البلاد لصلاح الدين متحالفين مع بنى غانية وعرب بنى هلال ، وقـــد بذل أبو يعقوب يوسف جهداً كبيراً فى القضاء على خطر هذا التحالف .

لما هدأت بلاد المغرب تطلع ابن عبد المؤمن إلى بلاد الأندلس للقضاء على الفتن الداخلية ، وإنقاذ الأندلس من الخطر النصرانى الذى هدد الأندلس حتى أصبحت البلاد على وشك السقوط فى أيدى النصارى ، ذلك أن محمد بن سعيد بن مردنيش كبير ثوار شرق الأندلس قد حشد قوات كثيرة من المعادين للموحدين ومن حالفهم من القشتاليين والأرغونيين ، فأغار على قرطبة ، فوجه إليه أبو يعقوب القائدان أبو سعيد وأبو جعفر من أبناء عبد المؤمن فى جيوش ضخمة وقد تمكنا من هزيمة إبن مردنيش الذى فر إلى مرسية فى شرق الأندلس وذلك سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م .

وفى سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م عبر أبو يوسف بحر الزقاق إلى الأندلس للجهاد ونزل فى إشبيلية ، وأرسل أخاه عثمان حاكم غرناطة على رأس جيش لمحاربة ابن مردنيش ، فحاصره الموحدون فى مرسية وأثناء الحصار تمكن الموحدون من الإستيلاء على لورقة وبسطة ، أما ابن مردنيش فقد توفى وهو محاصر فى مرسية سنة٥٦٧هـ/١١٧١م ، ودخل إبنه هلال فى طاعة الموحدين وسلم لهم مدن وحصون أبيه فى شرق الأندلس . أقام الخليفة الموحدى فى الأندلس أربع سنوات أغار خلالها على بلاد قشتالة وشنترين ، وأسس [illegible] إشبيلية [illegible] الجامع والجسر والقصبة والأرصفة على [illegible] الوادى الكبير ، ثم غادر الأندلس إلى مر[illegible] [illegible] ٥٧١هـ/١١٧٥م .

ولكن لم تلبث أن ساءت الأحوال فى بلاد الأندلس فقد تمكن القشتاليون من الإستيلاء على قونكة ، وأخذت ضربات الممالك النصرانية الإسبانية تتوالى على بلاد الأندلس خاصة من قبل مملكة البرتغال ، لذلك قرر الخليفة الموحدى القيام بحملة عسكرية كبيرة على غرب الأندلس لإيقاف هذا الخطر ، فزحف الجيش الموحدى نحو ش[illegible]ين وكانت من المدن الكبرى فى غرب الأندلس التى إستولى عليها البرتغاليون سنة ١[illegible]هـ/١١٤٦م ، فحاصرها أبو يعقوب يوسف حصاراً شديداً ، وكان ملك ال[illegible]ال ألفونسو هن[illegible]ى أو أنريكى قد تأهب لمقاومة هذا الحصار ، فحصن شنترين

وشحنها بالمؤن والمعدات ، وعندما يأس الخليفة من الفتح أصدر أمراً برفع الحصار عن شنترين ، والإنتقال إلى حصار مدينة أشبونة دون خطة منظمة للإنسحاب ، وقد أحدث هذا هرجاً في معسكر المسلمين ، فلما رأى البرتغاليون ذلك وشاهدوا رحيل معظم جيش الخليفة ، إنتهزوا الفرصة فهاجموا معسكر المسلمين ، وأصيب الخليفة بسهم مسموم حيث حمل جريحاً على محفة فمات بعد ليلتين من هذه المعركة في ٧ رجب سنة ٥٨٠هـ/أكتوبر ١١٨٤م وخلفه إبنه أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف ثالث الخلفاء الموحدين ، وقد بلغت دولة الموحدين ذروة قوتها في عهد هذا الخليفة ، فقد كان للدولة جيش قوى قادر على كسب المعارك ، فقد كان جيشه يضم جنداً من القبائل المغربية من المصامدة أولا ، ثم الصنهاجيين ثانيا ، وبعض الزناتيين ، ثم أضيف إلى هؤلاء حشودا من العرب الهلاليين ، وقوات أندلسية بالاضافة الى حرس الخليفة من العبيد السودانيين الذين كانوا يسمون بعبيد الدائرة لأنهم كانوا يحيطون بفسطاط الخليفة أثناء الحروب .

ومن أشد الفتن الداخلية التي واجهها أبو يوسف يعقوب المنصور فتنة بنى غانية في أفريقية وقد إنضم إليهم بعض العرب والترك ، وكان كلما ضيق الموحدون عليهم الخناق فروا إلى الصحراء ثم يعودون من جديد ، وإستمرت هذه الحرب سنوات طويلة لأن أفريقية كانت بعيدة عن الدولة الموحدية ، فضلا عن أن العرب الهلالية وجدوا أن إستمرار هذه الحرب والإشتراك فيها عمل يفتح لهم أبواب السلب والنهب . وفي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م إستطاع أبو يوسف هزيمة بنى غانية ، ومن ثم فر أميرهم على بن غانية إلى الصحراء .

أما بالنسبة للأندلس فقد تجدد خطر النصارى ، إذ أن سانشو الثاني الذى ولى حكم البرتغال بعد وفاة أبيه ألفونسو أنريكى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م قد إستولى على شلب بمساعدة الهولنديين والإنجليز سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م فأعد المنصور جيشا قويا وجاز إلى الأندلس سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م ، وإنضمت إليه أعداد كبيرة من المتطوعين

للجهاد فى سبيل الله ، فحاصر الخليفة المنصور شلب وإستولى عليها سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م وتوقفت الحرب أربع سنوات . ثم عاد الخليفة إلى الأندلس سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م وعندما علم ألفونسو الثامن ملك قشتالة بذلك إستنجد بملوك أسبانيا النصرانية فوافته قوات لبيرة ، وتقدمت قوات النصارى وعسكرت فى سهل فسيح حول حصن يسمى الأرك على ضفة نهر الوادى آنة ، وإلى الغرب من مدينة ثيوداد ريال الحالية ، وإلتحم الفريقان فى قتال عنيف ، وإنتهت المعركة بهزيمة النصارى وفر على أثر ذلك الفونسو الثامن إلى طليطلة ، وغنم المسلمون مغانم كثيرة ، وقد كان لهذا النصر أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة فقد ثبت حدود دولة الموحدين فى الأندلس على خط الوادى آنة ، وأضعف أمر النصارى بعد هذه المعركة ، وإستطاع جيش الموحدين إستعادة الكثير من الحصون فى غرب الأندلس ، وتوجه المنصور نحو طليطلة لتحريرها من النصارى وذلك سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م ، وواصلت قوات الموحدين زحفها بطول نهر تاجة حتى وصلت إلى طلبيرة أكبر قواعد طليطلة غير أنه لم يستطع دخولها ، وعندما وصل إلى طليطلة أقام على حصارها عشرة أيام إشتبك خلالها عدة مرات مع نصارى طليطلة ، وإنتسف جنده المحاصيل الزراعية وقاموا بتخريب المناطق العمرانية حولها ، ثم بادر بالعودة إلى عاصمته إشبيلية لأنه أحس بعجزه عن إفتتاحها ، كما أن فصل الشتاء قد حل ويبدو أنه كان يخشى أن يؤدى ذلك إلى قطع طرق الإمدادات خاصة وأن قواته كان ينقصها المؤن وآلات الحصار . وعاد الخليفة المنصور بعد ذلك إلى المغرب سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م وتوفى بمراكش فى شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ/ يناير ١١٩٩م وخلفه إبنه أبا محمد عبد الله الناصر وكان شابا مستبدا بالأمور ، وفى عهده تمكن الموحدون من الإستيلاء على الجزائر الشرقية سنة ٦٠٠هـ/ديسمبر ١٢٠٣م ، وولى عليها عبد الله بن طاع الله ...

كما إهتم الموحدون بالقضاء على بنوغانية فى أفريقية والمغر... ط ، ذلك أن بنوغانية إستولوا على تونس سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م وأطاعهم ... ريقية حتى طرابلس وكان إستبداد إسحق بن على بن غانية بإفريقية وتحالف... رب بنى هلال

وبنى سليم وقيامهم بشن هجمات خاطفة على أملاك دولة الناصر الموحدى ، وهى أشبه ما تكون بحرب الإستنزاف لموارد وقوة الدولة ، لذلك عزم الخليفة الموحدى على السير لمحاربة بنى غانية والقضاء عليهم ، فخرج من مراكش سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م على رأس جيش قوى ومن جهة ثانية أرسل أسطولا بقيادة أبا يحيى الهزرجى ، وأنزل الموحدون هزيمة قاسية بإبن غانية ، وإستولوا على تونس ، وقتلوا من كان بها من أنصار بنى غانية بقيادة يحيى بن اسحق الميورقى ، ثم حاصر الموحدون مدينة المهدية ، وإستطاع قائد الموحدين أبا محمد بن أبى حفص هزيمة إسحق بن على بن غانية قرب قابس فى سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م ، وأعقب ذلك دخول الموحدون المهدية ، غير أن إبن غانية حاول بعد ذلك إستعادة تونس فإمتنعت عليه فلجأ إلى إقليم طرابلس وظل يحرض بنى سليم ورياح على الموحدين ، ومن ثم أخذ حلف إبن غانية يشن الغارات على أفريقية ، وبالرغم من هزيمته فى كل مرة يحاول فيها الإستيلاء على أفريقية ، إلا أن ابن غانية ظل على عدائه للموحدين طوال عصر الناصر .

أما بلاد الأندلس فقد أخذ ألفونسو الثامن ملك قشتالة يعد العدة للإنتقام من الموحدين مستغلا إنشغال الخليفة محمد الناصر بحروبه فى أفريقية وفى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م بدأ ألفونسو يهاجم الأراضى الأندلسية بعد إنتهاء هدنة كان قد عقدها مع الخليفة الموحدى أبى يوسف المنصور وكانت نهاية الهدنة سنة ٦٠٦هـ وقبل نهايتها بقليل نقضها ألفونسو وأغار على جيان وبياسة ووصلت القوات النصرانية إلى أراضى مرسية .

وأراد الخليفة محمد الناصر أن يقوم بغزوة تضاهى غزوة أبيه المنصور ، ومن ثم فقد كتب إلى عماله على بلاد أفريقية والمغرب والقبائل العربية فى المغرب لغزو النصارى الأسبان ، فجمع جيشا ضخما وعبر به إلى بلاد الأندلس فى شهر ذى الحجة ٦٠٧هـ/يونية ١٢١٠م وإستقر فى إشبيلية ، وأخذت القوات الإسلامية والأندلسية تتوافد عليه إستعدادا لغزو النصارى الأسبان . وقد قسم الخليفة الموحدى قواته إلى

خمسة فرق : الفرقة الأولى : لزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وباقى قبائل المغـرب ، والثانية : للجند المتطوعة ، والثالثة : لجند الأندلس ، والرابعة : للموحدين ، والخامسة: للعرب .

أما قوات النصارى فقد إستطاع ألفونسو الثامن تشكيل جبهة متحدة من ملكـى نافار وأراجون . وقد لعب أسقف طليطلة رودريجوخيمنث دوراً بارزاً فى التوفيق بـين ملوك أسبانيا النصرانية الذين وعدوا بتقديم العون من جند ومال ، وتوجه إلى فرنسـا وإيطاليا داعياً إلى محاربة المسلمين ، وحثهم على حماية دينهم ، وبارك البابا أنوسـان الثالث تلك الدعوة وعدداً كبيراً من الفرسان الوافدين من إيطاليا وألمانيا والبرتغال ممـن دفعهم حماسهم الدينى إلى الإشتراك ضمن قوات ألفونسو لمحاربة المسلمين وتوجيه أشد الضربات لهم . وليس أدل على الأهمية التى كان الغرب يومئذ على هذه الحملة الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس من إشتراك معظم ممالك أوربا فى إرسال المحاربين إلى الأندلس وكون آلاف منهم كانوا يتقلدون الصليب فضلاً عن إرسال مقادير عظيمة من المـال والسلاح والمؤن إلى ملك قشتالة .

وقد بدأت قوات الخليفة محمد الناصر زحفها سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م ، فدخـل جيان ثم سار إلى ضفة الوادى الكبير اليمنى نحو بياسة ، وعسكر بعض جنده ممـرات جبل الشارات (سيرامورينا) المؤدية إلى أبدة وبياسة ، وإحتل المسلمون بخيرة جندهـم الممر الذى يفضى من أعلى الجبل إلى سهل تولوزا ويطلق النصارى على هذا السـهل إسم نافاس ، وعرفت الموقعة عندهم باسم نافاس دى تولوزا Nayas de Toloza أو موقعـة أبدة ، وفى الرواية الإسلامية بموقعة العقاب ، نسبة إلى حصن أموى قائم بالقرب مـن الفحص التى دارت فيه الموقعة .

وفى سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م زحفت قوات النصارى من طليطلة بزعامة ألفونسو الثامن وقد قسم قوات النصارى إلى ثلاثة جيوش : **الأول** : يقوده الفـارس القشـتالى

دون دييجولوبث ، **والثانى** : بقيادة الملك بدرو ويتألف من الإرجوانيين والقطلانيين ، **والثالث** : يتألف من القشتاليين والليونيين والبرتغاليين ويقوده ألفونسو الثامن ملك قشتالة .

وعلى أثر ذلك سار جيش دييجولوبث فإستولى على ملجون ، ثم تقدم صوب قلعة رباح ، وتقع على بعد ميلين من ملجون ، وهناك إجتمع هذا الجيش بجيش قشتالة وأراجون ، وضربت جيوش النصارى الحصار على القلعة فإضطر صاحبها أبو الحجاج يوسف بن قادس الأندلسى إلى تسليم القلعة بعد أن يأس من إمداد الخليفة محمد الناصر له بالمؤن والأقوات ، ورأى إستحالة المقاومة لقلة سلاحه وجنده بالمقارنة للقوات النصرانية الهائلة . وعندما وصل الناصر هذا الخبر أمر بقتل ابن قادس ومن معه من جنود حامية القلعة نزولا على نصح وزيره أبى سعيد بن جامع ، وكان لمقتل إبن قادس أثر سيء فى الجيش الإسلامى كله ، ولاسيما بين جند الأندلس فتغيروا عليه وفسدت نياتهم . أما ألفونسو الثامن فقد إستولى على حصن الأرك وتقدم بقواته إلى أن وصل إلى سهل العقاب .

وفى شهر محرم سنة ٦٠٩هـ/يونية ١٢١٢م تحرك الناصر بجيشه من إشبيلية جهة سهل العقاب لملاقاة القوات النصرانية ، وفى يوم الاثنين ١٥صفر سنة ٦٠٩هـ/١٧يولية ١٢١٢م إشتبك الفريقان فى معركة حامية ، عرفت بمعركة العقاب، وبدأت المعركة بتحرك الجناحان فى كل من الجيشين تجاه بعضهما ، وكان هجوم المتطوعه المسلمين شديدا فى البداية ولكنهم لم يستطيعوا إختراق صفوف الفوسان القشتاليين وجماعات الفرسان الدينية الذين طاردوا المتطوعة المسلمين إلى قلب الجيش الإسلامى ، ووصلت القوات النصرانية إلى فسطاط الخليفة الناصر الذى أحاطه بحرسه من المشاة والفرسان من الموحدين والعبيد ، ومد حول قبته الحمراء نصف دائرة من السلاسل الحديدية القوية لحمايته ، غير أن القوات النصرانية ضاعفوا هجومهم فإقتحموا الدائرة ، فاضطرب الجيش الموحدى ، وبدأت مذبحة كبرى للمسلمين ،

وتبدد الجيش الموحدى ، الذى بلغ قوامه ستمائة ألف مقاتل لم ينج منه سوى مائة ألف وفقا لبعض الروايات العربية ، وهو قول مبالغ فيه ، غير أنه يدل على مــــدى فداحـــة هزيمة الموحدين فى هذه المعركة التى تعتبر بداية النهاية للوجود الإسلامى فى أســـبانيا . وتوفى الخليفة الناصر بعد وصوله مراكش سنة ٦١٠هـــ/١٢١٣م ، وبوفاته ينتهى عصر القوة لدولة الموحدين .

خلف الناصر ابنه أبو يعقوب يوسف الذى تلقب بالمستنصر ، وهو ابن ١٦سـنة ، فإنصرف إلى الإنغماس فى ملذاته وتنافس أمراء البيت الموحدى للإنفراد بحكـم دولـة الموحدين ، وبدأت الحروب الأهلية والمنافسات ، وكثر الخارجون عليـــه ، وزاد مـــن حرج الموقف وخطورته موت المستنصر فجأة سنة ٦٢٠هـــ/١٢٢٣م ، وخلفه عبـــد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ، وفى عهده ثار عليه الولاة وأعلنـــوا إســـتقلالهم ، فإستقل أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بالأندلس ، بينما الخليفة الجديد منصـــرف إلى لهوه فخلع وقتل بعد أشهر من ولايته ، وبايعوا أبو عبد الله بالخلافة ، وإنتهى أمـــره بقتله سنة٦٢٤هـــ/١٢٢٦م ، وخلفه أخوه أبو العلاء الذى تلقب بالمأمون وبايعه أهـــل الأندلس ، بينما بويع أبو زكريا يحيى بن الناصر بالخلافة فى مراكش وتلقب بـــالمعتصم ، وقام صراع عنيف بين خليفة الموحدين فى المغرب وخليفة المسلمين فى الأندلـــس ، و لم ينته هذا الصراع إلا بوفاة المأمون سنة ٦٣٠هـــ/١٢٣٢م .

إستمر الصراع بين الموحدين حتى أيام الخليفة المرتضى أبا حفص بن إسحق الـــذى تولى الخلافة بعد وفاة المعتضد بن المأمون سنة ٦٤٦هـــ/١٢٤٨م والذى هزم على يـــد أمير الموحدين أبا العلاء أدريس الثانى المعروف بأبى دبوس . وإنقرضت دولة الموحديـــن بإستيلاء بنو مرين بقيادة أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق على مدينة مراكش عاصمـــة الموحدين سنة ٦٦٨هـــ/١٢٧٠م والقضاء على آخر الموحدين وقتل أبى دبوس الخليفـــة الموحدى على أسوارها .

ويجب أن نشير هنا إلى أن هزيمة العقاب كان لها أثار بعيدة فى تاريخ الأندلس ، فقد هاجم النصارى بلاد الأندلس فسقطت قرطبة وإشبيلية وجيان ومرسية والجزائر الشرقية وبلنسية وشاطبة فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس وخايمى الأول ملك أراجون .

أما بقايا المسلمين فقد تجمعوا فى الأندلس تحت قيادة محمد بن نصر بن الأحمر الذى إتخذ من مدينة غرناطة عاصمة لدولة بنى الأحمر منذ سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م فى جنوب بلاد الأندلس حتى سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م . وسقطت مملكة غرناطة أو دولة بنى الأحمر فى يد فرناندو وإيزابيلا وبذلك إنتهت دولة الإسلام فى بلاد الأندلس .

الأنـــدلـــس

فتح المسلمين الأندلس

كانت أسبانيا زمن الفتح الإسلامى لها شديدة الضعف ويرجع ذلك إلى ما كان عليه مجتمعها من وضع سيء يتسم بالوهن ، فقد كانت فيها قلة من الأثرياء يملكون مساحات شاسعة من الأراضى المعروفة بإسم " لاتيفونديا " شبه الإقطاعية ، وتقوم إلى جانبهم فئة ضخمة من البرجوازية المنهارة والعبيد ورقيق الأرض .

كان الأثرياء وأصحاب الإمتيازات هم الذين إنفردوا وحدهم دون سواهم بأن يسموا بالأمراء ، وكان هؤلاء معفون من جميع أنواع الضرائب التى تحملت عبئها الطبقة الوسطى، كما كان هؤلاء الأمراء والمتميزون يعيشون عيشة الترف فيسكنون القصور المطلة على الأنهار ، والواقعة على سفوح تلال تلاصقها أشجار الزيتون وكرمات العنب .

ومما لا شك فيه أن حياة هؤلاء الأمراء المترفة لم تؤد إلا إلى مضاعفة بؤس السواد الأعظم من أهل أسبانيا ، ومع أن العامة من أهل المدن الذين يقومون بالإضطرابات لم يكونوا شديدى الشعور بهذا الوضع إلا أن الأمراء كانوا يخشون شرهم ويطعمونهم على حساب سواهم من المواطنين . أما الطبقة الوسطى المعروفة بالكوريال أو صغار الملاك الذين يسكنون المدن فقد كانوا فى أشد الضيق من جراء الضرائب .

أما النظام الإدارى فقد أصبح وسيلة لتحقيق جميع أنواع الإبتزاز والإغتصاب ، ذلك أن قسطنطين الأول قطع المصدر الرئيسى لدخل الولايات والمدن بإستيلائه على ممتلكاتها ، وكان على سكان المدينة المالكين لعقار يزيد على خمسة وعشرين فدانا ولا ينتمون للطبقة ذات الإمتيازات أن يقوموا بسداد ما يعجز عن سداده الملتزمون ، وكثيرا ما دفع اليأس صغار الملاك إلى ترك وظائفهم وقراهم للإنخراط فى سلك الجندية أو الإسترقاق .

وأما العامة فكانت إما مزارعين أو عبيداً . أما المزارعين فقد كانوا فى حالة أحسن من العبيد وقد كان فى إستطاعتهم الزواج الذى حرم على العبيد ، فقد إستحال علـــى العبـــد الزواج إلا برضاء مولاه ، وصار فى إستطاعتهم إمتلاك الأراضى دون أن يتمكن ســـيدهم من مصادرة أملاكهم وإن حرم عليهم التصرف فيها بالبيع دون رضاه ، وكانوا فى نظـــر القانون فى مرتبة فوق مرتبة العبيد ، لكنهم كانوا يشبهون العبيـــد فى توقيـــع العقوبـــات الجسمانية عليهم ولا يحق لهم التحرر و لم يكونوا عبيداً للشخص بل للأرض .

أما طبقة العبيد فكان عددهم ضخما إذا قيس بالأحرار وكان العبيد أشـــد طبقـــات المجتمع الأسبانى بوسا ، فكانوا كالمتاع أو كالأنعام يباعون أو يتهاداهم أصحابهم . وعلـــى وجه العموم فقد كان وضع طبقة العبيد غير محتمل أيام القوط حتى أننا نـــرى فى القـــرن الثامن أن العبيد الأشتوريين قد إنقلبوا ضد سادتهم .

أما رجال الكنيسة فلم يكن يشغل تفكيرهم سوى مصلحة الكنيسة وحدها ، ومـــن ثم كان حكمهم على كل حادثة سياسية متأثرا بمقدار ما يعود على الكنيسة من فائدة أو ضرر وكان الأساقفة ملاك أراضى واسعة وقصور حافلة بالعبيد ، فقد رأوا أنه لم يحن بعد زمـــن تحرير العبيد . وإذا كان الأساقفة تقاعدوا عن عمل شيء ما للعبيد فإنهم لم يودوا أية خدمة للطبقة الوسطى الذين ظلوا مرتبطين بالأرض .

أما اليهود فقد بدأ إضطهادهم سنة ٦١٦ م زمن سيسبوت فصدر الأمر بتنصير اليهود فى مدة عام واحد ، فإذا إنتهت المدة وبقى أحدهم على ملته جلد مائـــة جلـــدة ونفـــى وصودرت أملاكه ، ويقال أن هناك أكثر من تسعين ألف يهودى تنصروا بدافع الخـــوف ولكنهم كانوا أقلية إذا قورنوا بمن ظل على نحلتهم .

ومما لا شك فيه أن حالة أسبانيا قبيل الفتح الإسلامى لها كانت سيئة فى عهد القـوط ، وقد بلغت أسبانيا غاية قصوى من الضعف حتى أصبح من اليسير فى ظل هـــذا الإنحـــلال

والضعف الأسبانى الإستيلاء على أسبانيا فى طرفة عين بجيش قليل العدد قوامه إثنى عشر ألف رجل تساعده الخيانة .

كانت خطة الدولة الأموية فى بلاد المغرب قائمة على إسترداد ممتلكات أفريقية القديمة فى البحر المتوسط ، ونشر الإسلام فى أوربا ، وتأمين الوجود الإسلامى فى بلاد المغرب من غارات البيزنطيين . وقد سبق أن ذكرنا أن الخليفة الوليد بن عبد الملك قد ولى موسى بن نصير ولاية أفريقية سنة ٨٦هـ/٧٠٥م ، وقد نجح موسى فى إفتتاح المغرب كله عدا مدينة سبتة . ومما لا شك فيه أن موسى بن نصير بعد أن دانت له المغرب أرسل ابنه عبد الله على رأس حملة بحرية إلى سردانية وصقلية حيث غنم المسلمون من البيزنطيين مغانم كثيرة .

وكان من الطبيعى أن يوسع موسى بن نصير نشاطه فى الغزو والفتح خاصة فى بلاد الأندلس بعد إستشارة الخليفة الوليد بن عبد الملك الذى أمره بأن يخوضها بالسرايا حتى يختبرها ، وألا يغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال . ولا شك أن فتح الأندلس يعتبر تتويجا لجهاد موسى بن نصير والدولة الأموية بعد فتح المغرب .

والمراد بلفظ الأندلس أسبانيا الإسلامية بصفة عامة ، وأطلق هذا اللفظ فى بادىء الأمر على شبه الجزيرة الأيبيرية كلها لأن المسلمون فتحوا الأندلس كله حتى جبال ألبرت ثم أخذ سلطانهم يتقلص شيئا فشيئا فى شبه الجزيرة الأيبيرية مع تزايد الضغط النصرانى عليهم من جهة الشمال ، بإقتطاع بلاد الأندلس حتى إقتصرت أملاك المسلمين فى النهاية على مملكة غرناطة . ولكن لفظ الأندلس ظل يطلق على ما بيد المسلمين من شبه الجزيرة وإن قل مدلوله الجغرافى حتى سقطت مدينة غرناطة فى يد فرناندو وإيزابلا ملكا قشتالة وليون سنة ٨٩٧هـ بعد أن إستمر سلطان المسلمين فى شبه الجزيرة الأيبيرية ما بين مد وجزر ثمانية قرون كانت فيها الأندلس مركزا حضاريا إسلاميا نهل منه الأوربيون من شتى فروع العلم والمعرفة ، وكانت الأندلس بحضارتها أساس تقدم الأوربيين إثر ذلك .

ولفظ الأندلس معرب إشتقها العرب من كلمة الوندال الذين يسمون فى اللغات الأوربية " الفاندال أو الفاندالوس " وهى إسم قبائل الوندال الذين إجتاحوا أوربا فى القرن الخامس الميلادى وإستقرت فى المناطق الجنوبية من شبه جزيرة أيبيريا ، وسميت هذه المناطق باسم أندالوسيا ، ولما فتح المسلمون أسبانيا عربوا هذا الإسم إلى الأندلس .

وشبه جزيرة أيبيريا تشمل اليوم أسبانيا والبرتغال ، وتقع فى الجزء الجنوبى الغربى للقارة الأوربية ، وتفصلها جبال البرانس عن فرنسا التى تتخللها ممرات ومضايق تصل بين البلدين تسمى بالأبواب ، ومن هنا جاء لفظ إسمها فى العربية وهى جبال إلبيرت ومعناه الأبواب . وتحيط بشبه الجزيرة مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسى أو بحر الظلمات كما سماه بعض الجغرافيين العرب ، من الشرق والغرب ، ويفصلها من الجنوب عن قارة أفريقيا مضيق جبل طارق ، ويبلغ عرضه من الشرق إلى الغرب حوالى ١٥ كيلو متر وطوله ٨٠ كيلو متر ، وكان المسلمون يسمونه بحر الزقاق أو المجاز .

وشبه الجزيرة عبارة عن هضبة متوسطة الإرتفاع ، ويوجد بها بعض الجبال التى يصل إرتفاعها إلى ألف وستمائة متر ، وتشق هذه الجبال المستعرضة شبه الجزيرة ، وبين كل سلسلة من الجبال يوجد وادى يجرى فيه نهر مستعرض ، ومعظم هذه الأنهار يصب فى المحيط الأطلسى ، وتنبع معظمها من وسط شبه الجزيرة .

أما الأنهار الكبيرة فتوجد فى النصف الشمالى ، وتلك الأنهار من الشمال إلى الجنوب من ناحية الغرب هى المنيو ثم الدويرو ثم نهر تاجة ثم نهر الوادى آنة ثم نهر الوادى الكبير وعليه تقع مدينتى قرطبة واشبيلية ، ويتفرع منه نهر شنيل ، وتقع غرناطة على أحد فروع هذا النهر . أما أنهار الغرب فأهمها نهر أبرو وتقع عليه برشلونة .

ومناخ شبه الجزيرة يختلف من جهة إلى أخرى ، فيسود جهاتها الشمالية مناخ غرب أوربا ، أما جهاتها الجنوبية فيسودها مناخ البحر المتوسط . وقد إستغل المسلمون الطبيعة الجبلية فى تكوين شبكة دفاعية قوية ضد أى هجوم يقع عليها من جانب النصارى الإسبان .

وقامت على هذه الوديان مدن هامة كانت بمثابة قواعد عسكرية مثل سرقسطة على وادى أبرو وطليطلة على نهر تاجة وبطليوس على نهر وادى يانة وقرطبة وإشبيلية على نهر الوادى الكبير ، وفى جهة الشرق مرسية على نهر شقورة ، وبلنسية على نهر بلنسية والذى يسمى أيضا بالوادى الأبيض .

كانت أسبانيا زمن الفتح العربى لبلاد المغرب خاضعة لحكم القوط الغربيون الذين إتخذوا طليطلة عاصمة لهم . وقبيل الفتح الإسلامى لأسبانيا بنحو عشرون سنة كان يحكمها ملك يسمى ومبا ، و ثار عليه رودريك أو لذريق حاكم قرطبة وإنتزع الملك منه . وفى عهده اضطهد اليهود ويقال أن اليهود ظلوا أكثر من ثمانين عاماً يتجرعون غصص آلام الإضطهاد بتنصيرهم بالقوة وجلد من بقى على ملته مائة جلدة ونفيه ومصادرة أملاكه ، ولكن على الرغم من ذلك فقد بقى اليهود فى أسبانيا ، حتى إذا عيل صبرهم أزمعوا على الثأر من مضطهديهم ، فلما وافت سنة ٧٥هـ/٦٩٤م أى قبل الفتح الإسلامى لأسبانيا بسبع عشرة سنة حتى أضرموا ثورة شاملة مع إخوانهم اليهود الذين يسكنون فى العدوة المغربية حيث كانت تلك المنطقة ملجأً لليهود المنفيين من أسبانيا ، غير أن ملك أسبانيا علم بالمؤامرة قبل موعد تنفيذها ، وكانت تتلخص فى إنتقال يهود العدوة إلى أسبانيا وتهويدها ، ومن ثم زاد السخط على اليهود وحرموا من حريتهم وجعلهم الملك عبيداً للنصارى ، وفرض على السادة ألا يسمحوا لعبيدهم بممارسة شعائر الدين القديم ثم ينشئوهم على النصرانية ، فلا يستطيع العبد اليهودى أن يتزوج إلا من أمة نصرانية ، ولا تتزوج الجارية اليهودية إلا عبداً مسيحياً . ومن ثم كان اليهود يتطلعون فى لهفة إلى من يخلصهم من هذا التعسف ، وإلى لحظة خلاصهم .

وتفنن رجال الدين المسيحى فى جمع الأموال ، وأصبح الأساقفة ملاك لضياع واسعة ، وقصور حافلة بالعبيد ، وكانت العائلة المسترقة تؤدى لمولاها خدمة معينة يتوارثها الأبناء عن الأباء كزراعة الأرض ، أو الصيد ، ورعى الأغنام ، وأحياناً التجارة وهكذا ، ويستحيل على العبد أو القن أن يتزوج دون رضاء مولاه ، ويبطل زواجه إن تم بغير الحصول على موافقة سيده ، ويحال بينه وبين زوجته بالقوة ، وإذا إقترن عبد بإمرأة فى خدمة سيد آخر تقاسم السيدان بالتساوى الأولاد الناتجين عن هذا الزواج ، وعلى وجه العموم فإن وضع العبيد لم يكن محتملاً أيضاً قبيل الفتح الإسلامى . أما الطبقة الوسطى فقد كانوا مرتبطين بالأرض ، و لم يكن من حقهم بيع أملاكهم ، كما ساد الإضطهاد جميع عناصر الشعب من رجال القصر والنبلاء ، وعاملوا المزارعين معاملة العبيد ، وفرضوا الضرائب الباهظة على التجار والصناع ، فتغيرت قلوب الناس على ملك أسبانيا ، وأصبحوا أعداء ألداء لهذا المجتمع المتصدع الذى كانت عوامل الضعف تنخر فيه من كل النواحى ، مع ضعف أصحاب السلطة وعدم قدرتهم على دفع الخطر الخارجى ، ومن ثم فكروا فى القيام ضد حكم لذريق ووجدوا أن خير مايعينهم على ذلك هو الإستعانة بالمسلمين .

ويبدو أن أحد أبناء ومبا ويسمى " وقلة " قد فر إلى المغرب وأقام عند يوليان وكان لايزال على ولائه للملك ومبا وأبنائه ، ومما لا شك فيه أن لذريق قد أمعن فى قمع ثورات أهل أسبانيا فى طليطلة وغيرها ، وفى مطاردة أنصار ومبا - *غيطشة* - خاصة أبنائه ، ففر بعضهم من أسبانيا إلى سبتة ولاذوا بحماية يوليان الذى تولى الوساطة بين الساخطين على لذريق وطارق ابن زياد حاكم طنجة ، ودعوة المسلمين إلى فتح أسبانيا أملاً فى إسترداد الملك لأميرهم وقلة ، يؤيد ذلك ماذكره ابن عذارى إذ يقول : " أن طارقاً كان والياً لموسى على طنجة ، وكان يوماً جالساً ، إذ نظر إلى مركب قد طلعت فى البحر ، فلما أرست ، خرجوا إليها ، فنزعوا أرجلها ، وأنزلوا أهلها ، فقالوا: " إليكم جئنا عامدين ! " وعظيمهم معهم يقال له يليان . فقال طارق :"ما جاء بك ؟" فقال له : " إن أبى مات .

ويروى أن العلاقة كانت سيئة بين لذريق ويوليان ، ويرجع سبب ذلك أن يوليان كانت له إبنة جميلة فى بلاط طليطلة عاصمة أسبانيا فى تلك الفترة ، " فوقعت عين لذريق عليها ، فإستحسنها فنالها ، فأعلمت أباها بذلك." فغضب لذلك يوليان أشد الغضب ، وأضمر الإنتقام من لذريق ، ورأى ألا عقوبة له إلا إذا أدخل عليه العرب " فبعث إلى طارق إلى مدخلك الأندلس ، وطارق يومئذ بتلمسان ، وموسى بن نصير بالقيروان ، فقال طارق : " فإنى لا أطمئن إليك ، حتى تبعث إلى برهينة " فبعث إليه بإبنتيه ، و لم يكن له ولد غيرهما " .

ويرى بعض المؤرخين أن يوليان قد إستدعى العرب لفتح أسبانيا للتخلص من لذريق نظير الغنائم التى قد يحصلون عليها ثم الإنسحاب بعد ذلك من أسبانيا . لكن هذا لم يكن غاية المسلمين ، ولكن الهدف الأساسى كان الفتح الحقيقى لأسبانيا لمد حدود الإسلام غرباً وإدخال الأسبان فى الإسلام ، وهذا لاينفى أن موسى بن نصير كان يهدف إلى تقوية مركزه الشخصى فى الدولة الأموية بالعمل المتواصل وإرسال الأموال والمغانم للخليفة الأموى . ومن الملاحظ أن المسلمين لم يتحولوا إلى جنود مرتزقة يعملون لحساب حاكم من الحكام أو دولة من الدول .

على أى حال فقد أقبلت الوفود على طارق بن زياد تدعوه إلى فتح أسبانيا ، وبعد مراسلات ومشورات وإستئذان من الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك فى غزو الأندلس فأذن له ، آمراً إياه أن يغزو أسبانيا بالسرايا ، وحذره من أن يعرض جيشاً كبيراً للخطر فيما وراء البحر . فقام موسى بن نصير بإستدعاء يوليان حاكم سبتة وكلفه بالقيام بغارة على أسبانيا حتى يضمن أنه أصبح عدواً للذريق ، فإنصرف يوليان وحشد جيوشه ، وجاز فى مركبين إلى أسبانيا ، وهاجم الساحل الجنوبى ، فنهب وقتل وسبا ، ثم عاد ، وتعهد بنقل جند المسلمين إلى الأندلس فى سفنه .

وحينذاك ندب موسى قائدا من قواده وإسمه طريف بن مالك ويكنى بأبى زرعة إلى أسبانيا فى سنة ٩١هـ/٧١٠م على رأس قوة مؤلفة من خمسمائة مقاتل منهم أربعمائة من المشاة ومائة فارس ، وعبرت هذه الحملة مضيق جبل طارق فى أربع سفن أمده بها يوليان ، ونزل طريف بجنده فى جزيرة تعرف بإسم لاس بالوماس تقع على مقربة من مدينة طريف الحالية التى سميت بإسمه وذلك فى رمضان سنة ٩١هـ/ يوليو ٧١٠م ، وإتخذها قاعدة لأعماله العسكرية على الساحل الجنوبى للأندلس ، ثم عاد بغنائم وافرة إلى أفريقية دون أن يلقى مقاومة فأنس موسى إلى يوليان الذى ساهم بدور كبير فى نجاح هذه الحملة وذلك بتقديمه السفن والمعلومات اللازمة لعبور المسلمين إلى الأندلس.

شجعت هذه الحملة موسى بن نصير على إعداد جيش كبير لفتح الأندلس فجهز جيشاً من العرب والبربر يتألف من سبعة آلاف مقاتل من البربر بإستثناء ثلاثمائة من العرب، وأسند الراية لطارق بن زياد حاكم طنجة .

إجتاز طارق بحر الزقاق - مضيق جبل طارق - على السفن الأربعة المملوكة ليوليان وبعض قطع الأسطول الإسلامى ، وكان ذلك يوم ٥ رجب سنة ٩٢هـ/ أبريل ٧١١م من ميناء طنجة فى الشاطىء الأفريقى إلى جبل على الشاطىء الأسبانى كان الأقدمون يدعونه " أعمدة هرقل " وباسمه سمى المضيق . ومن يومها أطلق على الجبل جبل طارق وعلى المضيق " مضيق جبل طارق " ولزمه ذلك حتى اليوم فهو يدعى فى جميع اللغات "Gibraltar" . وهناك أنشأ قاعدة وحصناً ومرسى يصل بينه وبين سبتة ثم بعث فرقة من جيشه سارت حذاء الساحل الشمالى ، فإستولت على قرية تعرف بقرطاجنة الجزيرة جنوب خليج جبل طارق ثم زحف طارق غرباً وعسكر فى المنطقة المحيطة بقرطاجنة فى موضع يقابل الجزيرة الخضراء . أنشأت عليها بعد ذلك مدينة إسلامية لازالت ظاهرة إلى اليوم تحمل إسم الجزيرة الخضراء ، ثم سار إلى الجنوب وعبر نهراً صغيراً يصب فى المحيط الأطلسى يسمى وادى لكة ، يصب فى بحيرة سماها العرب الخندق . ثم عسكر فى منطقة

سهلية تكثر فيها المدن مثل مدينة قادش على البحر ومدينة شريش إلى جوارها فى الداخل وفى الشمال مدينة شذونة .

وفى ذلك الوقت كان لزريق ملك القوط يحارب قبائل البشكنس فى بنبلونه فلما علم بنبأ الغزو الإسلامى ، عاد مسرعا إلى طليطلة ومنها زحف فى جموع كثيفة لملاقاة المسلمين ووصل إلى شذونة ، فلما علم طارق بذلك كتب إلى موسى بن نصير يطلب المساعدة فأرسل إليه موسى خمسة آلاف جندى فصار مجموع المسلمين إثنى عشر ألفا .

ولقد أجمع معظم المؤرخين على أن المعركة الفاصلة بين طارق ولذريق حدثت فى كورة شذونة فى جنوب غرب الأندلس فى مكان يدعى وادى لكة يوم ٢٨رمضان ٩٢هـ/١٩يوليو ٧١١م بين قوتين غير متعادلتين ، فقد حشد لذريق ما يستطيع حشده من مال ورجال وسلاح مما أزعج طارق بن زياد ومن ثم سارع فى طلب المزيد من القوات الإسلامية ، وحسمت المعركة بنصر ساحق للمسلمين بعد قتال إستمر من يوم الأحد ٢٨ رمضان إلى الأحد ٥ شوال ٩٢هـ ، وإستشهد فى هذه المعركة من المسلمين ثلاثة آلاف قتيل . وتختلف الروايات فى مصير لذريق حيث لم يعرف له موضع ولا وجدت له جثة وانما " وجد له خف مفضض " فقالوا أنه فر إلى الشمال وإلتقى مع العرب فى معركة ثانية قرب سلمنقة ، ويذهب البعض إلى أنه فر إلى الشرق حتى أدركه المسلمون عند بلدة لورقة فقتلوه ، والظاهر أن لذريق كان بين القتلى إذ كان هذا آخر العهد به ، وبقيت أسبانيا بلا ملك يسوسها ، وطويت صفحة القوط بعد هذه المعركة حيث لم تقم لهم قائمة بعدها .

وأحدث إنتصار طارق فى معركة شذونة دويا هائلا فى المغرب والمشرق ، ويذكر الرازى أن أهل عدوة المغرب عندما سمعوا بفتح الأندلس وسعة المغانم فيها " أقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ماقدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق " ثم حاصر طارق إستجة وإستولى عليها ، ويقول بعض المؤرخين أن رجال لذريق قد فروا إلى طليطلة وتحصنوا بالمدائن ، وأن يوليان أقبل إلى طارق بن زياد فقال له :" قد فرغت

بالأندلس وهؤلاء أدلاء من أصحابي فرق معهم جيوشك وخذ أنت طليطلة ، ففرق جيوشه من أستجة " فبعث طارق أحد قواده يسمى مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة وكانت وقتئذ من أعظم مدائنهم وتقع على الضفة الغربية لنهر الوادى الكبير ، فإستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، وأسر حاكمها. وأرسل جيشا آخر إلى ألبيرة فإستولى عليها ، وضموا اليهود إلى مدينة غرناطة قصبة ألبيرة مع بعض جند المسلمين ، وذلك لأن اليهود المقيمين فى أسبانيا قد عاونوا طارق وقواده فى فتح الأندلس ، " وصار ذلك لهم سنة متبعة فى كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضى معظم الناس لغيرها ، وإذا لم يجدوا يهودا وفروا عدد المسلمين الخلفين لحفظ ما فتح " . ويرجع إعتماد طارق على اليهود نتيجة لإضطهاد القوط لهم حسبما سبق ذكره .

وإستمر طارق فى زحفه نحو الشمال حتى طليطلة عاصمة لذريق والقوط ، فوجدها خالية ليس فيها إلا اليهود فى قوم قلة ، فألقت له عن يد ، وقد فر منها الأسقف "سندريد" والقساوسة يحملون مذبح كنيستها ، وتتبعهم طارق بعد أن ضم اليهود وأبقى معهم بعض رجاله بطليطلة ، فسلك طريق وادى الحجارة ، وعند بلدة تسمى " الكالا دى هنارس " ويسميها العرب " قلعة عبد السلام " وتسمى بمدينة المائدة ، أدرك طارق الفارين من طليطلة ، ففتح المدينة ، وإستولى منهم على المذبح وذخائر كثيرة ، وقيل لهم المائدة سليمان ، وأخذت تشيع – منذ فتح طليطلة – أسطورة شعبية ، مؤداها أنه كان بها بيت مطلسم عليه أقفال كثيرة أمر بفتحه لذريق ، فوجده فارغا إلا من تابوت مغلق وجد فيه لفائف مدرجة رسمت فيها صور فرسان محكمة التصوير على أشكال العرب ، وهم معممون ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وهم متقلدون السيوف المحلاة ، والرماح ، وفى أسفلها كتابات بالعجمية " إذا فتح هذا البيت وأخرجت هذه الصور دخل الأندلس قوم فى صورهم فغلبوا عليها " . ولاشك أنها أسطورة ولاأساس لها من الصحة . على أى حال كان فصل الشتاء قد إقترب ، وتعب المسلمون من الجهد الذى بذلوه خلال جهادهم فى بلاد الأندلس ، فخشى طارق أن يقطع عليه القوط الطريق فى هذه البلاد الجبلية خاصة وقد

ثقل جنده بالغنائم فعاد إلى طليطلة ومنها أرسل إلى موسى بن نصير يبلغه بما أدى فى سبيل الله من جهاد وفتوح عظيمة .

أما أبناء غيطشة الملك السابق لأسبانيا ، فقد كان العرب أوفياء معهم لأنهم عاونوا المسلمين فى معركة شذونة وساعدوهم فى تحقيق النصر ، ويروى المقرى أن الخليفة الوليد ابن عبد الملك قد عقد لكل واحد منهم سجلاً لأملاكه وضياعه ، وحوزتهم ضياع أبيهم "فصار منها لكبيرهم ألمند ألف ضيعة فى غرب الأندلس ، فسكن من أجلها إشبيلية مقترباً منها ، وصار لأرطباش ألف ضيعة ، وهو يتلوه فى السن ، وضياعه فى موسطة الأندلس ، فسكن من أجلها قرطبة ، وصار لثالثهم وقلة ألف ضيعة فى شرق الأندلس وجهة الثغر ، فسكن من أجلها مدينة طليطلة" .

وعندما وصل موسى بن نصير أنباء إنتصارات طارق بن زياد فى الأندلس قرر أن يسير إليه فى قوة كبيرة ليشد بها أزره ويثبت فتحه ، وتروى بعض المصادر أن موسى ابن نصير أصدر أوامره إلى طارق يأمره بالتوقف عن الفتح ، وأنه أصدر هذا الأمر حسداً منه وغيرة لأن طارق نال شرف هذا الفتح ، وأنه لما عبر موسى إلى الأندلس فى شهر رمضان سنة ٩٣هـ/ يونيو ٧١٢م فى قوة تقدر بثمانية عشر ألف مقاتل معظمهم من العرب بعصبيالهم القيسية واليمنية ومن بينهم عدد من التابعين وقد عرفت هذه الجماعة العربيه الأولى بطالعة موسى ، فلما نزل الجزيرة الخضراء ، قيل له أسلك طريق طارق ، قال : " ماكنت لأسلك طريقه ، قال له الأدلاء : نحن ندلك على الطريق هى أشرف من طريقه ومدائن هى أعظم من مدائنه ، لم تفتح بعد يفتحها الله عليك إن شاء الله فامتلأ بذلك سروراً ، فكأن فعل طارق قد غمه " .

وهذا الرأى غير صحيح ، فطارق مولى موسى ويعمل تحت قيادته ، وماينسب إليه من نصر فموسى بن نصير هو صاحب خطة فتح الأندلس ، وكانت له دراية كبيرة فى قيادة جيوش المسلمين وتحقيق الإنتصارات الباهرة فى بلاد المغرب ، ومن ثم فان مجريات

الأحداث تشير كما سيتضح بعد ذلك أن موسى سار فى طريق آخر لفتح أقاليم أندلسية لم يفتحها طارق ، وأن حملته على الأندلس كانت تعضيداً لقوات طارق ابن زياد ولخدمة الإسلام ، خصوصاً وأن طارق قد طلب منه مدداً جديداً .

بدأ موسى بالإستيلاء على شذونة ثم قرمونة وتقع شرقى إشبيلية ، وهى من أحصن مدن الأندلس ، ثم توجه بعد ذلك إلى إشبيلية وهى من أعظم الأندلس شأناً وأعجبها بنياناً وآثاراً وكانت دار الملك قبل سيطرة القوط على أسبانيا ، فلما استولوا عليها إتخذوا طليطلة عاصمة لدولتهم ، فحاصر موسى إشبيلية عدة أشهر حتى فتحها وهرب حاكمها إلى مدينة باجة ثم فتح مدينة ماردة بعد قتال عنيف إستمر عدة أشهر ، وتم الفتح صلحاً فى أول شوال سنة ٩٤هـ/ ٣٠ يونية ٧١٣م ويقال أن أهلها صالحوه على أن جميع أموال قتلاهم وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها له .

زحف موسى بعد ذلك إلى طليطلة ومضى طارق لمقابلته مظهراً له آيات الود والولاء، ويقال أن موسى وبخه وعنفه ، وطالبه بأداء ماعنده من مال وذخائر الملول وإستعجله بالمائدة فأتاه بها وقد خلع من أرجلها رجلاً وخبأه ، فسأله موسى عنها فقال له: " إننى لا علم لى كذلك أصبتها فأمر بالرجل فعمل لها من ذهب " . ولكن هذا غير صحيح، وقد يكون القائدان قد تعاتبا ولكنهما إشتركا سوياً فى مواصلة الفتوح ، وفى أثناء إقامة موسى فى طليطلة جاءه نبأ بإنتفاضة إشبيلية ، فأرسل إليها إبنه عبد العزيز فأخمد الإنتفاضة ، وإستولى على لبلة وباجة وأكشونبة وتقع فى جنوب غرب الأندلس .

ثم تابع القائدان موسى وطارق سيرهما فإتجها إلى الشمال فى المنطقة التى عرفت بالثغر الأعلى ، وإفتتح مدينة سرقسطة مفتاح منطقة وادى أبرو ، ثم وشقة ولاردة ، حتى بلغا شاطىء البحر الشمالى عند حدود فرنسا الجنوبية .

وهكذا إنتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتهما ، وكانت أوامر الخليفة الوليد ابن عبد الملك قد قضت برجوعهما إلى دمشق . فرأى موسى أن يلبى مع طارق دعوة الخليفة بوفودهما عليه ، وأناب عنه فى حكم الأندلس إبنه عبد العزيز بن موسى فى أواخر سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م .

وكان موسى وطارق قد استوليا على معظم شبه جزيرة أيبيريا ، ولم يبق منها إلا بعض الأطراف الشمالية الغربية وهو أقليم أشتوريش فى منطقة جليقية ، والأطراف الشرقية وبعض المناطق الغربية ، فأخضع عبد العزيز بن موسى معظمها فى ولايته القصيرة قبل مقتله (٩٥-٩٧هـ) وكان قد إتخذ من إشبيلية عاصمة له ، وإتجه منها إلى الغرب فإستولى على باجة ويابرة وشنترين وقلمرية ، وبذلك إستكمل فتح غرب أسبانيا ، ثم إتجه جهة الجنوب الشرقى ، فإستولى على مالقة ، وتركزت المقاومة فى كورة تدمير – وهى الإسم القديم لمرسية التى أختطت أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦هـ/٨٣١م – وكانت أوريوله عاصمة هذه الكورة وكان يحكمها قائد قوطى تسميه المصادر العربية تدمير ، فإمتنع فى مدينته وصمد لحصار المسلمين ، حتى إذا لم يبق فى قوس صبره منزع لجأ إلى حيلة، هى نشر نساء مدينته لشعورهن ووقوفهن على سور المدينة وبأيديهن القضبان إيهاماً للمسلمين بأنه لا يزال فى المدينة عدد ضخم من الرجال المتهيئين للقتال ، وخرج هو وطلب لقاء عبد العزيز ، فإستأمنه ، فأمنه ، وعقد له الصلح ولأهل بلده على شروط حسنة ضمنت له إستقلاله بولايته فى مقابل جزية سنوية . ويبدو أن هذه الحيلة تعد بدورها من أساطير فتح الأندلس التى كانت تتداول فى الأندلس .

أما الجزء الشمالى الغربى الذى يسمى أشتوريش فإن المسلمين لم يفرضوا سلطانهم تماما على هذة المناطق لشدة بردها ووعورة جبالها ، فأهملوا جانبها إستهانة بشأنها ، وإستطاع القائد القوطى المنهزم بلاى أن يعتصم بالجبال الشمالية فى هذه المنطقة والتى يسميها الأسبان بقمم أوربا وهى عبارة عن ثلاثة جبال الغربية منها تسمى أونجا ويسميها العرب صخرة بلاى لأنه أختبأ فيها هو ورجاله ، على أى حال فإن هذه المنطقة كانت

نواة للدولة المسيحية التي مازالت تقوى حتى طردت العرب من الأندلس وهي مملكة قشتالة.

نتائج الفتح الاسلامي للأندلس

مما لاشك فيه أن من أبرز نتائج فتح الأندلس سقوط دولة القوط الغربيين ، وأصبحت الأندلس إحدى ولايات الدولة الإسلامية ، وإنتشار الإسلام واللغة العربية في الأندلس وإنتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا في العصور الوسطى .

تمتع اليهود والنصارى بالتسامح الديني للعهود عند المسلمين ، ويذكر المستشرق الهولندي رينهرت دوزي " أن الإحتلال العربي كان أخف كثيرا من وطأة الإحتلال القوطي ، إذ أبقى الفاتحون للمغلوبين قوانينهم وقضاتهم ، ورأسوا عليهم قوامس أوحكاما من نفس جنسهم وكلوا إليهم جمع الضرائب الواجب دفعها ، وعهدوا إليهم بفض المنازعات التي قد تنشب فيما بينهم " . ولم يأخذ العرب منهم إلا الجزية السنوية وقدرها ثمانية وأربعون درهما عن الغني ، وأربعة وعشرون عن المتوسط ، وإثنا عشر درهما عن العامل . وكانت الجزية تدفع على أقسط كل قسط منها في نهاية كل شهر قمري ، ولا يدفع الجزية النساء والأطفال والرهبان والمرضى والفقراء ، أما الخراج فقد كان مفروضا على الملاك وهو ضريبة تجبى عن المحصول وتحدد طبقا لطبيعة الأرض الزراعية ، وكان متوسطها في العادة حوالي عشرين في المائة . ومن الجدير بالملاحظة أن المسيحيين إحتفظوا بمعظم أملاكهم ، وأصبح لهم الحق في التصرف فيها بالبيع وهو حق كان محرما عليهم زمن القوط .

أما الأراضي التي فتحت عنوة كأملاك الكنيسة وأراضي الأشراف الهاربين فقد تقاسمها المسلمون ، وتركوا زراعتها لمن بقي بها من العبيد في مقابل أن يسلموا للمالكين أربعة أخماس المحصول أو الغلة ، أما المزارعين الذين إستقروا في أراضي الدولة ، فلا يقدمون

سوى ثلث المحصول ، وقد إستفاد بعض المسيحيين الذين صـالحوا المسـلمين بمعـاهدات فإحتفظوا بكل ما يملكون مثل أهل ماردة ، وأهل تدمير ولورقة .

وكان التسامح الدينى هو الغالب فى ظل الحكم الإسلامى فلم يضيق المسلمون الخنـاق على أهل الذمة ، فلم يدفعوا المسيحيين إلى الدخول فى الإسلام ، ويبـدو أن القسيسـين أنفسهم وكذلك النصارى كانوا راضين عن الحكومة الإسـلامية فى الأندلـس ، فـأثروا حكمها على حكم القوط ، فإنعدمت الثورات تقريبا طوال القرن الثانى الهجرى/ الثـامن الميلادى .

كذلك عمل الفتح الإسلامى على تحسين الحالة الإجتماعية للطبقات الدنيـا فقـد حرر كثير من العبيد خاصة بعد بضع سنيين من شراء العبيد ولاسيما إذا إعتنق الإسـلام، كما تحسنت حال رقيق الأرض فأصبحوا زراعا وصار لهم مطلق الحرية فى زراعة المحـاصيل التى يرونها مناسبة . أما الشرائح الأخرى من النصارى فقد يسر لها الفتح سـبيل التحـرر وذلك بالهروب إلى أرض المسلم اذا أرادوا والنطق بالشهادة " أشهد ألا إلـه إلا الله ، وأن محمد رسول الله " .

وبدخول الأندلس فى حوزة المسلمين كان المجتمع الأندلسى يتكون من البربر والعـرب الذين جائوا مع جيش الفتح أو هاجروا إلى الأندلس وإستقروا فيها ، والأسـبان سـكان البلاد الأصليين ومنهم من أسلم وصار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وبعضـهم ظـل على نصرانيته يعامل معاملة الذمى ، وعاش اليهود فى كنف الدولة الإسـلامية الأندلسـية يأمنون على أنفسهم وأموالهم ودينهم ، وطبقة المولدين التى نشأت نتيجة تـزاوج بعـض العرب بالأسبان .

كما إهتم المسلمون بإصلاح الأراضى الزراعية وبناء القناطر وشق الترع ومن ثم صارت الأندلس بعد فترة من الزمان من أكثر الأقاليم إزدهاراً وساعد هذا على التقدم الحضارى وغدت الأندلس من أهم المراكز الحضارية الإسلامية .

واهتم المسلمون بالتقسيم الإدارى للأندلس ، فقسموها إلى أربع مقاطعات لكل مقاطعة حاكم يخضع لحاكم الأندلس ، وعندما إمتدت الفتوحات فى الشمال أنشئت مقاطعة خامسة فيما وراء البرانس ، وكانت المقاطعة الأولى تشمل جنوب الأندلس حتى نهر الوادى الكبير ، وأهم مدنه إشبيلية وقرطبة ، والمقاطعة الثانية تشمل وسط الأندلس وأهم مدنه طليطلة ، والمقاطعة الثالثة تشمل منطقة جليقية وأهم مدنها ماردة ، والرابعة تمتد من شاطئ نهر الدويرو إلى جبال البرانس ، وأشهر مدنها سرقسطة ، والخامسة خلف جبال البرانس وأهم مدنها لاربونة .

عصر الولاة
(٩٧-١٣٨هـ/٧١٦-٧٥٦م)

كانت فترة الولاة مضطربة تفتقر إلى الإستقرار نتيجة لعدة عوامل ، منها كثرة العناصر التى تكون منها الشعب فى الأندلس ، إذ كان منه أسبان مختلفو الجنسيات ، ويهود، وبربر وهم ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين : البتر والبرانس ، كما حل به العرب وهم ينقسمون بدورهم إلى عدنانية أو مضرية ويمنية أو قحطانية ، وكانت بينهما خصومات قديمة أشعلتها فى العصر الأموى حروب قيس المضرية وكلب اليمنة فى موقعة مرج راهط واستعادت القبائل العربية فى الأندلس هذه الخصومات ، وكان البربر البتر يأخذون صف العدنانية والقيسية ، بينما البرانس كانوا يأخذون صف القحطانية وكلب واليمنية ، وكان الوالى على الأندلس إذا كان يمنيا أو كلبيا تعصب لقومه فى الغالب ، وبالتالى إذا كان عدنانيا أو قيسيا ، مما زاد من الإضطرابات فى بلاد الأندلس ، وعامل ثان

ساعد فى كثرة الإضطرابات هو كثرة تعيين الولاة فى الأندلس حتى بلغوا نحو إثنين وعشرين والياً فى أربعين عاماً ، ومعنى ذلك أن متوسط مدة والى الأندلس كان أقل من عامين ، ومن ثم لم يكن الوالى يشعر بالإستقرار . والعامل الثالث هو بعد الأندلس عن السلطة المركزية فى دمشق ، فكان الخلفاء الأمويون لايعرفون شئون الأندلس معرفة واضحة ، خاصة وأن الدولة الأموية كانت تعانى من الإضطرابات ، التى إنتهت بسقوطها وقيام الخلافة العباسية فى بغداد ، مما جعل الخلفاء الأمويون يسندون تعيين ولاة الأندلس إلى ولاتهم على بلاد المغرب ، وكان أهل الأندلس يأنفون من هذه التبعية ويعتبرون أنفسهم أكثر تحضراً من أهل المغرب الذين يغلب عليهم طابع البداوة ، وقد تنبه إلى ذلك الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إذ فصل ولاية الأندلس عن ولاية المغرب وولى عليها سنة مائة للهجرة السمح بن مالك الخولانى .

والعامل الرابع هو التنازع على حكم الأندلس بين الطامعين فيه ، فقد إستخلف موسى ابن نصير إبنه عبد العزيز حاكماً على بلاد الأندلس سنة ٩٥هـ/٧١٤م ، وبالرغم من أنه عمل على ضبط سلطانها ، وسد ثغورها ، وإفتتح مدائن كثيرة ، وكان تقياً ورعاً ، وعمل على نشر الإسلام ، ومزج الشعبين الفاتحين من العرب والبربر والأسبان وقد ضرب هو القدوة لأتباعه حيث تزوج بأرملة لذريق وإسمها أيلة والتى لقبها العرب بأم عاصم ، إلا أن مدة حكمه لم تطل ، فقد قتل سنة ٩٧هـ/٧١٦م بتدبير بعض العرب البلديين الذين قاموا بالفتح واستقروا فى الأندلس وعلى رأسهم أيوب بن حبيب ، وحبيب بن أبى عبيدة الفهرى ، وزياد بن عذرة البلوى ، وزياد بن نابغة التميمى ، بدافع من الغيرة وأملاً منهم فى أن يؤيدهم الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ، خاصة وأنهم أعلموه بأن عبد العزيز قد أظهر إمتعاضاً على تصرف الخليفة الأموى سليمان نحو أبيه موسى بن نصير بعد ما قام به من جهاد فى سبيل الله ونشر الإسلام فى المغرب والأندلس ، وما قدمه من خدمات للدولة الأموية ، وأنه إتهم الخليفة بقتل أخيه عبد الله بن موسى ، وأن زوجته أيلة كانت تحرضه على الإستقلال بالأندلس ، وأنه خلع طاعة الخليفة سليمان بن عبد الملك ، فقتلوه وحملت رأسه إلى دمشق ، وقيل أنه حينما طرحت رأسه على والده وهو فى محبسه تجلد

لحر المصيبة ، وقال : " هنيئا له الشهادة ! قتلتم والله ! صواما قواما ! " . على أى حـال فقد شاء حظ الأندلس العاثر أن تبتلى فى أول ولاتها مما كان له أسوأ الأثـر فى مستقبلها السياسى خاصة فى عصر الإمارة .

ويذكر ابن عذارى أن أهل الأندلس ظلوا عدة شـهور " لا يجمعـهم وال ، حـتى إجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمى إبن أخت موسى بن نصير " ، وظل أيوب حاكمـا لمدة أربعة أشهر ، فنقل عاصمة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة ، لأن أعدادا كبـيرة مـن العرب البلديين سكنت حولها ، ولموقعها المتوسط .

ولما ولى سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبى مسلم على بلاد المغرب ، ولى الأخير الحـر ابن عبد الرحمن الثقفى على الأندلس سنة ٩٨هـ/٧١٧م فأخذ جانب الشاميين مما أبعـد عنه العرب البلديين ، وإستمر حاكما للأندلس سنتين وثمانية أشهر ، فأسس دار الإمـارة فى قرطبة فى مواجهة قنطرة الوادى الكبير ، وكانت قبل ذلك مقرا للحاكم القوطى فى قرطبة، فزاد عليه الحر بن عبد الرحمن وجعله دارا للإمارة .

وأهم التيارات التى حدثت فى عصر الولاة فى الأندلس وأثرت فيه تأثيرا مباشـرا ، تياران هما :-

أولا : جهاد المسلمين فى الأندلس وخلف جبال البرانس :

فى السنوات الأولى من عهد الولاة فى الأندلس أنفق عبد العزيز بن موسى بـن نصير معظم أيام حكمه فى إستكمال فتح أسبانيا من جهة الشرق وجهة الغرب ، ويعتبر عبد العزيز من وجهه نظر بعض المؤرخين ثالث فاتحى الأندلس[١] ، واعتبر الدكتور حسين مؤنس أن فترة الولاة تبدأ بإنتهاء ولايته سنة ٩٧هـ/٧١٦م ، وكان لابد من مواصلـة

الفتح الإسلامى فيما وراء جبال البرانس ، والتوغل فى بلاد الغال المعروفة اليوم باسـم فرنسا . ومن أهم الحملات التى قام بـها الولاة على تلك الأقاليم :-

١-حملة السمح بن مالك الخولانى :

كان عمر بن عبد العزيز قد ولى السمح ابن مالك سنة ١٠٠هـ/٧١٨م ، فخـاض معارك عديدة وراء جبال البرانس ، فى بلاد غالة (فرنسا) وتوالت إنتصاراته حتى وصـل إلى مدينة تولوز ، وثبت أقدام المسلمين فى ولاية سبتمانية جنوبى فرنسا وكانت تابعة لفرع من القوط الغربيين ، وفى يوم عرفة سنة ١٠٢هـ إستشهد السمح وهو يجاهد فى سـبيل الله فى معركة ضد دوق اكيتانيا ويحدها جبال البرانس جنوباً ونهر اللوار شمالاً . ونتج عن ذلـك إنسحاب المسلمين إلى سبتمانية .

٢-حملة عنبسة بن سحيم الكلبى (١٠٣-١٠٧هـ/٧٢١-٧٢٥م):

إقتدى عنبسة بالسمح فى متابعة الجهاد وراء جبال البرانس ، فإستولى على قرقشونة فى داخل سبتمانيا ، وتوغل فى وادى نهر الرون وإحتل مدينة ليون ، وفى أثنـاء عودتـه إلى الأندلس إستشهد قبل أن يدركها فى شهر شعبان سنة ١٠٧ هـ / ديسمبر ٧٢٥ م . وولى يحيى بن سلمة الكلبى ، وكان شديد العصبية لقبيلته اليمنية ضـد المضريـة ، وظـل حاكماً للأندلس حتى سنة ١١٠هـ/ ٧٢٨ م ، وولى بعده حذيفة بن الأحوص فكـانت ولايته ستة أشهر ، ثم ولى عثمان بن أبى نعسة فى شهر شعبان سنة ١١٠هـ ، وكـانت ولايته خمسة أشهر ، وقيل ستة أشهر ثم عزل وإنصرف إلى القيروان ، وكان هؤلاء الـولاة من القيسيين الذين كالوا لكلب اليمنية الصاع صاعين ، و لم يكـن لهـم دور يذكـر فى الجهاد.

٣- حملة الهيثم بن عبيد الكلابى :

تولى إمارة الأندلس شهر محرم سنة ١١١هـ وكانت ولايته عشرة أشهر وقيل سـنة وشهرين ، وله بلاء حسن فى الجهاد فى أرض غالة ، ويقال أنه توغل فيها حـتى ماسـون

شمالى ليون . وأقام أهل الأندلس والياً منهم هو محمد بن عبد الله الأشجعى ، فكانت ولايته شهرين ، ثم ولى الأندلس عبد الرحمن الغافقى .

٤–حملة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى :

بدأ ولايته فى شهر صفر سنة ١١٢هـ/ إبريل ٧٣٠م ، وكان عبد الرحمن أحد قادة فتح الأندلس فى جيش موسى بن نصير وطارق ابن زياد ، وكان يتميز بالصلاح والتقوى ، وحاول إستكمال خطة موسى بن نصير ، فأعد العدة للجهاد ، وجمع القوات من الأندلس وأفريقية ، وكان جيشه فى حدود ٨٠ ألفاً من المجاهدين ، ومضى بقواته لغزو بلاد الغال ، فإجتاح مدن الجنوب ومنها بوردو وتوغل فى أواسط فرنسا وتجاوز مدينة ليون ، ومضى فى إتجاه نهر اللوار ، حيث إلتقى بجيش شارل مارتل الذى حشده من الفرنج والألمان وشعوب الشمال الأوربى .

كان اللقاء على مقربة من نهر اللوار فى السهل الواقع بين مدينتى تور على نهر اللوار وبواتييه والمسافة بين المدينتين حوالى ٩٠ ك. م . وتسمى المعركة فى المراجع الأوربية بإسم إحدى المدينتين كما تسمى فى المصادر العربية معركة " بلاط الشهداء " لكثرة من استشهد فيها من جنود المسلمين . وقد إستمرت المعركة ستة أيام ، وفى اليوم السابع فطن الفرنجة إلى نقطة الضعف فى جيش عبد الرحمن وهى مؤخرة جيشه حيث الغنائم ، فأرسل فرقة لمهاجمة المؤخرة ، مما أدى إلى تراجع بعض جند عبد الرحمن لتفقد غنائمهم وإنقاذها ، وقد أحدث ذلك فوضى إستغلها شارل مارتل فإندفع بقواته فى صفوف جيش المسلمين ، ولم تفد صيحات عبد الرحمن فى جنوده أن يعودوا إلى ساحة القتال ، وبقى يقاتل حتى استشهد فى شهر رمضان ١١٤هـ/أكتوبر ٧٣٢م ؛ وإنسحب من بقى من جنده إلى ولاية سبتمانيا.

أسباب هزيمة المسلمين :

يستشف من خلال الروايات التاريخية أن الغنائم الكثيرة والتى حرص جنود عبد الرحمن عليها كانت سبباً فى حركة الإلتفاف التى قام بها بعض قوات شـارل مـارتل وأدت إلى إختلال صفوف جيش عبد الرحمن وقتله .

ويمكن القول أن المناطق التى حارب فيها المسلمون والتى تتميز فى تلك الفترة بشـدة البرودة والعرب قادمون من مناطق يغلب عليها المناخ الحار ، فضلاً عن نقـص عددهـم خلال الحروب التى خاضوها فى جنوب فرنسا وترك حاميات فيـها ، وإجـهاد القـوات الإسلامية كان له أكبر الأثر فى هزيمتهم ، خاصة وأن شارل مارتل قد جمع حشوداً كبـيرة من الجرمان تتسلح بالسيوف العريضة والطويلة والبلط ويحاربون شبه عراة وهذا ما لم يألفه العرب من الجيوش التى واجهوها ، كما أن إستشهاد عبد الرحمن الغافقى كان له أثر كبـير فى إضعاف الروح المعنوية لجند المسلمين ووقوع الشقاق بين قواته .

وتعتبر معركة بلاط الشهداء من كبريات معارك التاريخ ، ويعتبرها الأوربيون المعركـة الأولى الحاسمة فى مطلع العصور الوسطى ، فهى التى قررت مصير أوربـا لعـدة قـرون ، ولو كتب النصر فيها للإسلام لتغير وجه أوربا ، وهى من وجهة الكثير من مؤرخى العـرب مجرد جولة خسرها العرب ، فعلى الرغم من هزيمة المسلمين فقد إحتفظوا بمـدن الجنـوب الفرنسى لمدة أكثر من قرنين ووصلت علاقاتهم التجارية إلى مدن سويسرا وأقـاموا فيـها مراكز لهم .

ومما لاشك فيه أن معركة بلاط الشهداء أوقفت الزحف الإسلامى فى بلاد غالـة ، ولكن مسلمى الأندلس بقيادة عقبة بن الحجاج السلولى الذى ولى الأندلس سنة ١١٦هـ /٧٣٤م وظل يليها خمس سنوات ، رابط فى جليقية ، بأقصى الشمال الغربى من أسـبانيا وافتتح معظمها ما عدا حصن بلاى بالقرب من خليج بسكاى لوعـورة الطريـق إليـه ،

وتخطى جبال البرانس أو البرت إلى سبتمانية وأقام فى عاصمتها أربونة وتقدم علـــى نهـــر الرون، واستشهد فى قرقشونة ، وبإستشهاده يتوقف المد الإسلامى فى بلاد غالة أو فرنســـا الحالية بعد استمراره عشرين سنة أو تزيد ، سجل المسلمون فيها إنتصـــارات وفتوحـــات عظيمة .

وحاول الفرنجة بعد ما يقرب من نصف قرن توجيه ضربة موجعة لمسلمى الأندلس، فقـد إجتاز شارلمان جبال البرانس سنة ١٦١هـ/٧٧٧م وحاصر سرقسطة الثغر الأعلى للأندلس ولكنه لم يتمكن من دخولها ، وإنقض المسلمون على جيشه ومزقوه شر ممزق حتى لم يكـد ينجو من الموت أيام عبد الرحمن بن معاوية . وقد جعلت هذه المعركة الفرنجة لا يفكرون فى إجتياز جبال البرت أو البرانس لمحاربة المسلمين لعدة قرون .

ثانيا : تيار النزاع الداخلى فى عصر الولاة :

ذكرنا سابقا فى سياق حديثنا عن الفتنة المغربية التى إجتاحت المغرب أيام ولاية عبيـــد الله ابن الحبحاب سنة ١٢٣هـــ/٧٤٠م ، أن البربر هزموا العرب هزيمة نكراء فى موقعـــة الأشراف ثم أوقعوا بهم فى معركة بقدورة الواقعة على وادى سبو سنة ١٢٤هـــ/ ٧٤١م وفر إثر ذلك بلج بن بشر إلى سبتة مع آلاف من الشاميين ، حيث إعتصمـــوا بأســـوارها بضعة شهور حتى يأذن لهم والى الأندلس عبد الملك بن قطن فى العبور إليه .

ولعل من أهم النتائج لثورة البربر فى المغرب هو تطاير شرر الفتنة البربرية بـالمغرب إلى إخوانهم فى الأندلس لإبعاد العرب لهم عن أداة الحكم ، وإختصاص العرب بالمناطق الخصبـة فى جنوب وشرق الأندلس ، وهى مناطق بعيدة عن أخطار الجلالقة وهجماتهم ، أما الـبربر فقد إختصوا بالمناطق الشمالية الباردة ، فكانوا فى خطر دائم للهجمات النصرانية ، كمـــا سكن بعضهم فى المناطق الوسطى الصحراوية القاحلة . فثار بربر الأندلس فى بلدان كثـــيرة

على العرب ، خاصة المناطق الشمالية الواقعة على أطراف الأندلس مثل جليقية وأشتوريش وغرب الأندلس ، وهى مناطق يشكل البربر معظم سكانها ، فخشى عبد الملك مغبة ذلك فسمح لبلج بن بشر المحاصر بسبتة بالعبور إلى الأندلس للقضاء على ثورة البربر ، واشترط عليهم أن يغادروا الأندلس بعد القضاء على هذه الثورة والمقام سنة فى الأندلس ثم يخرجون عنها إلى المغرب ، وأن يسلموه عدداً من رهائنهم لعدم نكثهم " وإشترط عليهم أن يعطوه من كل جند من قوادهم عشرة رهائن يضعهم فى الجزيرة فى البحر فإذا فرغوا له فى الحروب جهزهم وحملهم إلى أفريقية فرضوا بذلك " .كما يذكر صاحب كتاب فتح الأندلس وذكر أمرائها .

كان البربر قد وحدوا صفوفهم وقسموا أنفسهم إلى ثلاث فرق ، فرقة تهاجم طليطلة ، وفرقة ثانية تهاجم قرطبة ، و فرقة ثالثة تتجه إلى سبتة للقضاء على الشاميين قبل عبورهم إلى الأندلس ، غير أن بلج أسرع بالعبور بقواته إلى الأندلس ، وعقب ذلك أخذ العرب الشاميون يطاردون البربر خاصة فى الوسط والشمال الغربى ، وإلتقى الفريقان فى معارك عنيفة كان النصر فيها للعرب ، ولما طالب ابن قطن الشاميين بالإنسحاب من الأندلس رفضوا طلبه ووثبوا عليه وولوا بلج بن بشر على الأندلس سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م وسرعان ما قتل عبد الملك بن قطن على يد عرب الشام بعد إتهامه بمقتل رجل من الرهائن الشاميين الرهائن فى جزيرة أم حكيم ، وقد تسبب موت ابن قطن فى اتحاد العرب البلديين مع البربر الذين كانوا يتلهفون لأخذ ثأرهم من الشاميين بقيادة بلج فقتلوه ، وخلفه شامى متعصب هو ثعلبة بن سلامة العاملى ، واشتدت الفتنة بين البلديين من عرب وبربر من جانب والشاميين فى الجانب الأخر . ثم وجه حنظلة بن صفوان والى أفريقية سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م أبا الخطار ابن ضرار الكلبى ، وحاول أن يعيد إلى الأندلس الهدوء والنظام، فأمن العرب والبربر البلديين على أراضيهم ومصالحهم ، وأن يبعد عنهم أذى الشاميين الذين تجمع معظمهم فى قرطبة فإستقر رأيه على توزيعهم على بلاد الأندلس ، مقابل أن يحصلوا على ثلث الخراج الذى يؤديه نصارى الأندلس والمزارعون ، على أن يقدموا لحكومة قرطبة عدداً معيناً من الجند كلما طلبت ذلك . فأنزل جند مصر : باجة

وتدمير ، وجند حمص : إشبيلية ، وجند فلسطين : مالقة ، وجند دمشـــق : غرناطـــة ، وجند قنسرين : جيان ، غير أن أبا الخطار أفرط بعد ذلك في التعصب لقومه مـــن كلـــب واليمنية ضد القبائل المضرية والقيسية ، ونشبت فتنة ضارية فخلع سنة ١٢٨هـــ/٧٤٥م ، و لم تهدأ البلاد فقد إحتدمت الفتنة بين اليمنية والمضرية ، وإشتعلت الفتنـــة بـــين العـــرب الشاميين والبلديين ، وفي السنوات العشر الأخيرة من عصر الـــولاة ، ظـــهرت حكومـــة الصميل بن حاتم زعيم المضرية ، وإستطاع الصميل أن يضم تحت لوائه قومه ومعهم العرب الشاميون بينما إنضوى اليمنيون والعرب البلديون والبربر تحت لواء يوسف بن عبد الرحمن الفهري وإتفق الزعيمان على أن تكون ولاية الأندلس ليوسف ويكون الصميل مستشـــاره وصاحب رأيه وذلك في شهر ربيع الثاني ١٢٩هـــ/ديسمبر ٧٤٦م ، وبذلك عاد الهـــدوء إلى الأندلس حتى سنة ١٣٨هـــ/ ٧٥٥م .

الـــدولة الأمـــوية فى الأنـــدلس

١- عصر الإمارة : ويمتد من سنة (١٣٨هـ -٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٩م) :

في سنة ١٣٢هـــ/ ٧٤٩م قضى العباسيون على الدولة الأموية في المشرق ، وقد مضوا يستأصلون شأفة الأمويين في مذابح جماعية ، وتتبع الخلفاء العباسيون أفراد البيت الأمـــوي بالقتل ، ومن هؤلاء أبناء معاوية بن هشام بن عبد الملك ، وكتبت النجاة لعبد الرحمن بـــن معاوية إبن الخليفة هشام بن عبد الملك ، وكان وقتئذ شاب في التاسعة عشرة من عمـــره ، ففر من مذابح العباسيين إلى المغرب ، ومنها إلى الأندلس . ونجح عبد الرحمـــن في إقامـــة الدولة الأموية في الأندلس .

وأحيط فرار عبد الرحمن ودخوله إلى الأندلس بكثير من المبالغات ، فقيل أنـــه كـــان بإحدى قرى العراق مع أختين له وأخ صغير في الثالثة عشرة ، وحاصرت جنود العباســـيين

القرية فإصطحب عبد الرحمن أخاه وحمل ما إستطاع من المال وأوصى أختيه أن يرسلا إليه بموضع عينه لهما فى الشام مولاه بدرا ومولاهما سالما . وحين كان يهم مع أخيه بعبور نهر الفرات لحقتهما جنود العباسيين وعرضت عليهما الأمان ، فإرتد الأخ الأصغر ولم يكد يصل إلى الشاطىء حتى قتل ، أما عبد الرحمن فقد نجا بنفسه وإتجه إلى الموضع الذى عينه لأختيه بالشام فوجد بدرا وسالما فى إنتظاره ومعهما مال وجواهر ، ومضى الثلاثة إلى المغرب ، وإستقر عند أخواله من قبيلة نفزة بالقرب من طنجة ، أما سالم فقد عاد إلى الشام، أما بدر فظل مع عبد الرحمن .

كانت الأندلس يومئذ يتولى زعامتها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ممثلا للمضرية ويعمل جاهدا على إستقرار النظام ولكنه لم يقدر أن الخطر الحقيقى سيأتيه من خارج الأندلس ، فقد كان عبد الرحمن يتحسس أخبار الأندلس وعرف ما تعانيه من إضطراب وخلاف على الرياسة ، وأدرك أن ظروف الأندلس تلوح بقوة لتأييد دعوته فى إقامة صرح الدولة الأموية فى الأندلس ، وفى سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م أرسل عبد الرحمن مولاه بدر إلى الأندلس لبث دعوته بين أنصار بنى أمية ، فنزل بدر بساحل البيرة ، وكانت منزل جند الشام ، وكانت زعامة الأمويين والشاميين يومئذ إلى رجلين من موالى بنى أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله بن خالد ، وناشدهما تأييد ونصرة عبد الرحمن بن معاوية ، ومعاونته على أن يدخل الأندلس ، وقد إستجاب اليمنيون لدعوة عبد الرحمن وقرروا مع موالى بنى أمية إستقدام عبد الرحمن إلى الأندلس.

عبر عبد الرحمن إلى الأندلس فى شهر ربيع الثانى سنة ١٣٧هـ/٧٥٤م ونزل بساحل البيرة فى ثغر المنكب ومنها إنتقل إلى طرش وهى قرية حصينة غربى المنكب ، وهناك توافد عليه أنصار بنى أمية ، وكون سريعا جيشا للقاء يوسف الفهرى والى الأندلس وكان وقتئذ مشغولا بأمر ثورة فى سرقسطة قام بها اليمنيون ، وبعدما قضى على الثورة غادر سرقسطة بجيشه ، وتوجه إلى طليطلة ليبحث مع حاكمها الصميل بن حاتم خير الوسائل لرد خطر عبد الرحمن بن معاوية وقد أشار الصميل على يوسف بمصانعة عبد الرحمن ، فأرسل

يوسف إليه وفداً يعرض عليه أن يزوجه إبنته ، وأن يحكم غرناطة ، غير أن عبد الرحمن رفض ذلك فقد كان يطمع فى حكم بلاد الأندلس كلها، خاصة وأن الدعوة الأموية قد إنتشرت فى جنوبى الأندلس ، وزادت جموع عبد الرحمن ابن معاوية بإنضمام موالى جيان إليه بعد أن تفضوا أيديهم عن الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى .

سار عبد الرحمن بقواته من طرش إلى ريه ، ثم إلى شذونة ، ثم إلى إشبيلية ، وكانت دعوته تسبقه إلى تلك البلاد فبايعه عمالها ، ثم تقدم إلى قرطبة حيث كان يوسف والصميل قد حشدا جموعهما ومعظمهم من القيسية والفهرية ، وتقابل الفريقان يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة ١٣٨هـ/ ١٨مايو ٧٥٦م عند المصارة فى ظاهر قرطبة من الغرب على ضفة نهر الوادى الكبير ، وإنتهى اللقاء بإندحار جيش يوسف والصميل ، ففر الأول إلى طليطلة وإنتهى الأمر بمقتله على يد بعض أصحابه ، وأسر الصميل حيث مات فى السجن خنقاً ، ودخل عبد الرحمن قرطبة ، وصلى الجمعة ثم نزل دار الإمارة ، وبويع فى الحال بالإمارة ، وخطب فى الجند معلناً ميلاد الدولة الأموية فى الأندلس .

لم يكن دخول عبد الرحمن قرطبة ومبايعته بالإمارة فيها نهاية لمتاعبه بقدر ما كان بداية لكفاح طويل لتوطيد سلطانه ، فقد كانت الأندلس يومئذ مسرحاً للفتن والإضطرابات ، وكانت الثورة تجثم فى كل ناحية ، وإنحلت عرى العصبية القديمة وإنتثرت فرقاً صغيرة ، وغدت كل قبيلة تلتف حول زعيمها وتتمسك بإستقلالها وتأبى الخضوع لإمرة سلطة عامة، وكان اليمنيون يتصورون أن إنتصار عبد الرحمن بن معاوية معناه أنهم يستطيعون التصرف حسبما شاؤا ، وكان البربر يمثلون أحد العناصر البشرية القوية فى الأندلس يحتفظون بعدائهم القديم للعرب [illegible] على الإ[illegible]ناظ على ما بأيديهم من ضياع وأقاليم أندلسية ، فضلاً عن خطر أسبانيا النصرانية فى الشمال ومملكة الفرنجة التى إستطاعت أن تنتزع أثناء الفتنة معظم الأراضى الإسلامية فيما وراء جبال البرتات أو البرانس ، وكان نصارى الشمال يتربصون الفرصة للوثوب على الأندلس لإستردادها ،

ويجب ألا ننسى أن الأندلس كانت معرضة إلى جانب هذه الأخطار التي واجهـها عبـد الرحمن تتعرض إلى خطر العباسيين الذين تربصوا بعبد الرحمن لطرده من الأندلس .

أصبح عبد الرحمن بن معاوية أميرا على الأندلس ، وعليه مواجهة كل هذه الأخطـار الداخلية والخارجية لكي يحمي الأندلس ويغنم برياسـتها موحـدة قبـل أن تتـوزع إلى أندلسيات كثيرة كما حدث في القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى لعصر ملوك الطوائف .

إهتم عبد الرحمن بالتنظيم الإدارى ، وإستطاع أن يوطد دعائم الحكم والإدارة معتمـدا على رجال من موالى بنى أمية مثل تمام بن علقمة ، ويوسف بن بخت ، وبدر مـولى عبـد الرحمن ، وعبد الواحد بن مغيث الرومى ، كما بذل جهودا كبيرة للقضاء على الفسـاد ، وتأكيد هيبة القانون والنظام خاصة وأنه كان يتمتع بمواهب إدارية باهرة على الرغم من أنه لم يكن يتجاوز السادسة والعشرين من عمره حين دخل مدينة قرطبة.

وفى سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م ثار العلاء بن مغيث الجذامى بباجة ، ودعا إلى طاعـة أبى جعفر المنصور ، ونشر الأعلام السود ، وإستقطب اليمنيين والفهريين وجند مصر المنـاوئين للحكم الأموى فى الأندلس ، ويقال أن العلاء تغلب على جميع المناطق الغربية ، وأن الخليفة العباسى المنصور قد ولى العلاء بن مغيث واليا على الأندلس ، ولكن عبد الرحمـن قضـى على ثورة العلاء حيث هزمه بالقرب من مدينة قرمونة ، وفض جموعه ، وقتل من أصحابـه نحو ستة آلاف ، وأمر عبد الرحمن بحز رأس العلاء ، ورؤوس أشراف أصحابه ، قرطـت فيها صكوك بأسمائهم ، وجعلت فى أوعية ، وأرسلت إلى القيروان فطرحوها فى الأسـواق ، واتصل الأمر بأبى جعفر المنصور فإرتاع لذلك . ويذكر ابن عذارى أن عبد الرحمن أمـر بحشو رأس العلاء بالملح والكافور وجعل معه لواء أبى جعفر المنصور ، ثم وضعه فى سـفط ، وأرسله مع بعض رجاله إلى مكة فوضع السفط أو القفة أمام سرادق المنصور أثناء أدائـه

الحج ، فلما نظر المنصور إلى مافيه قال : " إنا لله ! عرضنا بهذا المسكين للقتل ! الحمد لله الذى جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان ! " .

وفى سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م ثار سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى بكورة لبلة وإستنفر اليمنيون ، وإستطاع دخول إشبيليه ، فكثر عدده فسار إليه عبد الرحمن وحاصره بقلعة زعواق حتى أرهقه ، ومن ثم قرر سعيد ملاقاة عبد الرحمن ، وإنتهى الأمر بقتل المطرى وأمر عبد الرحمن بجز رأسه ، أما أبا الصباح بن يحيى اليحصبى فقد ولاه عبد الرحمن بن معاوية إشبيلية ثم عزله عنها فثار إبن يحيى فوجه إليه عبد الرحمن مولاه تماما فقتله وحز رأسه كما فعل مع سعيد اليحصبى .

ومن بين الثورات التى واجهها عبد الرحمن ثورة رجل من البربر يسمى شقيا أو " شعيا ابن عبد الواحد " إدعى أنه من ولد الحسن بن على ، وكان أصله من مكناسة العدوة وكانت أمه تسمى فاطمة ، فإدعى أنه فاطمى ، فثار فى منطقة وعرة هى " شنتمرية " ، وإستمرت فتنة هذا الرجل من سنة ١٥٠-١٦٠هـ/ ٧٦٧-٧٧٦م إذ تمكنت قوات عبد الرحمن من هزيمة الفاطمى وقتله بالقرب من شنتمرية .

وقد تعرض عبد الرحمن الناصر إلى مؤامرة كبرى إشترك فيها واليان عربيان هما سليمان ابن اليقظان الكلبى والى برشلونة والحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة والتفقا مع شارلمان ملك الفرنجة على أن يعاونوه فى الاستيلاء على الأندلس ، ويقال أنهم ذهبوا إليه فى بادرون فى ولاية وستفاليا وتقع غرب ألمانيا الإتحادية الحالية . وفى شهر شوال بسنة ١٦١هـ/ يوليو ٧٧٧م إتجه [illegible] بقواته صوب الأندلس فعبر جبال البرت ، وكان الإتفاق أن يعاونه البشكنس والحسين بن يحيى بتسليم سرقسطة إذا وصل إليها لكن أهل الثغر الأعلى - سرقسطة - رأوا أن سليمان بن اليقظان قد خدعهم خاصة بعد أن إستولى شارلمان على بنبلونة ، وأن الأمر سينتهى بإستيلاء النصارى على الأندلس ، وكانت النتيجة أن رفض الحسين بن يحيى تسليم سرقسطة لشارلمان ، فطال حصار شارلمان لها ، ثم إضطر

إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى بلاده ، وفى أثناء عودته تعرض لهجوم قبـــائل البشـــكنس وحلفائهم من الأندلسيين وفقد عددا كبيرا من جنده قتلى فى موقعة باب الشزرى بـــالقرب من الجزء الغربى لجبال البرت ، وفقد قائده رولان .

وفى سنة ١٦٣هـ/٧٨١م سار عبد الرحمن بقواته إلى سرقسطة فقضى على الثـــائرين ودخل بنبلونة عاصمة قبائل البشكنس وعاهدهم على الخضوع للمسلمين وأداء الجزية .

كذلك إهتم عبد الرحمن بالبناء والعمارة ، ففى أيامه بدأ عمران قرطبـــة ، فقـــد رأى ضرورة توسيـــع مسجد قرطبة وكان مقاما على نصف كنيسة للنصارى تعرف باسم شنت بنجت Sant Vincent ، وبقى النصف الآخر بأيدى النصارى ، ولم يزل المسجد علـــى هذه الحال إلى أن إتفق عبد الرحمن مع النصارى على أخذ النصف الآخر مـــن الكنيســـة لتوسيع الجامع شريطة أن يسمح لهم ببناء كنيسة خارج مدينة قرطبة ، وفعلا تم بناء تلـــك الكنيسة وكان ذلك سنة ١٦٨هـ/٧٨٤م . وكان المسجد المسقوف الذى يدعى عـــادة "بيت الصلاة " يتألف فى عهد عبد الرحمن من تسع بلاطات تتجه عموديا إلى جدار القبلـــة والبلاط الأوسط منها سعته ٨٥ , ٧ م بينما سعة كل بـــلاط آخـــر ٨٦ , ٦ م . وقـــد ترك نصف المسجد دون سقف ، وسقف النصف الآخر .

أما السقف فيتألف من ألواح خشبية مسطحة بين عوارض مربعة وكل لـــوح منـــها مسمر بالسقف وفيه من النقوش والزخارف والنصوص والدوائر ما يختلف تماما عن بقيـــة الألواح . وتحت كل لوح أزار خشبى نقشت عليه آيات قرآنية .

أما أعمدة المسجد فهى من الرخام ويتألف كل منها من قاعدة وبـــدن ورأس ، وقـــد ربطت هذه الأعمدة فيما بينها عن طريق عقود متجاورة نصف إسطوانية تحمل الجـــدران التى يرتكز عليها السقف . والجدران عبارة عن أرجل من الحجر المزخـــرف تســـتند إلى

العقود نصف الأسطوانية وقد جعل هذا السقف مرتفعا إلى ثلاثة أضعاف إرتفاع الأعمدة مما أضفى على المسجد بهاء وجلالا .

وقد جعلت العقود العليا التي يرتكز عليها السقف من الحجارة ذات اللون الأصفر الشاحب بينما جعلت العقود الدنيا التي تعلو الأعمدة من الآجر الأحمر ، وهكذا يتناوب اللونان فى إضفاء طابع زخرفى على بيت الصلاة ، أما الصحن الخارجى للجامع فقد غرس بالأشجار وكلف بذلك " عبد الله صعصعة بن سلام " - وهو أول أتباع مذهب الإمام الأوزاعى فى الأندلس وقد شغل منصب المفتى وصاحب الصلاة فى مدينة قرطبة - ولا تزال أشجار النارنج تملأ صحن المسجد إلى الآن ، وقد أتبع ذلك فى سائر مساجد المسلمين .

وعنى عبد الرحمن بقصر الإمارة قبالة المسجد ، وأنشأ قصرا خاصا لنفسه وعدد من القصور الصغيرة بجواره لأهل بيته ، وأحاطها بالحدائق ، وأدار عليها سورا ، كما أنشأ لنفسه قصرا على مثال البوادى ليقضى فيه أوقات السمر على بعد أربعة كيلومترات شمالى قرطبة على تل مرتفع يسمى " تل الرصافة " ولذلك سمى بقصر الرصافة ، وشجع عبد الرحمن الحركة العلمية والأدبية ومات سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م وخلفه إبنه هشام .

كان هشام الأول الذى خلف أباه عبد الرحمن عاقلا وقد فضله أباه على أخيه سليمان، وكان جنديا لا يهتم إلا بالجيش وأهله . أما هشام فقد عرف عنه حسن الرأى والشجاعة وحب الخير والتقوى ، ومن ثم كان محببا إلى رجال الدولة والفقهاء ، وكان يحكم ماردة فى أثناء ولاية أبيه ، وكان عمره حين ولى الأندلس ثلاثة وثلاثين سنة ، وقد واجهته ثورة قام بها أخواه سليمان وعبد الله ، لكنه استطاع أن ينتصر عليهما وأن يجبرهما على طلب الأمان ثم عفا عنهما بعد ذلك على أن يتركا الأندلس إلى المغرب ، وبذلك قضى على منافسة أخويه سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م .

ثم قضى هشام على كثير من الثورات التى إستهدفت حكمه فى الداخل ، مثل ثـــورة سعيد بن الحسين الأنصارى الذى أعلن راية العصيان فى طرطوشة وإستجابت له اليمنيـــة ولكنه أخمد هذه الثورة . وثورة والى برشلونة ويقال أنه إستولى على سرقســـطة - الثغـــر الأعلى - ووشقة غير أن هشام قضى على هذه الثورة أيضا .

ونجح هشام فى وقف محاولات نصارى الشمال التوسع جنوبا على حســـــاب دولـــة الأندلس وذلك بإرسال جيوشه إلى الشمال فحارب الأسبان فى ولاية أشتوريش فى منطقـــة القلاع التى صارت بعد ذلك نواة لمملكة قشتالة ومنطقة الغرب وهى غالسيا أوجليقيـــة ، ويقال أنه غزا فرنسا وحاصر أربونة ، وفى سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م تمرد البربر فى منطقة رندة فأرسل هشام جيوشه فقضت على ثورتهم وقتلت معظمهم وفر الباقون إلى طلبيرة ويقال أن رندة ظلت قفرا سبع سنين .

وفى أيام هشام تحول كثير من النصارى إلى الإسلام ، خاصة بعد أن جعل لغة التعليـــم هى اللغة العربية فى معاهد النصارى واليهود . وفى عهده إنتشر مذهـــب الإمـــام مـــالك بالأندلس وهو أبو عبد الله ، مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحـــارث غيمان الأصبحى المدنى ، ولد بذى المروة ، وهو أشبه بالواحة على بعد ١٩٢كيلـــومـــترا شمال المدينة المنورة ويقال أنه ولد سنة ٩٣هـ/٧١١م فى خلافة الوليد ابن عبد الملـــك ، وتوفى بالمدينة المنورة سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م فى خلافة هارون الرشيد .

ومن المعروف أن مالك بن أنس قد أخذ العلم من صغره بالمدينة المنورة من علمائـــها خاصة الفقه الإسلامى ، ثم تنقل بين المدن الأخرى فأخذ عن كثيرين من العلماء حتى عدوا من روى عنهم تسعمائة رجل مثل ربيعة الرأى بن أبى عبد الرحمن فروخ المدينى ، وجعفـــر الصادق بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وغيرهم . ويروى أن إتجاه عبد الرحمن بن معاوية إلى دمشق كان سببا رئيسيا فى إنتشار مذهب الأوزاعى - كان يـــهتم بصفة خاصة بالتشريعات العسكرية و أحكام الحرب - بالأندلس ، ولكن إبنـــه هشـــام

تحمس للمذهب المالكى ، فقد كان محبا لدراسة الحديث والفقه فقام هشام بكل ما وسعه لنشر المذهب المالكى حتى أصبح المذهب الرسمى فى الأندلس ، وأصبحت تصدر عنه الفتاوى والأحكام الفقهية المختلفة . ومن أبرز تلاميذ الإمام مالك الذين درسوا عليه الفقه ورحب بهم هشام بن عبد الرحمن ... رطبة الغازى بن قيس ، وعيسى بن دينار .

توفى هشام بعد سبع سنوات من حكمه وتولى بعده إبنه الحكم المعروف بالربضى، وقد تخلى الحكم عن سياسة أبيه فى تقريب الفقهاء والعلماء ، فأنكروا سياسته وناصبوه العداء وخاصة وأنه مال إلى اللهو ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان شديد الوطأة على خصومه والخارجين عليه ، كما كان حازما ، يؤيد ذلك رواية لإبن عذارى يقول فيها "كان الحكم شديد الحزم ، ماضى العزم ، ذا صولة تتقى . وكان حسن التدبير فى سلطانه، وتولية أهل الفضل والعدل فى رعيته " .

ومن خلال النصوص التاريخية نعرف أن الحكم قد واجه ثورات داخلية عديدة ، إذ إندلعت الثورات فى ناحية الثغر ، فقد ثار على الحكم بهلول بن مرزوق المعروف بأبى الحجاج ودخل سرقسطة ، وأذكى نيران هذه الثورة الأمير عبد الله بن عبد الرحمن ابن معاوية ، كما ثار عبيدة بن حميد بطليطلة ولكن الحكم استطاع أن يسترد سلطانه على الثغور الشمالية وكذلك طليطلة ويقال أن قائده عمروس بن يوسف قتل من أشراف طليطلة سبعمائة رجل سنة ١٨١هـ/٧٩٧م .

وفى شهر شوال سنة ١٨٣هـ/ نوفمبر ٧٩٩م أشعل سليمان بن عبد الرحمن عم الحكم بن هشام الفتنة ، و إنضم إليه جموعا من البربر ، ودارت بينهم حروب شديدة ، وإنتهى الأمر بهزيمة سليمان قرب إستجة وفر إلى جيان ، ثم إلبيرة - *غرناطة* - فإنضم إليه جماعة من أهل الكورتين ، وإلتقى معه الحكم ، فدام القتال بينهم أياما ، فلحقت الهزيمة بالحكم فى بداية المعركة ، ثم دارت الدائرة على سليمان وجنده ، ففروا من أرض المعركة يطلبون النجاة ، لا يلوى من تبقى منهم على آخر ، وقوات الحكم بقيادة أصبغ ابن عبد

الله تطاردهم إلى ماردة حيث إستطاع أن يأسر سليمان ، وأتى به إلى الحكم ، فأمر بقتلـه سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م .

أما عمه عبد الله بن عبد الرحمن الذى إتخذ من بلنسية مركزا له بعد فشل حركة أخيه سليمان فقد طلب الصفح فعفا عنه الحكم سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م وعقد له أمانا كما يذكر ابن عذارى إذ يقول : " وفى سنة ١٨٦ ، أخرج الحكم إلى عمه عبد الله البلنسى أمانـا ، وهو أول خروج كان إليه ، وأول مكاتبة كانت بين الحكم وبينه بعد حلوله ببلنسـية " . ونص هذا الأمان على أن يسكن عبد الله فى بلنسية ، وإجراء الأرزاق عليه ، وذلك ألـف دينار لكل شهر ، وأهل بيته ألف دينار لكل سنة .

كما قضى الحكم على ثورة أهل الربض الأولى سنة ١٩٠هـ/٨٠٦م ، والربـض ضاحية تقع جنوبى مدينة قرطبة تعيش فيها الشرائح الكادحة مـن العامـة مـن العمـال والفلاحين وأصحاب الحرف المختلفة الذين طحنتهم الضائقة الإقتصادية ، ويقال أن سـواد أهل قرطبة أعلنوا عصيانهم وخلعوا طاعة الحكم مستغلين خروجه إلى ماردة ، لإخضـاع أصبغ بن عبد الله الثائر بها ، فكثر الإحتكاك بين العامة وجند الحكم فى قرطبة وحينما علـم بذلك الحكم عاد إلى قرطبة وقبض على بعض الثائرين وصلبهم " فهدأ النـاس وسـكنت الأحوال ، وصار الناس فى هدوء وسكون من سنة ١٩٠-٢٠٢ هـ" .

وتكررت ثورة أهل الربض للمرة الثانية ضد الحكم نتيجة لشعورهم بالظلم والتفـاوت الطبقى ، وقد إنضم كبار الفقهاء إلى العامة فى هذه الثورة ومن هؤلاء يحيى ابن يحيى الليثى، وطالوت بن عبد الجبار ، وعيسى بن دينار ، وإقتحم الثوار فناء قصر الحكـم للإطاحـة بحكمه غير أن الحكم إستطاع بالدهاء والحيلة أن يقضى على ثورتهم ، وحصدت سـيوف جنده رقاب الثوار بعد أن طوقهم فى ضاحيتهم ، وأمر بصلب نحو ثلاثمائة رجل من الثـوار تجاه القصر صفا واحدا . وأتبع ذلك بإصدار أمره بطرد أهل الربض الجنوبى ، فإتجه بعضهم إلى طليطلة وشمال غرب الأندلس ، كما أمر الحكم بن هشام بطرد أهل الحى الثائر مـن

الأندلس وأمهلهم ثلاثة أيام فمن تخلف منهم أمر بقتله، فذهب بعضهم إلى المغرب وأنشأوا عدوة الأندلسيين فى فاس ، وهاجر جماعات منهم إلى الإسكندرية وكانوا نحو خمسة عشر ألفا ، وقد شاركوا فى الحرب الأهلية أيام الخليفة العباسى المأمون وطردوا عامل الإسكندرية ، حتى قدم عبد الله بن طاهر أميرا على مصر من قبل المأمون ، فذهبوا إلى جزيرة كريت بزعامة أبى حفص عمر بن عيسى البلوطى ، ففتحوها وإستقروا بها سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وأسسوا بها إمارة صغيرة ظلت تحكمها حتى استعادها البيزنطيون منهم بقيادة نقفور فوقاس قائد الإمبراطور رومانوس الثانى سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م .

ويتضح من خلال النصوص التاريخية أن الحكم إستعان بالمولدين – يطلق مصطلح المولدين عادة على المنحدرين من أصل أسبانى ممن إعتنق الإسلام ، أو أبناء الزيجات العربية الأسبانية ونشأوا على الديانة الإسلامية ولكن طابع الأندلس غلب عليهم – فى حكم الثغور وتوجيه نشاطهم فى رد هجمات نصارى الشمال الأسبانى ، فقد إستعان الحكم بعمروس بن يوسف وهو من المولدين فى صد خطر الفرنجة على ثغر طرطوشة سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م .

كما إستكثر الحكم من الموالى ، ويذكر ابن خلدون أن الحكم أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة ، وجمع الأسلحة والعدد وإستكثر من الحشم ، وإرتبط الخيول على بابه ، وإتخذ المماليك ، وكان يسميهم الخرس لعجميتهم ، وقد بلغت عدتهم خمسة آلاف وكان يباشر الأمور بنفسه ، وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالأندلس . ويقول ابن سعيد فى كتابه المغرب أن الحكم كان أشد بنى أمية فى الأندلس إقداما إلى ما جمعه من جودة الضبط وحسن السياسة ، وكان يشبه المنصور العباسى فى شدة الملك وقهر الأعداء وتوطيد الدولة ، وتوفى فى سنة ٢٠٦هـ/٨٢٢م .

وتولى بعده بعهد منه ابنه عبد الرحمن ، الملقب بالأوسط لتوسطه بين جده عبد الرحمن الداخل وحفيده عبد الرحمن الناصر ، وفى عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦–

٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م) تكاملت أسس الحضارة العربية فى الأندلس ، وكانت ثلاثة أسس من أسسها أخذت فى الإستقرار هناك هى الدين الإسلامى واللغة العربية والعلم ، وكانت بلاد الأندلس قد سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية والدينية ، فشجع عبد الرحمن العلماء على الإنتقال إلى الأندلس فنقلوا حضارة العراق والحجاز ومصر والشام إلى الأندلس وعاش العلماء فى كنفه يجدون الحب والتقدير ، وإعتنى عبد الرحمن بعلوم الأوائل وضم إلى ذلك أساسا رابعا هو الجانب المادى للحضارة الأندلسية ، إذ إهتم ببناء القصور وأثاثها ورياشها الفاخرة وحاكاه الأندلسيون مما جعل التجار يحملون إلى الأندلس نفائس المشرق ، وجلب إلى قرطبة المياه من الجبال ، وأقام الجسور ، ونظم شوارع قرطبة ، وزاد فى بناء جامعها، ففى سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م زاد عبد الرحمن بلاطين إلى بلاطات المسجد فبلغت أحد عشر بلاطا . وفى سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م إمتد التوسع جنوبا وذلك بنقب جدار القبله والإتجاه به جنوبا صوب نهر قرطبة وبلغ عمق تلك الزيادة خمسين ذراعا وعرضها مائة وخمسين ذراعا وقد أشرف على هذا العمل قاضى قرطبة محمد بن زيادة ونفذه أقرب فتيان عبد الرحمن إليه وهما نصر ومسرور ، كما أنشأ عبد الرحمن المساجد فى أكثر مدن الأندلس .

وفى عهد عبد الرحمن الأوسط إزدهرت الحياة الفنية فى الأندلس فقد أكثر الأندلسيون من عمل الآنية والأثاث ورسم الأشكال الهندسية العجيبة على الأبواب والسقوف ولاتزال آثار بعضها باقية حتى اليوم . وفى مجال الموسيقى والغناء فقد تفنن الأندلسيون فيهما أيما تفنن ويرجع الفضل فى ذلك إلى المغنى العراقى أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب الذى قدم من العراق فى سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م . وقد أدخل زرياب تعديلات فنية واجتماعية جعلته قدوة فى المجتمع القرطبى خاصة والأندلسى عامة ، ومن هذه الإصلاحات الفنية أنه زاد وترا خامسا ، وجعل مضرب العود من ريش النسر بدلاً من الخشب وساعد هذا على نقاء الصوت وسهولة العزف . ومن الناحية الإجتماعية فقد سن زرياب تقاليدا إجتماعية أطلق المؤرخون عليها إسم "مراسيم زرياب " وقد ظلت هذه التقاليد متبعة حتى أواخر العصر الإسلامى فى الأندلس ، ومن هذه التقاليد التى أدخلها زرياب إلى الأندلس أنه علم الأندلسيين أصول وطرق الطهى العراقى ، كذا إتباع النظام والترتيب فى الأكل ،

وأشار عليهم ببعض أنواع الطعام لم يكونوا يعرفوها ولا تـزال موجـودة إلى الآن مثـل الأسفرج ، وإستعمال الأواني الزجاجية بدلاً من الفضية والذهبية ، وعلم الأندلسيين كيـف يفرقون شعورهم في وسط الرأس ويقصونها من الخلف حتى يظهر العنق ويبدو الجبين بعـد أن كانوا يرسلون الشعر فوق الجبهة والأصداغ . كما علم الأندلسيين لبس الثياب حسـب ألوانها وثقلها وفي أوقاتها المناسبة من حيث فصول السنة .

وبث زرياب في المجتمع الأندلسي بعـض الآداب العامـة في حضـور الإحتفـالات والمقابلات والزيارات وخاصة الرسمية منها . وكان زرياب مثقفا ثقافة واسعة فهو عـالم في الجغرافيا والطبيعة والسياسة ، وتوفى في حوالى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م .

ولم يكن زرياب الشخصية الوحيدة التي برزت بوضوح في عصر عبد الرحمن الأوسـط فقد ظهر أيضا عباس بن فرناس وكان ذا براعة في الكيمياء وله طريقة خاصة في صناعـة الزجاج من طحين الأحجار ، وصنع آلة تعرف "بالميقاته" لمعرفة الوقت تعتمد على الظـل ، وكان عالما في الرياضيات والفلسفة والشعر ، وقد حاول ابن فرناس الطيران فصنع لنفسـه كساء من الريش ذي جناحين كبيرين يضع فيهما ذراعيه وقفز من أعلى تل قرب بلنسـية غير أن محاولته لم يقدر لها النجاح ويقال أن محاولة ابن فرناس هي الثانية مـن نوعـها في تاريخ البشر بعد اليوناني إيكاروس .

ومن الشخصيات الأدبية البارزة في عصر عبد الرحمن الأوسط ، الشاعر الفيلسـوف يحيى ابن حكم الجياني المعروف بالغزال لجمال هيئته واناقته وهو عربي من بكر بن وائـل ، و[illegible] الجد بالهزل ساخرا من الدنيا ولايكف عن مهاجمة الفقـهاء والتنـدر بـ[illegible]ـهم ومن ثم فقد إتهمو، بالزندقة فهرب إلى المشرق ولقى الشاعر أبا نواس ثم عـاد إلى الأندلس وأصبح من ندماء عبد الرحمن بن الحكم وجعله سفيرا له لدى الملوك .

وبنى عبد الرحمن بقرطبة دارا للسكة وضرب الدراهم باسمه ، ونظم الحكم إذ إتخذ مجلس وزراء جعل له رئيسا باسم الحاجب ، وجعل له ولمرءوسيه من الوزراء بيتا فى قصره وجعل الأمر شورى بينهم ، وإختص كل منهم بشأن من شئون الدولة فوزير للمال ويسمى الخازن ووزير للمظالم ووزير للثغور أو الحرب ، وعنى عبد الرحمن بالخطط -الخطة فى الأندلس تعنى الوظيفة الكبيرة - وقد تكون للوزارة خطة واحدة كخطة المظالم ويراد بها النظر فى الشكاوى ، وكانت أهم الخطط خطط القضاء وأجلها خطة قضاء الجماعة بقرطبة، وصاحبها كان يشبه وزير العدل حاليا وكان يختار قضاة المدن الأندلسية الأخرى والأقاليم ، وينظر فى شئون القضاة وأعمالهم ، ويعتبر ثالث شخصية بعد الأمير والحاجب ، ويلى خطة قاضى القضاة خطة صاحب الرد فيما إسترابه الحكام وردوه عن أنفسهم ، وخطة الشرطة الوسطى وقد تسمى الكبرى وكان لصاحبها الضرب على أيدى أصحاب الجاه فى الظلامات ، وخطة الشرطة الصغرى وكان صاحبها ينظر فى شكاوى وظلومات العامة ، وخطة السوق لصاحب الحسبة المشرف على الأسواق ، وحرص عبد الرحمن الأوسط على الرجوع إلى عدد كبير من القضاة والفقهاء ذوى العلم الواسع يسمون الفقهاء المشاورون لا يحيد عن مشورتهم خاصة فى الشئون الدينية وكان يحيى بن يحيى الليثى كبير الفقهاء المشاورين فى أيام عبد الرحمن الأوسط .

وفى أيامه اندلعت الثورات فى معظم بلدان الأندلس فى طليطلة وقرطبة وكانت ثورة شعبية شابهت ثورة الربض فى عهد أبيه الحكم بن هشام ، وذلك بعد مبايعة عبد الرحمن بأيام قلائل ، لكنه قضى عليها ، وإندلعت فتنة أخرى فى ماردة بقيادة رجل من البربر يدعى محمود ابن عبد الجبار وإتسع سلطانه حتى شمل بطليوس وباجة واكشونبة ، ونجح عبد الرحمن فى القضاء عليها أيضا .

كذلك أوقف عبد الرحمن الفرنجة من التوسع فى أراضى المسلمين وهزمهم فى مواقع عديدة فقد هاجم نصارى الشمال فى غالسيا وتوغل فى أراضى مملكة ليون حتى وصل

بنبلونة وسبى من أهلها الكثير وأجبر البشكنس وحلفائهم على الإذعان ، وعاد من آخـــر حملاته إلى قرطبة ظافرا فى ١٥شوال سنة ٢٢٨هـ/ ٢٠مايو ٨٤٢م .

وفى سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م هاجم النورمانديين وهم سكان اسكنديناوة ودانيماركـة ، سواحل الأندلس الغربية والجنوبية ، وكانوا يشعلون النار فى كل مكان يحلون فيه ، وكـان أول ظهور لهم فى مياه أشبونة فى نحو ثمانين مركبا ، فدافعهم أهلها فـانحدروا جنوبـا إلى قادش ثم شذونة ، ووصلوا إلى مصب نهر الوادى الكبير فإستولوا على جزيـرة قبطيـل ثم دخلوا فى النهر حتى بلغوا إشبيلية ونهبها النورمان وأحرقوا الكثير من ديارها وعاثوا فيـها فسادا وأمعنوا فى القتل والسلب والنهب وأحرقوا المسجد الجامع ، وظلوا على ذلك نحـو سبعة أيام ثم عسكروا بظاهر إشبيلية ، وبلغ الأمر عبد الرحمن الوسط فأرسل بقواتـه إلى إشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب وعبد الرحمن بن رستم وبعد قتال مرير إنهزم النورمان سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م وقتل منهم نحو ألف قتيل وأسر المسلمون أربعمائة رجل وأحـرق مـن سفنهم ثلاثين سفينة ، وولت فلولهم إلى المحيط الأطلنطى فوصلوا إلى أشبونه ، ثم غـادروا الأندلس .

وكان من نتيجة الغزو النورمانى أن عنى عبد الرحمن ببناء الأسطول لحراسة الثغور على المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط ، وبناء التحصينات البحرية والأسـوار ، فـأمر بإنشـاء الأسطول وإتخذ له دور الصناعة فى إشبيلية وولبة والمرية ومالقـة والأشـبونة ، وزودهـا بالآلات والقوارير التى تقذف النفط على سفن الأعداء ، فضلا على المحارس الـتى أقامـها على طول السواحل الأندلسية خاصة الغربية .

واستطاع عبد الرحمن الأوسط بهذا الأسطول فتح جزائر البليار (ميورقـة ومنورقـة ويابسة) سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م وضمها إلى الأندلس .

وفى أواخر أيام عبد الرحمن أشعل المتعصبون من أحبار النصارى فتنة دينية ضد الإسلام والمسلمين وهى المعروفة بفتنة المستعربين المتطرفين ، وأثاروا بعض القسس والشباب فكانوا يجاهرون بسب الإسلام ونبيه ويختلقون الأقاويل المبنية على الخرافات والأباطيل كرها للإسلام وحقدا على أهله من ناحية ، ولجهلهم بتعاليم الإسلام وتعصبهم وتطرفهم من ناحية أخرى . وقد إعتبر هؤلاء أن أقصر طريق إلى الإستشهاد هو سب الرسول صلى الله عليه وسلم علنا فى مكان عام كالمساجد والميادين ، وكان رجال الشرطة يقتادونهم إلى القضاء فيحاولون إستتابتهم دون جدوى فيحكمون عليهم بالإعدام وكان هذا غرضهم أن يموتوا فى صورة الشهداء وقد كثر خروجهم إبتداء من سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م وظهرت من بينهم رهبان أصبحوا بعد ذلك قديسين فى سجل الكنيسة مثل "يولوج والبارو وفلورا" وللقضاء على هذه الفتنة أمر عبد الرحمن بعقد مجمع دينى للنصارى فى قرطبة يضم أساقفة الأندلس وأعلن الجميع بإستثناء أسقف قرطبة إستنكارهم لهذه الفتنة وإعتبارها حركة خارجة عن تعاليم الكنيسة .

وفى عهد عبد الرحمن صارت الأندلس قوة يخطب العالم ودها ففى سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م كان للأندلس علاقات دولية مع الدولة البيزنطية فى عهد الإمبراطور ثيوفيلوس فقد أرسل إلى الأمير عبد الرحمن السفير اليونانى قرطيوس بهدايا فاخرة ورسالة ودية يلتمس فيها المساعدة من عبد الرحمن ضد العباسيين الذين أنزلوا ببيزنطة ضربات قوية فى منطقة آسيا الصغرى ، وطالب ثيوفيلوس مساعدته ضد الأغالبة فى صقلية والربضيين فى جزيرة كريت ، وقد إستقبل الأمير عبد الرحمن الأوسط سفارته بالترحاب ، وأرسل الشاعر يحيى الغزال رسولا إلى البلاط البيزنطى ومعه بعض الهدايا للإمبراطور ، وقد قضى الغزال فى سفارته ثلاث سنوات ، ويقال أن الغزال قد كسب محبة رجال القصر البيزنطى كما أعجبت به سيدات القصر .

توفى عبد الرحمن الأوسط فى ٣ربيع الآخر ٢٣٨هـ/٢٣سبتمبر ٨٥٢م بعد أن حكم نحو إحدى وثلاثين سنة تعتبر من أزهى عصور التاريخ الإسلامى فى بلاد الأندلس بفضل

سياسته الحكيمة وجهوده المتواصلة فى تثبيت أركان الدولة الأموية فى الأندلس فقد قضى على الفتن الداخلية وأمن الأندلس من غارات نصارى الشمال وشهد حكمه نهضة حضارية فى مختلف الميادين حتى غدت الأندلس تضاهى الدولة العباسية .

تولى الإمارة بعد عبد الرحمن ولده الأمير محمد بعهد منه وطالت إمارته فى الأندلس (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م) وكان محبا للعلوم مؤثرا لأهل الحديث حسن السيرة ، وكان مثل أبائه يحسن معاملة المسيحيين وأفسح الطريق للمستعربين منهم للوصول إلى المناصب العليا فى دولته فقد عين قومس بن أنطونيان متولى جمع الضرائب من أهل الذمة كاتبا له سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م و لم يلبث أن أسلم ويذكر أن الأمير محمد قد أعفاه أثناء إعتناقه النصرانية من العمل يوم الأحد وأعفى كذلك جميع النصارى وأصبح ذلك عاما فى الأندلس من بعده .

وفى عهد محمد بن عبد الرحمن حدث كثير من الثورات الداخلية فى مختلف بلاد الأندلس فثار أهل طليطلة بعد ولايته مباشرة سنة ٢٣٨هـ وإستعان أهلها بنصارى الشمال فى ليون ونافار فأوقعت بهم قوات الأمير محمد سنة ٢٣٨هـ وقتلت عشرة آلاف، وإستولى على عدد كبير من الأسرى بينهم كثير من القساوسة ، غير أن الثورة عادت من جديد سنة ٢٤٠هـ وإستعانوا بأردونيو بن الفونسو الثانى ملك جليقية وأشتريش فبعث إليهم أخاه غثون فى جمع عظيم من النصارى فلما علم بذلك محمد بن عبد الرحمن قاد جيشه وتوجه إلى طليطلة وإستطاع أن يلحق بالنصارى وأهل طليطلة هزيمة قاسية ، وأمر محمد عبد الرحمن بتخريب دفاعات وحصون طليطلة ، وتبين لأمير الأندلس أنه لابد من تحصين طيـ ن جهة الشمال فأنشأ خط من الحصون لوقف تقدم نصارى الشمال جنوبا ويشعر أهل طليطلة بعدم جدوى محالفتهم للنصارى . وكانت أول مراكز هذا الخط مجريط وهى ريد حاليا فى شمال شرق طليطلة ثم طلمنكة ووادى الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب م سرقسطة وسمى هذا الخط بوادى الحجارة .

وإندلعت الثورة فى الثغر الشمالى فى ألبة والقلاع سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م فسار إليها محمد ابن عبد الرحمن بقواته سنة ٢٤٠هـ/٨٥٥م ففتح كثيرا من حصون النصارى فى تلك المناطق وتعددت حملاته إلى الثغر الأعلى وقد كانت قواته تعود إلى قرطبة مكللة بالنصر .

وإستطاع أمير الأندلس القضاء كذلك على ثورات المولدين والمتمردين فى ماردة وبطليوس ومالقة ومما لاشك فيه أن هذه الثورات قد استنفذت جهدا كبيرا من نشاط محمد ابن عبد الرحمن وقوة الدولة الأموية . وقد استغل النورمان ذلك فأغاروا على شواطىء الأندلس الغربية والجنوبية حتى وصلوا إلى مصب نهر الوادى الكبير ثم إلى الجزيرة الخضراء غير أن الأسطول الأندلسى تصدى لهم فاتجه النورمان إلى الساحل الشرقى للأندلس غير أنهم فشلوا أيضا فى القيام بعمل كبير سوى الإغارة والفساد فى شواطىء الأندلس ثم إرتدوا فى النهاية نحو الشمال ووصلت قواتهم إلى بنبلونة عاصمة مملكة نبرة أو نافار ونهبتها وكانت هذه هى آخر محاولة قام بها النورمان ضد الأندلسيين سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م إذ تبين لهم أن الأسطول الأندلسى قادرا على التصدى لأى غزو من جانبهم .

ومن أهم الثورات التى أنهكت الدولة الأموية ثورة عمر بن حفصون فى مالقة وهو من المولدين من أسرة فقيرة وإمتد نفوذه إلى شذونة وجيان وإستجة وغيرها فى جنوب الأندلس ويرجع جل المؤرخين أن أسباب ثورة ابن حفصون ترجع إلى سوء معاملة عمال الدولة الأموية العرب مع عامة المرية وغرناطة وتدمير ومعظمهم من المولدين ، وأن السبب المباشر لهذه الثورة هو تشدد عامل "رية " – وهى كورة واسعة متصلة بالجزيرة الخضراء ، وتقع جنوبى قرطبة – فى جباية الأموال المتأخرة وقد بدأ المولدون تمردهم سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م بزعامة ابن حفصون الذى نزل فى مكان حصين بجبل " ببشتر " شمال شرقى رندة ، فأرسل إليه محمد بن عبد الرحمن وزيره هشام بن عبد العزيز فإستطاع إستنزال ابن حفصون وضمه إلى ضباط الجيش الأموى ، وإشترك فى بعض الحملات ضد نصارى الشمال ولكن هشام ابن عبد العزيز أساء إليه فعاد ابن حفصون إلى التمرد سنة ٢٧١هـ/٨٨٤م وسار إليه

المنذر بن محمدبن عبدالرحمن ويقال أنه كان على وشك الإستيلاء على حصن ابن حفصون فبلغه الخبر بوفاة والده أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن فعاد إلى قرطبة .

وخلف محمداً فى حكم بلد الأندلس إبنه المنذر فى شهر صفر ٢٧٣هـ/يوليو ٨٨٦م وإستمر فى الحكم لمدة عامين شغل فيهما بحرب عمر بن حفصون فى قلعة ببشتر شمال شرقى جبال رندة بين مدينتى رندة ومالقة وحصره فيها غير أنه توفى أثناء الحصار سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م وخلفه أخوه عبد الله بن محمد .

تولى عبد الله الحكم فى فترة من أشد فترات الحكم الأموى فتنة فى الداخل وزاد من خطورة الأحوال أن الثورة إمتدت إلى القبائل العربية والبربر فى جهات متعددة فى الأندلس، وإندلعت الفتن فى الأندلس بين العرب والمولدين والبربر بل وبين العرب أنفسهم ، ورأى كل فريق من هؤلاء أن يستقل بما تحت يده من النواحى والأقاليم ، ولم يبق لعبد الله بن محمد من نفوذ سوى قرطبة . وقد أمضى عبد الله حكمه فى حروب متصلة مع أولئك الثوار ، ويسمى المؤرخون هذه الفترة والتى تمتد من أواخر عهد عبد الله إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر بفترة الفتنة الأولى .

ففى سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م إستطاع جيش عبد الله بقيادة عبيد الله محمد بن أبى عبده إيقاع هزيمة قاصمة بعمر بن حفصون وإستولى على حصن بلى القريب من مدينة استجة وأجبر ابن حفصون على التحصن من جديد فى ببشتر والمناطق الجبلية الجنوبية وتكرر هجوم الأمير عبد الله على معاقل ابن حفصون الأمر الذى ضاعف من حنقه على حكومة قرطبة فيقال أنه إعتنق المسيحية سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م وإتخذ لنفسه إسما نصرانياً هو صمويل، وكان من نتيجة ذلك أن إنفض من حوله كثير من أنصاره فتوجه إلى الفونسو الثالث ملك ليون (٢٥٢-٢٩٦هـ/٨٦٦-٩١٠م) للتحالف معه وبعض المنشقين على الدولة الأموية ولم يقدر لحملات الأمير عبد الله النجاح فى القضاء على ابن حفصون وإستمرت الحروب معه حوالى ثلاثين عاما ، وإشتعلت الثورات فى شذونة وجيان وباجة

وغرناطة وهذا هو الدور الثانى للفتنة ، وقد نجح عبد الله فى إخماد بعضها وإستمر البعض الآخر حتى عهد عبد الرحمن الناصر . كما إشتعلت الثورة فى الشرق وتركزت فى كورة إلبيرة سنة ٢٧٥هـ/٨٨٩م حيث إستفحل خطر العرب وإضطر عبد الله لمهادنتهم نظرا لإنشغاله بالقضاء على ثورة المولدين فى الجنوب .

وإندلعت الفتنة فى إشبيلية بين البيوت العربية والأسر الطامعة فى الحكم وطال النزاع بين بنى خلدون وبنى حجاج فأرسل عبد الله حملة إلى إشبيلية سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م إستطاعت أن تحطم قواهم حتى أذعنت المدينة له وهدأت الفتنة فى نهاية الأمر بإنفراد بنو الحجاج فى إمارة إشبيلية .

كما أثار البربر فتنة أخرى فى طليطلة وشاركوا فى إثارة الفتن فى بطليوس وماردة وظلت هذه المناطق ترفع راية العصيان حتى إستطاع عبد الرحمن الناصر أن يقر الأوضاع فيها .

ويبدو أن عبد الله قد إستعان بأمراء الثغر الأعلى فى محاربة نصارى الشمال فى جليقية وألبة والقلاع وبنبلونة فقد إستطاع لب بن محمدبن القسوى حاكم تطيلة وطرسونة أن يهزم قوات الفونسو الثالث ملك جليقية عند طرسونة سنة ٢٨٥هـ/٨٩٨م وأن يقتل منها ستة آلاف ، كما إستطاع أحمد بن معاوية ويعرف بالقط هزيمة الفونسو الثالث فى سمورة غربى قلعة أيوب والواقعة على نهر دويرة سنة ٢٨٨هـ/٩٠١م ويبدو أنه كان يريد الحكم لنفسه فأعلن أنه المهدى لكن زعماء البربر خانوه وإرتدوا منهزمين فكر الفونسو على أحمد ابن معاوية وقتله وعلق رأسه على باب سمورة وصار هذا اليوم يعرف بيوم سمورة . ويتضح من خلال النصوص أن السلام قد ظل بين جليقية وقرطبة بعد ذلك حتى وفاة الأمير عبد الله سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م .

عبد الرحمن الناصر

الخلافة الأموية بالأندلس

أصبح عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله والذى أشتهر بإسم الناصر أميرا على بلاد الأندلس فى ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ/أكتوبر ٩١٢م بعد وفاة جده عبد الله ، وكان الأخير قد اختار محمدا أكبر أولاده لولاية العهد فقتله أخوه مطرف كما يذكر ابن عذارى، وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأحد وعشرين يوما فى ٢٢رمضان سنة ٢٧٧هـ/ديسمبر ٨٩٠م ، فكفله جده بالرعاية والعطف ، وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته فى مختلف العلوم ، ومهر فى فنون الحرب والفروسية ، وتعلقت أمال أهل الدولة الأموية بعبد الرحمن وفى يوم وفاة جده بويع بالإمارة وكان أول من بايعه أعمامه وأعمام أبيه ويقال أن الذى جعل أعمام عبد الرحمن يقرون بيعته هو شعورهم بأن منصب الأمير كان منصبا مثقلا بالمتاعب والمسئوليات ولهذا فقد تركوه دون صعوبة لعبد الرحمن .

كانت الأندلس فى حاجة ماسة إلى شخص قادر على أن يعيد الأمور إلى نصابها بعد أن مزقتها الفتن والإضطرابات وتجاذبتها الأعاصير من كل اتجاه ، وكان عبد الرحمن الذى إستطاع بالذكاء وحسن التدبير أن يعيد بناء الدولة الأموية .

ففى شهر جمادى الأولى سنة ٣٠٠هـ/يناير ٩١٣م بعث عبد الرحمن حملته الأولى بقيادة بدر بن أحمد ، فإسترجع مدينة أستجة التى كان ابن حفصون قد ضمها إليه. وفى شهر شعبان ٣٠٠هـ/مارس ٩١٣م توجه عبد الرحمن بقواته جهة جنوب شرق الأندلس حيث كان عمر ابن حفصون يبسط سلطانه على بعض المدن والحصون فيما بين رندة ومالقة ووجه بعض قواده إلى كورة رية التى يهددها ابن حفصون فإستولت عليها وإستولت كذلك على حصون مونتلون وفتيشه وشمنتان بعد أن أمن أصحابها ثم إستولى عبد

الرحمن على وادى آش ووصل بقواته إلى ساحل البحر عند شلوبينية وعاد بعد ذلك إلى قرطبة فى عيد الأضحى سنة ٣٠٠هـ/يوليو٩١٣م ويقال أنه إستولى على سبعين حصنا من حصون الثائرين .

وفى سنة ٣٠١هـ/٩١٤م سار عبد الرحمن الناصر إلى جبال رندة وفيها المعقل الرئيسى لابن حفصون فى ببشتر فإستولى على عدد من الحصون المؤدية إلى هذا الحصن ووصل عبد الرحمن إلى الجزيرة الخضراء فى جنوب الأندلس .

كانت إشبيلية من الكور التى عاونت ابن حفصون على إستمرار تمرده ، ومن ثم أرسل عبد الرحمن قائده القاسم بن الوليد إلى إشبيلية وكان زعيمها وقتئذ أحمد بن مسلمة بن الحجاج فرغب فى الإستسلام فأجيب إلى ما طلب وأرسل عبد الرحمن قائده بدر بن أحمد إلى مدينة إشبيلية فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٠١هـ/ديسمبر ٩١٤م وإنهارت بذلك دعائم الثورة بها .

ظل عبد الرحمن الناصر يضيق الخناق حول ابن حفصون بالإستيلاء على المدن والحصون التى ساندته فى ثورته ضد الدولة الأموية ، فإستولى عبد الرحمن على جيان والبيرة ولبلة وفى سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م توفى عمر بن حفصون فى قلعة ببشتر ودفن فى كنيستها .

كانت وفاة ابن حفصون ضربة شديدة للثورة فى بلاد الأندلس فقد أيقن بقية الثائرين أنه لا مفر من العودة إلى حكومة قرطبة فأخذ الكثيرون يعودون إلى الطاعة ، ولم يغفل الناصر عن مطاردة أبناء ابن حفصون ، فغزت قواته شذونة وفى سنة ٣٠٦هـ/٩١٩م وإستولت على كل الحصون المحيطة بحصن ببشتر وفى سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م سار عبد الرحمن إلى ببشتر وإستولى على هذا الحصن وحول كنيسته إلى مسجد ،كما وجه عبد الرحمن قواته للقضاء على الثائرين فى طليطلة وبطليوس سنة ٣١١هـ/٩٢٣م فإستسلم عبد الرحمن بن مروان الجليقى الثائر فى بطليوس سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م وإستسلمت طليطلة

بعد حصار عبد الرحمن الناصر لها سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م ومن ثم فقد عادت السكينة إلى الأندلس بفضل جهود عبد الرحمن الناصر .

بعد أن قمع عبد الرحمن الثورات الأندلسية وبسط سلطانه عليها رأى أن يعلن نفسه خليفة لأنه أحق بها من غيره ، فلقب نفسه بلقب " أمير المؤمنين " بدلا من لقب الأمير الذى ورثه عن أسلافه الأمراء الأمويون ، وعهد إلى أحمد بن بقى صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذى الحجة سنة ٣١٦هـ/يناير ٩٢٩م وفى اليوم الثانى ٢ذى الحجة أصدر الخليفة منشورا إلى عماله فى الكور والمدن الأندلسية يقول لهم فيه "وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا ، وردودها علينا كذلك . إذ كل مدعو بهذا الإسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومقسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه ، وإسم ثابت أسقطناه ، فمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله " .

كذلك أمر عبد الرحمن بإثبات عبارة " الناصر لدين الله أمير المؤمنين " فى دنانيره ودراهمه وطرزه وأعلامه . وهكذا إتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة ، فكان أول أمير من بنى أمية بالأندلس ينعت بأمير المؤمنين ، وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبنى أمية بألقاب الخلافة فى الأندلس والمغرب الأقصى .

أما أسباب إعلان عبد الرحمن نفسه خليفة فيمكن إجمالها في نقاط منها ضعف الخلافة العباسية فى المشرق أيام الخليفة المقتدر وإستبداد القادة الأتراك بها وعدم مقدرة الخلفاء على السيطرة على العالم الإسلامى ، وقيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب وهى خلافة شيعية لا تعترف بالعباسيين وكانت ترنوا إلى الأندلس بعين لاتخلو من طمع مما دفع عبد الرحمن إلى إعلان الخلافة فى الأندلس لدفع خطر الفاطميين ، وضعف هيبة الأمير الأموى فى قرطبة بعد ما شهدته الأندلس من فتن وإضطرابات فكان تحويل الإمارة إلى خلافة إضفاءا للهيبة

السياسية والدينية على الحكم أمام الرعية ولا سيما أن تلك الثورات الداخلية قـــد قضـــى عليها فى بداية عهد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله .

ومما لاشك فيه أن عبد الرحمن الناصر كان من أحق أمراء الإسلام بلقب الخلافـــة فى ذلك الوقت حتى أن الأندلسيين أنفسهم طلبوا من عبد الرحمن إعلان نفسه خليفة وأفـــتى الفقهاء بجواز هذا الإعلان ، وقد إستتبع ذلك تغير كبير فى شكل خلافة الأندلس ونظامـها فوضع الناصر نظما إدارية جديدة لإضفاء الهيبه على دولته فإزداد البلاط القرطبى ضخامـــة ووجاهة وكثر الوزراء والقواد وتعددت مراتبهم وعمل على أن تكون السلطة كلها بيـــده يولى من يشاء ولا يسمح بشيء من الإستقلال الداخلى لولاة الأقاليم وعلى الرغم من ذلك فقد كان الناصر رجلا سمحا لا يتدنى إلى العدوان على الأموال والدماء ويقال أنه لم يقتـــل وزيرا أو إستصفى مال إنسان أثناء مدة خلافته الطويلة .

وبلغ من إحتفاء الناصر بأبهة الخلافة أن بنى لنفسه وأهل بيته وحاشيته وجنده عاصمـــة ملوكية فقصد مهندسوه إلى جبل العروس المطل على قرطبة من الناحية الجنوبية الغربية على بعد ستة كيلو مترات وأشاروا عليه بإنشاء مدينة على أعلى سفح الجبل ومن ثم بدأ عبـــد الرحمن الناصر فى بناء مدينة الزهراء فى أول شهر المحرم سنة ٣٢٥هـ/١٩نوفمـــبر ٩٣٦م وعهد فى الإشراف علي بنائها إلى إبنه الحكم المستنصر وتأنق غاية التأنق فى بناء قصـــره ، وبنى لكل ولد له قصرا فيها مقرونا ببستان وإختار له بعض المتخصصين فى عمل البســـتنة للقيام بشئونه وبعض المعلمين لتربية وتعليم أبنائه ، وعنى بالمسجد الجامع فى قرطبة فى إتجـاه الجنوب زيادة ضاعفت حجمه وهدم صومعة هشام وبنى صومعة جديدة صـــارت مثـــالا يحتذى فى بناء المآذن فى الأندلس والمغرب وقد حفر أساسها حتى وصل الحفـــر إلى المـــاء لإستحكام البناء .

وإستمر العمل فى المئذنة ١٣ شهرا وتتميز بأن لها مطلعين منفصلين متلاصقين بينهما جدار ، ولا يتصلان إلا فى أعلى بنائها ولكل مطلع ١٠٧ درجة . وإنتهى العمل فى المئذنة سنة ٣٤٠ هـ/٩٥٠م وكانت قاعدتها مربعة وضلعها ٨,٤٨م وإرتفاعها حوالى ٤٠م .

وقد نصب فى أعلى المئذنة ثلاث تفاحات فوق بعضها الأولى والثالثة من الذهب والوسطى من الفضة وفوق كل تفاحة شكل مسدسى من الذهب الخالص ، وإرتفاع كل تفاحة ثلاثة أذرع ونصف وكان جدار المئذنة المطل على صحن الجامع وبيت الصلاة مزدانا بثلاثة صفوف من النوافذ المزدوجة بينما كان فى الجدران الأخرى صفان فقط من النوافذ .

كانت الدولة الفاطمية قد قامت فى بلاد المغرب قبيل حكم الناصر وقضت كما سبق ذكره على دولة الأغالبة ودولة الرستميين ، ثم تطلع الفاطميون إلى غزو المغرب الأقصى وبلاد الأندلس ، وكان نجاح الفاطميين فى بث الدعاية الشيعية فى بلاد الأندلس والتجسس على أحوالها عن طريق بعض عيونهم أمثال ابن حوقل من الأسباب الرئيسية التى جعلت عبدالرحمن الناصر يبادر إلى إعلان نفسه خليفة للمسلمين ، ليضفى على سلطانه مهابة ولبث بذور الفتنة بين القبائل البربرية المغربية .

وكان الخطر الحقيقى على الحكم الأموى من جهة الفاطميين هو إمتلاكهم قوة بحرية هائلة على سواحل المغرب خاصة وأن الخليفة المهدى الفاطمى بنى دارا لصناعة السفن فى المهدية كانت غاية فى القوة ، ومن ثم عمل عبد الرحمن على إنشاء الأسطول الأندلسى لحراسة السواحل الأندلسية ولمنع نفاذ السفن الفاطمية إلى سواحل بلاده لمساعدة عمر بن حفصون الثائر فى جنوب الأندلس ، ويقال أن الناصر أشرف بنفسه على تحصين سواحل بلاده الجنوبية المواجهة للمغرب ، فذهب إليها سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م وأشرف على تحصين الجزيرة الخضراء وطريف .

كما إستولى الناصر على بعض موانى المغرب المطلة على مضيق جبل طارق لأهميتها مثل مليلة سنة ٣١٤هـ/٩٢٧م وسبتة سنة ٣١٩هـ/٩٣١م كما إستولى على طنجة وبذلك سيطر الناصر على مضيق جبل طارق .

كذلك وطد الناصر علاقاته مع أعداء الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب وأمدهم بالمال والعتاد ، فقد ساند الثائر الزناتى أبو يزيد مخلد بن كيداد الذى قاد ثورة ضد الفاطميين فى الجزائر وتونس ضد الفاطميين ، وأعلن الطاعة للخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م فأمده بالمال والمساعدات العسكرية .

كما وطد الناصر علاقاته مع الدويلات الصغيرة فى بلاد المغرب الأقصى مثل الأدارسة وإمارة نكور فى منطقة الريف ، ومن ثم أعطى الخليفة الأموى الفرصة للتدخل السريع والمباشر فى بلاد المغرب لوقف الأطماع الفاطمية .

كما عمل الناصر على التحالف مع ملك إيطاليا جودى بروفانس الحانق على الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة ، كما تحالف مع الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع الذى تطلع إلى إستعادة جزيرة صقلية . ووطد عبد الرحمن الناصر علاقاته بحكام مصر الإخشيديين وأرسل مبلغا من المال وكذلك بعض فقهاء المالكية لمحاربة المذهب الشيعى .

وتحول العداء السياسى والمذهبى إلى حد الحرب بين الدولتين الفاطمية والأموية وكان أول صدام يجرى سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٤م عندما أسرت سفينة أندلسية كبيرة قاربا من قوارب البريد الفاطمية برسائل رسمية من جزيرة صقلية إلى المهدية فأمر المعز لدين الله الفاطمى بإعداد قوات برية بحرية يحملها أسطول صقلية بقيادة والى الجزيرة الحسن بن على وتكون مهمتها مهاجمة الأسطول الأندلسى فهاجم ثغر المرية فى جنوب شرق الأندلس ولم يكتف جند المعز بإحراق المركب الآثم بل أنهم إستولوا على المدينة وأحرقوا دار صناعة

السفن ومابها من مراكب وسفن ومعدات حربية وكانت المرية تعتبر مجمع المراكب والأساطيل الأموية ، فانتهبوا جميع ذخائرها وعادوا إلى المهدية .

وتمثل رد الفعل الأموى فى قيام الناصر بتجهيز أسطوله للقيام بعمل ثأرى فنزلت سفنه سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٥م بقيادة غالب مولاه ببعض السواحل الأفريقية تخرب وتنهب ، وفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٦م عاد الأندلسيون فى سبعين سفينة فخرب وأضرم النار فى مرسى الخزر فى المغرب الأوسط ثم هاجم وخرب سوسة وطبرقة شرقى بنزرت وعاد الأسطول الأموى سالما إلى الأندلس .

أما نصارى الشمال فقد شكلوا حلفا مسيحيا ضم ملك ليون أوردنيو الثانى وملك نافار شانشو الأول وتمكن المسيحيون من الإستيلاء على بعض المدن والأراضى المتاخمة سنة ٣٠٥هـ/٩١٦م ومهاجمة سرقسطة نتيجة الفتن والأضطرابات التى شهدتها الأندلس . ومن ثم قرر الناصر التصدى لخطر نصارى الشمال ونجح فى إستعادة كثير من المدن والأراضى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م ، لكن ملك ليون إستمر فى عناده متحينا الفرص مع حليفه ملك نافار للهجوم على الثغر الشمالى ومن ثم إستمرت الحروب بين النصارى وعبد الرحمن الناصر فترة طويلة واضطر عبد الرحمن الى الخروج مرة ثانية إلى الشمال على رأس جيش كبير من العرب والبربر والصقالبة وكانت القيادة لنجدة الصقلبى غير أن هذه الحملة إنتهت بهزيمة المسلمين سنة ٣٢٧هـ/٩٣٩م عند خندق مدينة شمنقة ويرجع بعض المؤرخين أن السبب فى هزيمة المسلمين هو حقد العرب على الصقالبة وإنقسام الجيش الأموى فى المعركة نتيجة لذلك ، فقتل القائد الاموى نجدة الصقلبى ونجا عبد الرحمن الناصر فى عدد قليل من رجاله ولم يحاول النصارى مطاردة فلول الناصر خوفا من الكمائن ورغبة منهم فى الإستيلاء على المغانم . غير أن عبد الرحمن الناصر سرعان ما أعاد تنظيم جيشه بعد هزيمته فى وقعة الخندق التى لم تثنه عن تجريد حملات عسكرية نجحت فى إنزال هزائم متوالية بنصارى الشمال انتقاما لما حدث يوم الخندق وفرض نفوذه على كل الجهات وتدخل فى شئون الممالك النصرانية .

وإستطاع عبد الرحمن الناصر أن يحمى السواحل والأراضى الأندلسية من خطر النورمان الذين إتخذوا من دوقية نورمانديا فى شمال غرب فرنسا نقطة إنطلاق لهم فهاجموا ثغر سرقسطة أكثر من مرة أيام عبد الرحمن الناصر لكنه إستطاع أن يمنعهم من تحقيق أهدافهم أو النجاح فى حملاتهم على الأراضى والسواحل الأندلسية .

وكانت للخليفة الأموى الناصر علاقات ودية مع دولة الفرنجة إقترنت بحسن الجوار وحلول السلام وتعددت الرسائل والسفارات بين الناصر والملك لويس الرابع ملك الفرنجة وكذلك تميزت العلاقات الأندلسية الألمانية بطابع الود فقد أرسل ملك ألمانيا أوتو الكبير سفارة إلى قرطبة وعلى رأسها السفير جان دى جورز سنة ٣٣٩هـ/٩٥٦م ورد الناصر عليها بسفارة برئاسة أحد الأساقفة من المستعربين وبقى السفير لدى أوتو الكبير نحو ثلاث سنوات ، ثم تبادلت السفارات بين الناصر وملك ألمانيا وكانت عادة تستغرق عدة سنوات.

على أى حال فقد أصبح بلاط الناصر قبلة للسفراء والمبعوثين يلتمسون توثيق عرى الصداقة مع الناصر بعد أن بلغت الدولة الأموية الأندلسية أوج قوتها ومجدها الحضارى ، وأخيرا توفى عبد الرحمن الناصر بعد حكم إمتد قرابة خمسين عاما وعمر ناهز الحادية والأربعين من عمره وذلك سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م .

تولى الحكم الثانى الملقب بالمستنصر بالله الخلافة الأموية بعد والده فى ٣رمضان سنة ٣٥٠هـ/١٤أكتوبر سنة ٩٦١م وكان فى السابعة والأربعين من عمره ، وقد إتجهت سياسته نحو الهدوء والإستقرار ، وكان الحكم رجل علم وحضارة يرعى العلوم ويعطف على العلماء وكانت أبوابه مفتحة لطلبة العلم ، وأنشأ فى القصر مكتبة كانت فهارسها تقع فى ٤٤ كراسة لا تضم إلا العناوين وقد قرر المؤرخون كتبها بنحو مليون مجلد ويقال أنها أعظم مكتبة إسلامية فى العصور الوسطى أنشأتها دولة وكان للحكم المستنصر مراسلوه الذين يوافونه بالكتب فى شتى المعارف وكان يجيزهم على ذلك بالمال الكثير ومن أمثلة

ذلك كتاب الأغانى لأبى الفرج الصفهانى فقد أرسل له الحكم ألف دينار ليرسل إليـــه أول نسخة من الكتاب .كما كان الحكم يقرأ الكثير من هذه الكتب ويقوم بالتعليق عليها بخـط يده وإعتبر بعض العلماء هذه الملاحظات أصولا تعتمد . ونتيجة لإهتمام الحكم بـــالكتب والدراسات العلمية أصبحت صناعة الورق من الصناعات الزاهرة وإشتهرت بعض البـــلاد الأندلسية بتلك الصناعة مثل بلنسية وطرطوشة وشاطبة وبلغت الأخيرة قمة الجودة فى هـذه الصناعة وبلغ من جودتها أن بعض الوثائقيين كانوا لايكتبون الوثـــائق إلا علـــى الـــورق الشاطبى فإشتهر فى العالم الإسلامى كله .

ولقد واجه الحكم المستنصر نفس المشاكل تقريبا التى واجهت عبد الرحمن النـــاصر . وكانت سياسته على نهج سياسة والده خاصة بالنسبة للفاطميين ونصارى الشمال . فقـــد حرص المستنصر على تأكيد سيادته على المغرب الأقصى عن طريق إحتلال القواعد المغربية المطلة على مضيق جبل طارق مثل سبته وطنجة تأمينا لحدود دولته مـــن خطـــر الدولـــة الفاطمية

كما حرص الحكم على تحصين الثغور والموانىء الأندلسية الشرقية والجنوبية المواجهـــة للفاطميين ، فأشرف بنفسه على تحصينات المرية سنة ٣٥٣هـ/٩٦٤م وأصبحت المريـــة أهم القواعد البحرية الأندلسية فى عهده ، وبلغ عدد السفن التى ترسو بها نحو ثلاثمائة سـفينة بحرية مجهزة للقتال .

. [illegible] إنتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م ، سببا فى تجـرأ الأدارسة ورفعهم راية التمرد وخلع طاعة الحكم الأموى بزعامة الحسن بن حنون ومـــدوا نفوذهم إلى طنجة وبعض المناطق المجاورة لها فأرسل الحكم قواته بقيادة وزيره وقائده غالب ابن [illegible] الرحمن فإجتاح معاقل الأدارسة وإضطر الحسن بن حنون إلى الإستسلام وذلـك فى جمادى آخر سنة ٣٦٣هـ/مارس ٩٧٣م فإستعاد الحكم سيطرته على المغـــرب الأقصـــى ونقل [illegible]ايا أسرة الأدارسة إلى قرطبة .

أما النورمان فقد عادوا من جديد بشن الغارات على سواحل الأندلس وجـــاءت أولى هجماقم سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م حيث هاجموا لشبونة بثمانية وعشرين سفينة تحمل أكثر من ألفى جندى ودارت معركة برية فى سهول لشبونة إستشهد فيها عدد كبير من المســـلمين وقتل مثلهم من النورمان غير أن الأسطول الأندلسى طارد السفن النورماندية وحطم الكثير منها .

أما بالنسبة لنصارى الشمال فقد أرسل الحكم قواته إلى الشمال فإجتـــاحت أراضـــى ممالك ليون وقشتالة ونافار ، وإستولت على بعض الحصون المتنازع عليها منذ أيام والـــده عبد الرحمن الناصر ، مثل قلعة شنت أشتبين سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م وأجبرحـــاكم قشـــتالة فرنان جونثالث على طلب السلام وإستطاع غالب أن يهزم جيوش ليون ونبرة فى موقعـــة أتينـــة وإستولى القائد يحيى التجيبى حاكم سرقسطة على مدينة قلهرة وعاثت قوات الثغـــور فى برشلونة وغنم المسلمون فى هذه الغزوات مغانم كثيرة ، وأجبر المستنصر نصارى الشمال على طلب الصلح والسلام .

قضى الحكم المستنصر سنواته الأخيرة فى العناية بالعلوم والآداب ولما أحس بدنو أجلـــه أخذ البيعة لإبنه هشام وكان فتى صغيرا قد تجاوز عمره عشر سنوات ، وما لبث الحكـــم أن توفى فى ٢صفر سنة ٣٦٦هـ/٣٠سبتمبر ٩٧٦ م بعد حكم دام نحو خمسة عشـــر عامـــا تاركا ابنه هشام وكان عند موته غلاما فى الثانية عشرة الأمر الذى تسبب فى زلزلة الدولـــة وعرضها لحكم الأوصياء والحجاب .

وقام بأمر المؤيد فى أول خلافته جعفر بن عثمان المصحفـــى حـــاجب أبيـــه الحكـــم المستنصر ، وإشتركت معه فيها " صبح " الملقبة بالبشكنسية وهى أم هشام وكانت شـــابة طموحة نافارية وكان محمد بن أبى عامر صاحب الشرطة وجعفر المصحفى يقوما بخدمـــة صبح وفى نفس الوقت لخدمة مصالحهما للوصول إلى السلطان حيث تيقنا بـــأن صبـــح فى

إستطاعتها أن تقربهما إليها . وأخذ ابن أبي عامر بعد سريعا لتفرده بالسلطة ، فإستعان على جعفر بصبح و لم يلبث أن أغرى المصحفى بالصقالبة وإستعان بالقائد غالب صاحب مدينة سالم على جعفر المصحفى فسجنه حتى هلك فى سجنه ، و لم يلبث محمد بن أبي عامر أن رقى إلى وزير ، ثم أصبح بمساعدة صبح حاجبا أى رئيسا للوزراء . وكان هشام بن الحكم قد بويع يوم الإثنين ٣صفر ٣٦٦هـ/أول أكتوبر ٩٧٦م بالخلافة ، ويقال أن المؤيد كان متخلفا شديد التخلف إلى حد البله ، فإنفرد ابن أبي عامر بالسلطان المطلق و لم تمر سنة حتى حجر على هشام المؤيد ، فلم يسمح لأحد برؤياه وأقنع أمه صبح بأنه يفعل ذلك محافظة على هشام المؤيد من المتآمرين عليه ، وذكر ابن حزم فى كتابه نقط العروس أن محمد بن أبي عامر فكر فى عزل الخليفة وتنصيب نفسه مكانه ، وإستشار بعض الفقهاء فإختلفوا بين مؤيدين ومعارضين ، فرجع عن عزمه وإكتفى بلقب المنصور ، سنة ٣٧١هـ/٩٨١م ودعى له على المنابر شأنه شأن الملوك ، وأخذ الوزراء ورجال الدولة بتقبيل يده عند المثول بين يديه ، وأضحى المنصور ملكا حقيقيا يحكم بإسم خليفة محجور عليه فى قصور الزهراء وقد أحاطها بسور وخندق حتى لا يدخل إليها أحد إلا بإذن .

ورأى المنصور أن يتخذ لنفسه جيشا من البربر ، فإستقدم منهم آلافا وأدخلهم فى خدمته وقد حرص المنصور على أن يحط من قدر الجنود الأندلسيين وأن يظهر فى كل مناسبة أن جنده أمهر وأقدر منهم مما أدى إلى حقد وكراهية الأندلسيين للبربر مما تسبب فيما بعد فى سقوط دولة بنى أمية وقيام دويلات الطوائف .

ولما تخلص المنصور من صبح فحبسها فى قصرها حتى ماتت ، وفى نفس الوقت إضطهد أفراد البيت الأموى وقتل الكثيرين من رجاله ، وهرب من إستطاع الفرار حتى قضى على كل من يصلح للولاية منهم .

وغزا المنصور الممالك المسيحية فى شمال الأندلس حتى بلغت غزواته إثنتين وخمسين غزوة خلال ٢٤سنة لايكاد يفرغ من غزوة إلا إستعد للأخرى ، وقد حقق المنصور

إنتصارات باهرة فى هذه الغزوات العديدة ، ففتح معاقل إمتنعت على من سبقه ، وأعاد إلى الأندلس سابق مجدها زمن الناصر حيث ملأ الأندلس غنائم وسبايا فكانت سببا فى إزدهارها إقتصاديا .

أما سياسته تجاه المغرب فقد كانت تقوم على الإحتفاظ بالعدوة المغربية التى إعتمد عليها كثيرا فى إمداده بالقوات العسكرية اللازمة حيث جند فرقا كبيرة من البربر خاصة من قبائل زناتة ، وعمل جاهدا على القضاء على حركات المعارضة المسلحة التى تقوم ضد نفوذه فى المغرب الذى إمتد من سجلماسة حتى تلمسان وتاهرت .

ومن أهم أعمال المنصور المعمارية بناء مدينة الزاهرة سنة ٣٦٨هـ/٩٩٦م وتقع بالقرب من قرطبة وأنشأ بها قصرا ملكيا ومسجدا ودواوين للإدارة والحكم ومساكن للجند وأقام حولها سورا ضخما وأقطع ماحولها للوزراء وكبار رجال الدولة .

كذلك إهتم المنصور العامرى بتوسيع المسجد الجامع بقرطبة وكان السبب فى ذلك زيادة عدد سكان قرطبة وقد بدأ العمل فى المسجد سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م وإنتهى سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م و لم يتم التوسع جنوبا كما جرت العادة لأن المسجد كان قد إقترب من النهر و لم يتم غربا لأن قصر الخلافة كان من هذه الجهة وهكذا تم التوسع شرقا بإضافة ثمانى بلاطات على طوله من جهة الشرق ، فبلغت بلاطات المسجد فى شكلها النهائى تسعة عشر بلاطا ، وأضحى المسجد أعظم مساجد الإسلام من ناحية الحجم والهندسة حتى بلغت مساحته ٢٤٣٠٠متر مربع ، أى مايزيد على ستة فدادين وليس فى الدنيا مسجد ولاكنيسة بهذا الحجم .

وتوفى المنصور فى أقصى الثغور الشمالية بالقرب من مدينة سالم سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م وخلفه ابنه عبد الملك المظفر واستمر فى حكمه سبع سنوات وكان على شاكلة أبيه سياسيا بارعا ومحاربا شجاعا فقد قام بغزوات كبيرة ، فغزا قطلونية وبرشلونة سنة

٣٩٣هـ/١٠٠٣م وأرغم حاكمها رامون بوريل الثالث على طلـب الصلـح وفى سـنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م غزا أراضى مملكة ليون وفى العام التالى غزا مملكة نافار وإحتل بنبلونـة وفى سنة ٣٩٧هـ/غزا قشتالة ثم غزاها فى العام التالى وهزم النصارى ودمر حصونا كثـيرة لهم فى الشمال .

وفى سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م توفى عبد الملك بن المنصور مصابا بمرض الذبحة فخلفـه أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول ولم تكن مثل أبيه وأخيه فى حسن السياسـة وتدبـير الأمور فساءت أحوال الدولة فى عهده ويذكر ابن سعيد انه " كان نحسا على نفسه وعلـى هشام المؤيد وعلى أهل الأندلس " ، ويذكر النويرى أن شنجول " إفتتح أموره بالخلاعـة والمجانة . وكان يخرج من منية إلى منية ، ومن متنزه إلى متـنزه بـالملاهى والمضحكـين ، ويجاهر بشرب الخمر والتهتك " وفى نفس الوقت فرض كثيرا من الضرائب علـى أهـل الأندلس وزاد سخطهم عليه عندما أجبر هشام المؤيد باصدار مرسوما بتعيينه وليـا لعـهد الخلافة ، ومن ثم إتفق بنو أمية وأهل قرطبة على مبايعة محمد بن هشام بن عبد الجبار بـن عبد الرحمن الناصر وتلقيبه بالمهدى .

ويبدو أن شنجول أراد أن يقوى مركزه بغزوات يقوم بها ، فخرج فى شهر جمـادى الآخر سنة ٣٩٩هـ/ يناير ١٠٠٩م لغزو أراضى قشـ فإنتهز المهدى ورجاله الفرصـة وهاجموا دار الخلافة فقتلوا صاحب المدينة عبد الله بن عمرو المعروف بـابن عسـقلاجة العامرى ، وإقتحموا محلات الأسلحة ونهبوا سلاح الصياقلة والتراسين ، وأرغموا المؤيـد هشام على التنازل لإبن عبد الجبار عن حقه فى الخلافة ، وإستباح المهدى ورجاله مدينـة الزاهرة مقر العامريين فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٩٩هـ/ فبراير ١٠٠٩م .

قد إنتهى أمر شنجول بإلقاء القبض عليه وقتله فى شهر رجب سنة ٣٩٩هـ/مـارس ١٠٠٩م وانتهت بذلك فترة الحجابة العامرية فى بلاد الأندلس .

الفتنـــة الكبـــرى

شهدت الأندلس صراعاً يكاد يكون مستمراً بين الطامعين فى حكم الأندلس منذ ولاية المهدى وتمزقت وحدة الأندلس خاصة بعد أن أعلن أبو الحزم بن جـــهور إلغـــاء الخلافـــة الأموية الأندلسية سنة ٤٢٢هـــ/١٠٣١م .

فقد تولى المهدى أمر الأندلس فأساء التصرف لأنه ناصب البربر العداء وكـــانوا قـــوة كبيرة وسارعوا عقب مقتل شنحول بإعلان الطاعة للمهدى ولو أنه كان سياســـياً لقبـــل ولائهم ولكن بدلاً من ذلك نجد المهدى يحاول إستذلالهم ، إذ حظر عليهم ألا يركبـــوا ولا يتسلحوا بل منع زعيمهم زاوى بن زيرى الصنهاجي من دخول القصر ولم يكـــن ذلـــك حالهم فى الدولة العامرية لذلك كان من الطبيعى أن يتآمروا عليه ، فهاجموا قرطبة بقيـــادة زاوى بن زيرى فهرب المهدى إلى الثغور .

أما العسكر الصقلبى فقد تزعمه واضح الذى إستعان بالنصارى ، وقد عمت الفوضـــى وتدهورت الحالة الإقتصادية ، وإنتشرت المجاعات .

أما البربر فقد نصبوا ســـليمان بـــن الحكـــم المعـــروف بالمســـتعين خليفـــة ســـنة ٤٠٠هـــ/١٠٠٩م ، وبذلك أصبح فى الأندلس خليفتين فى وقت واحد وخرج المـــهدى ليلقى البربر وكان اللقاء فى شهر ربيع الأول سنة ٤٠٠هـــ/نوفمبر١٠٠٩م فى موقعة قنتيش وإنتهى الأمر بهزيمة الأندلسيين وفرار الصقالبة إلى شرق الأندلس وعلى رأســـهم واضـــح العامرى الذى إستقر فى دانية ، أما البربر فقد دخلوا مدينة قرطبة وعاثوا فيها فسادا وقتلـــوا الكثير من أهلها .

وبديهى أن يعود المهدى إلى قرطبة لإستعادتها من البربر ، فسار نحو قرطبة مستعينا بقوة من النصارى واستطاع هزيمة المستعين فى شهر شوال سنة ٤٠٠هـ/ مايو ١٠١٠م ، ففر البربر وتتبعهم المهدى فكان اللقاء بين الفريقين عند نهر وادى "أيرة" فى ذى القعدة ٤٠٠هـ/يونيو ١٠١٠م فهزم المهدى ومن معه من الأندلسيين والنصارى ، ودخل البربر قرطبة بعد مقتل المهدى فى ذى الحجة ٤٠٠هـ/ يوليو ١٠١٠م وأعلنت خلافة هشام المؤيد مرة أخرى لكن البربر لم يرضوا بذلك وتمسكوا بدعوة سليمان المستعين وذلك فى شهر شوال سنة ٤٠٣هـ/ مايو ١٠١٣م . ولكن المستعين قتل هشام المؤيد فى ١٥ذى القعدة ٤٠٣هـ/١٦مايو١٠١٣م .

ولم تستقر الأمور فى بلاد الأندلس بدخول سليمان المستعين قرطبة فقد توالت الفتن واحتدم الصراع بين العسكريين وكثر إغتيال الخلفاء وتنصيبهم إذ قتل المستعين على يد على ابن حمود سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٧م ولم يلبث أن قتل بيد غلمانه سنة ٤٠٨هـ/١٠١٨م وخلفه أخوه القاسم بن حمود وتلقب بالمأمون ، ونازعه فى سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م يحى بن على بن حمود وإستولى على قرطبة وتلقب بالمعتلى وفر القاسم إلى إشبيلية .

وإستمر يحى بن حمود فى قرطبة إلى أن خلعه أهلها سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٣م فعاد القاسم إلى قرطبة وفى سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م خلع القاسم بن حمود ، وبايع أهل قرطبة محمد بن عبد الرحمن وتلقب بالمستكفى بالله ويقال أنه لم يجلس على كرسى الخلافة أيام الفتنة أسقط منه وفى أيامه إستؤصلت بقية قصور جده الناصر فى الزهراء .

وفى سنة ٤١٦هـ/ ٢٥ [illegible] على يحى بن حمود على قرطبة فهرب المستكفى ومات ببعض الثغور ، ثم ثار القرطبيون على يحى سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م وبايعوا أبا بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الجبار وظل يتردد فى الثغور ثلاثة أعوام ثم سار إلى

قرطبة وتلقب بالمعتد بالله ، ثم خلعه وزراء قرطبة فى ١٢ذى الحجة ٤٢٢هـ/نوفمبر ١٠٣١م معلنين إلغاء الخلافة الأموية.

وفى ١٥ذى الحجة سنة ٤٢٢هـ/نوفمبر١٠٣١م أسندت رياسة قرطبة إلى أبى الحزم ابن جهور ، ويبدأ من هذا التاريخ من الناحية الرسمية عصر فتنة وصراع أسماه المورخون عصر ملوك الطوائف .

عصر ملوك الطوائف

تقوض الصرح الشامخ الذى شاده بالأندلس أمراء البيت الأموى وخلفاؤه ، ونشأ عن ذلك تفكك الدولة الأموية الأندلسية وإستقلال مدنها الكبرى بأعمالها وظهور دويلات هشة بزعامة بعض الثائرين عرفوا بإسم ملوك الطوائف .

إن إستقصاء بداية عصر الطوائف يشكل إختلافا بينا لإختلاف المصادر فى هذا الصدد ومن ثم إختلاف الدارسون فى تحديد ظهورهم .

ويقودنا هذا إلى طرح السؤال التالى ، متى بدأ عصر ملوك الطوائف ؟ وماذا كانت نظرة المورخين إليه ؟

سبق أن أشرنا إلى أن هذا العصر يبدأ من الناحية الرسمية فى سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م بخلع هشام المعتد بالله آخر خلفاء بنى أمية ، وإسناد حكم قرطبة مقر وعاصمة الخلافة الأموية إلى أبى الحزم جهور بن محمد وفى هذا يقول المقرى : " إنقطعت الدولة الأموية من الأرض وإنتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد إنقراض الخلائف ، وإنتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات ، وإقتسموا خطتها ، وتغلب بعض على بعض وإستقل أخيرا بأمرها منهم ملوك إستفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجزى

للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتز ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان حتى قطع إليهم البحر ملك العدوة وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى ، فخلعهم وأخلى الأرض منهم " .

وقد ذكر إبن عذارى فى سياق حديثه عن بداية التمرد والثورة ضد خلافة قرطبة إبان ثورة محمد بن هشام بن عبد الجبار ما نصه " لما إشتعلت نار الفتنة الكائنة بالأندلس فى ثورة بن عبد الجبار وثار كل رئيس بموضع ، ثار بن الأصلع بشنتمرية " ، كما أشار أيضا إلى ثورة مجاهد العامرى بمدينة دانية فى سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٨ م إذ يقول : " إنتزى هذا الرجل مجاهد على مدينة دانية فى أول الفتنة " . كما أشار إبن خلدون إلى إستبداد سليمان ابن هود بمدينة تطيلة منذ بداية الفتنة إذ يقول :" وكان أبو أيوب سليمان بن هود الجذامى مستبدا بمدينة تطيلة ولاها منذ أول الفتنة " .

أما الشطبى فقد حدد ظهور ملوك الطوائف بسنة ٤١٤ هـ /١٠٢٣ م فى كتابه الجمان فى أخبار الزمان إذ يقول : " ثم إنقرضت دولة بنى أمية فى الأندلس سنة سبع وأربعمائة وظهرت دولة الشرفا بنو حمود فأولهم على ثم القاسم ثم يحيى فكانت دولتهم سبعة أعوام وإنقرضت دولة الشرفا وظهر الثوار بالأندلس فى كل مكان ، فقام بإشبيلية بنو عباد ، وبقرطبة بنو جهور ، وبطليطلة بنو ذى النون ، وبغرناطة صنهاجة ، وبالمارية زهير وخيران وإبن صمادح ، وبسرقسطة بنو هود ، وببطليوس بنو مسلمة ، وبدانية مجاهد ، وإجتمعت البربر على إبن ذى النون فى قرطبة وكنيته المأمون وكان شديد الشوكة ملك طليطلة وما والاها إلى بلنسية " .

وقد تبع هؤلاء المؤرخين القدامى على رأيهم عدد من المؤرخين المحدثين منهم أحمد مختار العبادى الذى إتخذ سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م بداية لظهور ملوك الطوائف ، وحسين مؤنس الذى إتخذ من موقعة قنتيش فى ربيع الأول سنة ٤٠٠هـ / نوفمبر ١٠٠٩م، بداية لعصر الطوائف معتمدا فى ذلك على رواية إ . ليفى بروفنسال ، مناقضا لما

جاء فى رواية إبن الأبار نفسها إذ يقول فى كتابه الحلة السيراء : أن المهدى بعد هزيمته فى الموقعة المذكورة أعلاه : " ... لحق بطليطلة ، والثغور باقية على طاعته ودعوته من طرطوشة قاصية فى الشرق الأندلسى إلى الأشنونة فى غربها " .

ويستشف من هذه الرواية أن ابن الأبار لم يذكر أو يحدد ظهور ملوك الطوائف ، كما أن ابن الأبار ينقل عن الحميدى فى كتابه جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس وهو مصدر سابق عليهم ومعاصر لتلك الفترة ، ولم يشر إلى ظهور ملوك الطوائف فى تلك السنة ، إذ يذكر الحميدى ما نصه : " وكانت الثغور كلها من طرطوشة إلى الأشبونة باقية على طاعته -المهدى- ودعوته ، فإستجاش بالأفرنج ، وأتى بهم إلى قرطبة فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر إلى موضع بقرب قرطبة على نحو عشر ميلا يدعى عقبة البقر ، فإنهزم سليمان والبربر ، وإستولى المهدى على قرطبة " ، أما ابن بسام الذى ينقل عن ابن حيان أن وقعة قنتيش قتل فيها أكثر من عشرة آلاف قتيل من أهل قرطبة ، و لم يرد فى روايته ذكر لظهور ملوك الطوائف فى هذه السنة .

أما المستشرق سكوت فلم يحدد تاريخ ظهور ملوك الطوائف ، وإنما إكتفى بقوله أن سليمان بن الحكم كان رأس الفتنة البربرية التى أصابت الأندلس منذ استيلائه على الخلافة ، ومنذ ذلك الحين بدأ تفكك الخلافة الأموية ، وظهور الإمارات المستقلة .

والواقع أن إختلاف الدارسين فى تحديد ظهور ملوك الطوائف يرجع إلى إختلاف روايات المؤرخين القدامى والتى عرضنا بعضها ومن ثم سنتعرض بإيجاز لهذه الروايات ، ففيما يختص برواية إبن عذارى فتتضارب روايته مع رواية أخرى له فى حوادث سنة ٤٠٣هـ /١٠١٢م إذ يقول : " ولما إستولى البربر مع سليمان على قرطبة ، خاف العبيد العامريون على أنفسهم فهربوا إلى شرق الأندلس فإستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية . "

أما فيما يتعلق برواية إبن خلدون فثمة رواية له تؤيد أن ظهور ملوك الطوائف كان فى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، إذ يقول : " وصدق البرابرة القتال فاقتحموها عنوة – قرطبة– سنة ثلاث وأربعمائة ، وفتكوا بهشام المؤيد ، وتوثبت البرابرة والعبيد على الأعمال فولوا المدن العظيمة وتقلدوا الأعمال الواسعة مثل باديس بن حبوس فى غرناطة ، ومحمد بن عبد الله البرزالى فى قرمونة ، .. وصار الملك طوائف فى آخرين من أهل الدولة مثل إبن عباد بإشبيلية وإبن الأفطس ببطليوس ، وإبن ذى النون بطليطلة ، وإبن أبى عامر ببلنسية ومرسية ، وإبن هود بسرقسطة ، ومجاهد العامرى بدانية والجزائر " .

أما رواية المقرى نجد أنه يعطينا تحديدا واقعيا لا مبالغة فيها بالنسبة لظهور ملوك الطوائف سنة ٤٠٣ هـ /١٠١٢ م ، إذ يقول :" ولم يزل الأمر حتى دخل المستعين قرطبة ومن معه من البربر عنوة سنة ثلاث وأربعمائة وقتل هشام سرا .. وتوثبت البرابرة والعبيد على الأعمال فولوا المدن العظيمة وتقلدوا البلاد الواسعة مثل باديس بن حبوس فى غرناطة والبرزالى فى قرمونة ، واليفرنى فى رندة ، وهزرون فى شريش ، وإفترق شمل الجماعة بالأندلس وصار الملك طوائف فى آخرين من أهل الدولة " .

أما بالنسبة لرواية الشطيبى ، فلا بأس هنا من الإشارة إلى ما صوره لنا قلم إبن حيان بوصفه شاهد عيان ، وما سجله لنا من أحداث ، وما آل إليه حال الأندلس من إضطراب وفتنة وتوالى ظهور ملوك الطوائف منذ سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، ويدحض رواية الشطيبى وما فيها من لبس ، فقد روى ما نصه : " بويع – المستعين – بقرطبة منتصف ربيع الأول سنة أربعمائة بعد وقعة كانت له على أميرها قبله محمد بن هشام إبن عبد الجبار الملقب بالمهدى القائم على ال[illegible]رية ، ثم [illegible]ه المهدى بوقعة كانت له عليه ، ثم عاد سليمان إليها فى خبر طويل ، فملك سليمان فى دولتيه ست سنين وعشرة أشهر ، وكانت كلها شدادا نكدات ، صعابا .. فتمخضت عن الفاقرة الكبرى ، وآلت بمن أتى بعدها إلى ما كان أعضل وأدنى ، ممن طوى بساط الدنيا وعفى رسمها ، وأهلك أهلها .

ولما تمت بيعته نفذت عنه كتب إلى نواحى الجزيرة بخبر فتحه قرطبة ، وكانت موشحة بما توشح به كتب الفتوح الإسلامية على دار الحرب فى وصف حال القهر ، وشدة السطوة والإقتدار على الفتك والإستباحة ، فأفرط فى ذلك إرهابا للناس .. فكان ذلك سببا فى تفريق البلاد وتملك أصحاب الطوائف " .

وهناك رواية أخرى فى مصدر معاصر هو كتاب جذوة المقتبس للحميدى يؤكد فيها وجهة نظرى بالنسبة لظهور ملوك الطوائف فى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، إذ يقول:"...إلى أن دخل- سليمان المستعين-قرطبة فى صدر شوال سنة ثلاث وأربعمائة وكانت فى جملة جنده رجلان من ولد الحسن بن على بن أبى طالب ، يسميان القاسم وعليا إبنى حمود فقودهما على المغاربة ثم ولى أحدهما سبتة وطنجة وهو على الأصغر منهما، وولى القاسم الجزيرة الخضراء،...وإفترق العبيد إذ دخل البربر مع سليمان قرطبة فملكوا مدنا عظيمة ، وتحصنوا بها " .

وكان أبرز ملوك الطوائف بنو عباد أصحاب إشبيلية وبنو ذى النون أصحاب طليطلة وبنو زيرى فى غرناطة وبنو تجيب أصحاب سرقسطة ، وغيرهم فكان للصقالبة أكثر بلدان الشرق .

على أى حال فإن ظهور ملوك الطوائف كان نتيجة عدة عوامل من بينها الفوضى والإضرابات التى لحقت بخلافة قرطبة نتيجة ضعف السلطة المركزية منذ ولاية هشام المؤيد ، فقد إستمرت الخلافة الأموية تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية إلى أن جاء المنصور بن أبى عامر وأبناؤه من بعده فإنتزعوا السلطة الزمنية على عهد هشام المؤيد فكان مثلهم مثل البويهيين والسلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية فى بغداد ومثل أسرة بدر الجمالى التى سيطرت على الخلافة الفاطمية فى القاهرة .

كذلك لم يتمتع ملوك بنى أمية الأواخر بالذكاء السياسى فقد تركوا أقاليم الدولة تقـع فى أيدى عناصر الصقالبة والبربر ، وقام بعضهم بتوزيعها عليهم كما فعل سليمان المستعين و لم يلبث هؤلاء أن إستقلوا بها عقب مقتل المستعين .

وعلى الصعيد الإجتماعى ، كان أهل الأندلس يؤلفون أخلاطا مختلفة ، مـن عـرب وبربر وصقالبة ، وأهل البلاد الأصليين سواء كانوا مسلمين أو نصارى وكانت كل هـذه العناصر تميل إلى التكتل فى بؤرات عمرانية خاصة بها ، وعلى الرغـم مـن أن المصـاهرة والمجاورة قربت بين تلك العناصر إلا أنه بقى من مظاهر التناقض ما يكفى لقيام الصـراع فيما بينها إذا ماحانت الفرصة وساعد على ذلك سياسة الدولة الأموية التى تقوم على مبـدأ سيادة الجنس العربى .

ومن العوامل الهامة التى ساعدت على إنهيار الخلافة تدخل ملوك أسبانيا النصرانيـة فى شئون الأندلس الداخلية فقد إنتهزوا فرصة الصراع بين أمراء بنى أمية الأواخر على السـلطة وساعدوا فريقا ضد الآخر لإذكاء الصراع والفتنة وتمزيق جسد الدولة الأموية .

يضاف إلى هذه العوامل سوء الحالة الإقتصادية فى الأندلس نتيجة لإنحـراف بعـض الخلفاء الأمويين عن مبدأ الإعتدال سواء عن طريق فرض الضرائب أو سلب الأموال بالقهر والسطوة ، بالإضافة إلى إستغراق الأندلس فى الفتن والإضطرابات ، الأمر الـذى أدى إلى إنقباض الأندلسيين عن السعى ومن ثم تدهور الحالة الإقتصادية .

أما الصراع الطبقى والأسرى فقد كان عاملا هاما أسفر عن ظهور ملوك الطوائـف ذلك أن الدولة الأموية وضعت ثقتها فى عدد من البيوت القرطبية ذات الأصول العريقـة فتوارثت المناصب وعندما إستبد المنصور بن أبى عامر بالسلطة رأى أن فى هذه الأسر خطرا يتهدد مطامعه فحطمها ، و لم يكن إستخدام المهدى ولا غيره من خلفاء الفتنة للعامـة إلا

مظهرا من مظاهر إنحطاط الخلافة فقد كان هم هؤلاء السلب والنهب مما أجج الصراع الطبقى بين الخاصة والعامة .

ويمكن القول أن هذا العصر كان يموج بألوان من المتناقضات وأن السمة المميزة له هى الإنهيار حيث أحيلت الأندلس إلى مسرح للتناحر العقيم الذى لم يكن وراءه إلا سفك الدماء وإنتهاك الحرم وتداعى الجهاد ضد نصارى الشمال .

وأشرنا فيما سبق أن أهل قرطبة أسندوا رياستها إلى أبى الحزم بن جهور ليكون أمينا على حكمها . وبذلك تأسس فيها نظام أشبه بالنظام الجمهورى حاليا يرأس الحكم فيه أبو الحزم بن جهور ويساعده مستشارون يأخذ بمشورتهم فى المسائل المهمة ، وقد نجح فى ذلك نتيجة لسياسته الإصلاحية سواء على الصعيد الداخلى أو الخارجى يقول ابن حيان "وإستمر ابن جهور فى تدبير قرطبة ، فأنجح سعيه بصلاحها ، ولم شعثها فى المدة القريبة ، وأثمر الثمرة الذكية ، ودب دبيب الشفاء فى السقام ، فنعش منها الرفات ، وألحفها رداء الأمن ومانع عنها من كان يطلبها من أمراء البرابرة المتكنفين لها ، للتوزعين أسلابها ، بخفض الجناح فى المعاملة حتى حصل على سلمهم ، وإستدرار مرافق بلادهم ، ودرأ القاسطين عليه من ملوك الفتنة ، حتى حفظوا حضرته وأوجبوا لها حرمة " .

وفى سنة ٤٣٥هـ/ ١٠٤٤م توفى أبو الحزم فخلفه فى الحكم إبنه الوليد محمد بإتفاق أهل قرطبة وفوض التدبير إلى إبنه عبد الملك فأساء السيرة وحاصره المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة فإستغاث بالمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية فوجه إليه إبنه الظافر سنة٤٦٢هـ/١٠٦٩م فى جيش قوامه ١٣٠٠ جندى ، لكن الظافر غدر بعبد الملك وإستولى على قرطبة وقبض عليه وأرسله إلى إشبيلية ، وفى سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م إستولى الحكم بن عكاشة على قرطبة وأعلن طاعته للمأمون بن ذى النون ، وفى نفس العام تمكن المعتمد بن عباد بمساعدة أهل قرطبة من دخولها وقتل ابن عكاشة وولى إبنه المامون عليها فظل يدبر شئونها إلى أن قتله المرابطون سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م .

أما إشبيلية فتعد من أهم ممالك الطوائف لماقامت به من حركة أدبية وعلمية كبرى فضلا عن إستيلائها على معظم بلاد جنوب وغرب الأندلس ودورها الرائد في معركة الزلاقة ، وأول من جمع زمام الحكم بيده بها قاضيها أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي منذ سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م إلى أن توفي سنة٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م وقد بدأ القاضي ابن عباد سياسته التوسعية في سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م فوجه جيشا قويا للإستيلاء على باجة التي وقع الخلاف بين اهلها على الرياسة ، وإستعان ابن عباد بالبرزالي صاحب قرمونة ، وحاصرت قواتهما مدينة باجة التي إحتلتها قوات عبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس ، وعلى الرغم من استعانة صاحب بطليوس بحليفه ابن طيفور صاحب مرتلة كانت الهزيمة من نصيبهما فقتل عدد وأسر عددا لآخر ، وكان بين الأسرى ولد ابن الأفطس .

وكان هناك صراع بين إبن عباد وإبن جهور صاحب قرطبة فقد كان الأخير يرى أن الإطاحة بيحيى بن حمود من منصب الخلافة ضرورة للإبقاء على سلطته في قرطبة ، مما جعله يعترف في بداية الأمر بهشام المؤيد "المشبه" الذى إعترف به ابن عباد في إشبيلية ثم رجع عن مبايعة المشبه بهشام ، ولعل ابن جهور قد أحس بفتور إبن عباد نحوه ، وسعيه للحد من نفوذه في قرطبة ، ومن ثم شرع القاضي أبو القاسم إبن عباد في تأديب إبن جهور الذى رفض الإنصياع للخليفة الجديد فحاصر الجيش الإشبيلي قرطبة إلا أنه فشل في إقتحام المدينة أو إجبار إبن جهور عن الإعتراف بالمدعو هشام المؤيد .

كذلك لم ينجح القاضي إبن عباد في الإستيلاء على قرمونة و أشبونة وإستجة من يد محمد بن عبد الله البرزالي كذلك لم يستطع الإستيلاء على المرية من يد صاحبها زهير الصقلبي .

وفي عهد المعتضد أخذت إشبيلية في الإتساع على حساب دويلات الطوائف شرقا وغربا ، ودون الخوض في التفصيلات فقد إستولى المعتضد على كل من مدينة لبلة من يد

محمد بن يحيى الأحصبى كما إستطاع فتح عدة حصون من بلد إبن الأفطس وضمـــها إلى إشبيلية سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م وإستولى على إمارة ولبة ، وجزيرة شلطيش من يد عبـد العزيز البكرى سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م كما إستولى على إمارة شنتمرية الغرب من أبـو عبد الله بن هارون سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م . وبذلك يكون المعتضد قد إستولى علـى معظم الإمارات الأندلسية فى غرب الوادى الكبير ثم إستولى على الإمارات البربرية فى شرق الوادى الكبير فى جنوب الأندلس ، ففى سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م عمل المعتضد علـى الإستيلاء على رنده ومورور وشذونة وأركش ، وفى سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م إســتولى على الجزيرة الخضراء .

وعلى الرغم من أن المعتضد بالله قد إنتهج سياسة توســعية علـى حســاب ممـالك الطوائف، إلا أنه أحاط نفسه بكوكبة من الشعراء وتوفى سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م فخلفـه إبنه المعتمد .

وفى عهد المعتمد بلغت مملكة إشبيلية الذروة فى السلطان ودان له كثير من بلدان غـربى الأندلس . ففى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م إستطاع المعتمد الإستيلاء على قرطبة من يـد المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة كذلك إستطاع المعتمد الإستيلاء على مرسية ســنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م .

ومن الجدير بالذكر أن المعتمد بن عباد كان يقدم الإتاوات السنوية لملوك قشتالة وليون مثل أبيه وباقى ملوك الطوائف وكان من أبرز شعراء الأندلس وإجتمع له من الشعراء مـا لم يجتمع لأى حاكم أندلسى وقد إستقدم المرابطين للدفاع عن الأندلس ثم عزله المرابطون سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ونفاه يوسف بن تاشفين إلى أغمات فى المغــرب وتــوفى بهـا ســنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م .

ومن الممالك التى قامت فى جنوب الأندلس مملكة غرناطة ،وأول أمرائهم زاوى بن زيرى الذى هزم خيران العامرى صاحب المرية حين بايع المرتضى المروانى بالخلافة ثم رحل إلى المغرب فخلفه ابن أخيه حبوس بن ماكسن ٤١٠هـ-٤٢٩هـ وولى على غرناطة إبنه باديس وإستطاع أن يهزم زهير العامرى صاحب المرية وقتله سنة ٤٢٩هـ وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين وظل على غرناطة إلى أن سلمها ليوسف بن تاشفين سنة ٤٨٣هـ .

أما سرقسطة أو الثغر الأعلى فقد كان يحكمها أول الأمر التجيبيون وأولهم أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود (٤٣١ -٤٣٨هـ/١٠٣١-١٠٤٦م) وكان يسيطر على سرقسطة وطليطلة ووشقة ولاردة أى عواصم الثغر الأعلى الأربعة . وقد ظل بنو هود يحكمون سرقسطة أو مابقى منها حتى حاول الفونسو السادس ملك قشتالة وليون الإستيلاء عليها ولكنه إرتد عنها سنة ٤٧٩هـ عندما علم بعبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبعد إستيلاء المرابطين على بلاد الأندلس تركوا سرقسطة فى يد بنو هود إلى أن تملكها المرابطون سنة ٥١٢هـ فدخلها الفونسو المحارب ملك أرغون .

ومن الممالك المهمة فى موسطة الأندلس مملكة طليطلة ثار فيها زمن الفتنة أواخر الدولة الأموية قاضيها أبو بكر بن يعيش الأسدى ثم عزل وحكمها عبد الرحمن بن متيوه فثار عليه أهل طليطلة وتملكها اسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون (٤٢٧-٤٣٥هـ/١٠٣٥-١٠٤٣م) ثم ولى إبنه يحيى الملقب بالمأمون حكم طليطلة (٤٣٥-٤٦٧هـ/١٠٤٣-١٠٧٤م) ، وقد خاضت طليطلة فى عهده سلسلة من الحروب مع سرقسطة وإشبيلية ، وخلف المأمون حفيده القادر وكان سيىء التدبير وسادت طليطلة الفتن والإضطرابات لقلة خبرته وضعفه وتعنت العبيد والموالى على أمره وتعرضت طليطلة لغارات إبن هود ولما إشتد الفتنة فى طليطلة طلب القادر عون وحماية الفونسو السادس وإنتهز الأخير هذه الفرص وإستولى على طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م .

وأحدث سقوط طليطلة دويا هائلا فى الأندلس والعالم الإسلامى ، وأصبحت أراضـى المسلمين فى الأندلس فى مهب الريح فقد إزدادت رقعة مملكة الفونسو السادس إذ إسـتولى على جميع أراضى طليطلة الممتدة شمالى نهر التاجو بين مدينة طلبيرة غربا ووادى الحجـارة وشنتمرية شرقا .

وإستفحل خطر الفونسو وصار يخاطب ملوك الطوائف متخذا لقب الإمـبراطور ذى الملتين الملك المفضل وأقسم لهم " أنه لايترك فى الجزيرة من الثوار أحد ، ولايبق لهم ملتحدا سوى من اكتنفته رعايتى وشملته عنايتى " .

وأيقن ملوك الطوائف وفى مقدمتهم المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطـس أن بقـاء الدويلات الأندلسية أصبحت مطمعا لنصارى الشمال ولاسيما أن الفونسو شـدد مـن ضغطه على تلك الدويلات الأندلسية خاصة إشبيلية فقد هاجم أراضى المعتمد بـن عبـاد وحاصره فى قصره ومن ثم إستنجد المعتمد وملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين الذى جـاز بقواته إلى الأندلـس للجـهاد ضـد نصـارى أسـبانيا فى شـهر ربيـع الأول سـنة ٤٧٩هـ/٣٠يونيو ١٠٨٦م ، واستطاع المسلمون هزيمة النصارى فى معركة الزلاقـة فى يوم الجمعة ١٢رجب سنة ٤٧٩هـ/ ٢٣أكتوبر سنة ١٠٨٦م .

وكان لنصر الزلاقة نتائج هامة ، فبالنسبة لبلنسية فقد كانت على وشك السـقوط فى يد القوات القشتالية بقيادة البرهانس فإضطر الى الإنسـحاب والإنضمـام إلى القـوات النصرانية ومن ثم إمتنع أهلها عن دفع الجزية لألفونسو كما حطم نصـر الزلاقـة آمـال وأطماع الفونسو فى الإستيلاء على أراضى بطليوس ، وبالنسبة لإشبيلية فقد زالت فكـرة ألفونسو فى التوسع على حسابها فضلا عن إمتناع المعتمد عن دفع الإتاوات السنوية لـه ، وعلى الجملة فقد كان إنتصار المسلمين فى الزلاقة انتصارا للتحالف الأندلسى المغربى .

بنو الأحمر فى غرناطة
(٦٣٥-٨٩٧هـ/١٢٣٨-١٤٩٢م)

فى نهاية الدولة الموحدية سقط كثير من المدن والقواعد الأندلسية فيما بين سنة ٦٣٣ وسنة ٦٤١هـ/١٢٣٦-١٢٤٣م سقطت قرطبة وإشبيلية وجيان ومرسية وبلنسية والجزائر الشرقية فى يد ملوك النصارى ، ففى سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م سقطت قرطبة فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس وبعد سقوط هذه القواعد تجمعت بقايا المسلمين فى الأندلس تحت قيادة محمد بن نصر بن الأحمر وإتخذ من غرناطة مقرا لمملكة صغيرة بدأ تاريخها فى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م .

إمتد سلطان ابن الأحمر فى الشرق إلى مالقة والمرية ولورقة وجنوبا حتى جبل طارق والجزيرة الخضراء ولبلة وشريش فى الجنوب الغربى لغرناطة ومكن له من تثبيت حكمه حنكته السياسية وطول مدة حكمه حتى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م .

وإتخذ محمد بن يوسف بن الأحمر سياسة تقوم على تقوية [illegible] فـ إهتم بتشييد المعاقل والحصون وحماية الثغور وبناء البيمارستانات لعلاج المرضى وإهتم بالزراعة والصناعة .

وبعد وفاة محمد بن نصر خلفه إبنه محمد الملقب بالفقيه (٦٧١-٧٠١هـ/١٢٧٣-١٣٠٢م) ، وقد كان هذا الرجل قريبا من أبيه فى الصفات ، جنديا، شهما ، رافضا للدعة والراحة ، مباشرا للحروب بنفسه ، يلبس الخشن ويؤثر البداوة ، وسرعان ما هاجمه ملك ليون الفونسو العاشر الذى تولى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م فإستنجد بالمنصور عبد الحق ملك المرينيين فى المغرب فأرسل إليه قوة كبيرة والتقى الجمعان عند إستجة سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م ، وقد استعد المسلمون للمعركة

استعدادا عظيما وقاد مقدمة الجيش الإسلامي ولى عهد بنى مرين الأمير يوسف بن أبي يوسف عبد الحق المريني ، وتحمس المسلمون حماسا عظيما وخطبهم السلطان المريني ليزيد من حماسهم ، فانقضوا على القوات النصرانية فمزقوا قوات قشتالة شر ممزق ، وإنتصر المسلمون انتصارا عظيما ، وإتفق محمد الفقيه وسلطان بنى مرين على أن تقيم فى مملكة غرناطة قوة مرينية برئاسة مريني يسمى شيخ الغزاة ، وإتفق على أن تكون مدينة مالقة مقرا له ، وعبر المنصور المريني مرارا إلى الأندلس وإشتبك مع القشتاليين حتى أذعنوا لمسالمة محمد الفقيه .

وبعد وفاة الفقيه سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م خلفه إبنه أبي عبد الله محمد الثالث الملقب بالمخلوع سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩م وولى بعده أخوه نصر حتى سنة ٧١٣هـ/١٣١٤م إذ تنازل لإبن عمه إسماعيل وإلتقى بالقشتاليين سنة ٧١٨هـ/١٣١٩م ، إذ تقدمت قوات نصرانية كبيرة نحو غرناطة بجيش ضخم يقوده دون بترو ، ودون خوان الوصيين على ملك قشتالة الصغير ألفونسو الحادى عشر الذى خلف أباه شانجو الرابع ، وإنضمت إلى قواتهما قوات كبيرة من الصليبيين وكان اللقاء قرب غرناطة ، وكان شيخ الغزاة هو أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء .

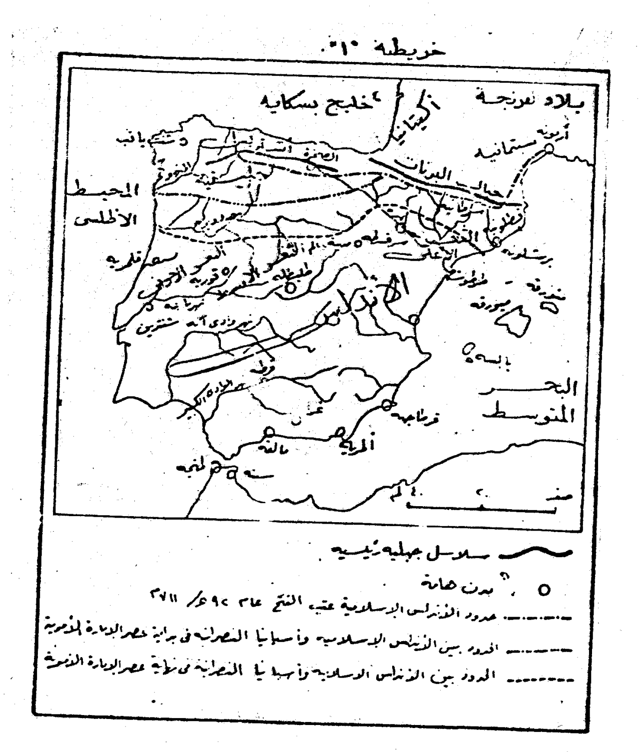
وقد إنتصر المسلمون فى هذه المعركة وتمكن إسماعيل النصرى من الحفاظ على أراضى مملكته وأغتيل سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م ، ويعتبر هذا الرجل من أكفأ من تولى عرش غرناطة وإليه يرجع الفضل فى إقامة الكثير من منشآت الحمراء . وقد خلفه إبنه أبو الحجاج يوسف ، ويعتبر آخر الكبار من ملوك غرناطة ، فقد بذل أقصى جهده فى المحافظة على بلاده من عدوان مملكة قشتالة ، إلا أن مملكة غرناطة ما كانت لتصمد إلى النهاية وحدها أمام الضغط النصرانى المتزايد فضلا عن إختلاف أفراد البيت النصرى بعضهم على بعض وإستعانة بعضهم بملوك قشتالة ، ثم توتر العلاقات بين سلاطين غرناطة ومشيخة الغزاة . ففى سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م تقدمت قوات نصرانية من القشتاليين والبرتغاليين والأرغونيين وسارت إلى مدينة طريف الإستيلاء عليها لقطع

الطريق بين الأندلس والمغرب ، وقد إتخذ أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المريني إستعدادهما لملاقاة النصارى إدراكا منهما لأهمية تلك المعركة ، لكن النصر لم يحالف المسلمين ودارت عليهم هزيمة حاسمة هي هزيمة طريف وعقب تلك الهزيمة سقطت طريف ومهد الطريق لسقوط جبل طارق . وقد أغتيل أبو الحجاج يوسف سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٥م .

وقد خلفه إبنه محمد الخامس وقد إهتم بالعمارة وكان له القسط الأوفر من منشآت قصور الحمراء وتوفى سنة ٧٩٣هـ وكانت علاقته ودية مع القشتاليين وبالمثل علاقات إبنه يوسف وحفيديه محمد ويوسف المتوفى سنة ٨٢٠هـ وتلا يوسف أمراء ضعاف وإستطاع القشتاليون الإستيلاء على جبل طارق سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م وكان ذلك في أيام أبي عبد الله محمد بن أبي الوليد إسماعيل الملقب بالغني بالله .

وعجل بنهاية بنو الأحمر زواج فرناندو الرابع ملك أرغون والملكة إيزابيلا الثانية ملكة قشتالة فتعاونا على القضاء على مملكة غرناطة فهاجمت قواتهما غرناطة وضربا عليها الحصار وفي النهاية عقد محمد ابن أبي الحسن على الذى يعرف باسم أبي عبد الله (٨٨٧-٨٩٧هـ) معاهدة التسليم مع ملكي قشتالة وليون في ٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ/نوفمبر١٤٩١م أما دخول فرناندو وإيزابيلا مدينة غرناطة فكان في ربيع الأول ٨٩٧هـ/٢يناير ١٤٩٢م .

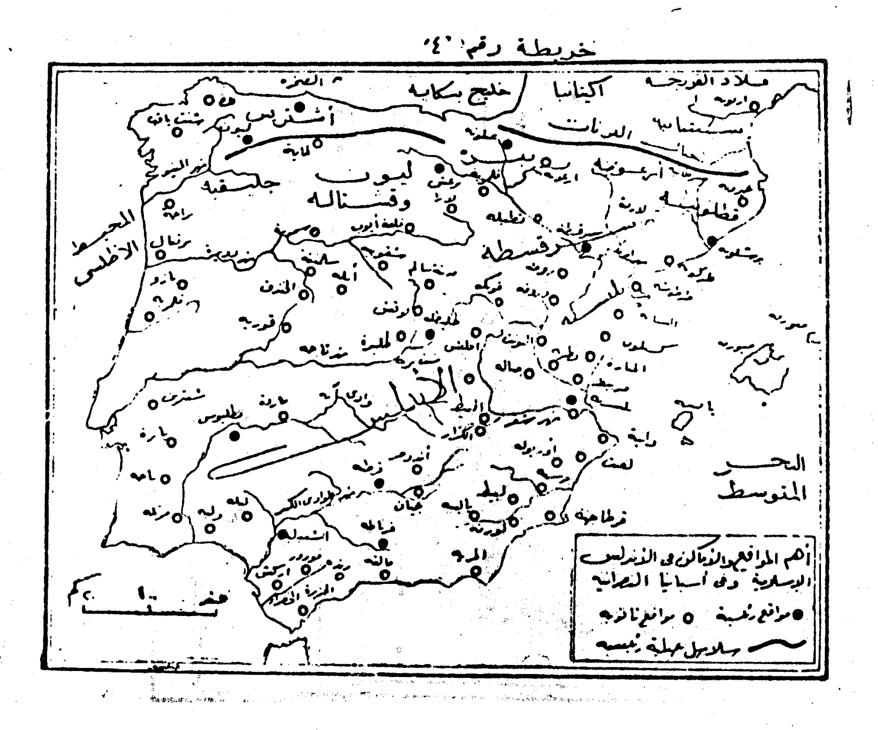
خريطة ١٠


بلاد غوزجة
خليج بسكاية
المحيط
الأطلسى
جبال البرنات
أربونة
برشلونة
طرطوشة
ميورقة
بلنسية
البحر
المتوسط
الأندلس
قرطبة
قرطاجنة
المرية
مالقة
سبتة
طنجة
سلاسل جبلية رئيسية
مدن هامة
حدود الأندلس الإسلامية عقب الفتح عام ٩٢هـ/ ٧١١م
الحدود بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى بداية عصر الإمارة الأموية
الحدود بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى نهاية عصر الإمارة الأموية


خريطة رقم ٢
بلاد الفرنجة
خليج بسكاية
سلاسل جبال
مدن هامة
الحدود بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى نهاية عصر الخلافة الأموية
الحدود بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى نهاية عصر ملوك الطوائف


خريطة رقم ٣
بلاد الفرنجة
أكيتانيا
خليج بسكاية
جبال البرت
البحر الأطلسي
البحر المتوسط
بطليوس
قرطاجنة
المرية
مالقة
الجزيرة الخضراء
سلاسل جبلية
مدن
الطرق البرية بين قرطبة وبين ممالك أسبانيا النصرانية
الطرق البحرية بين قرطبة وبين ممالك أسبانيا النصرانية

خريطة رقم (٤)

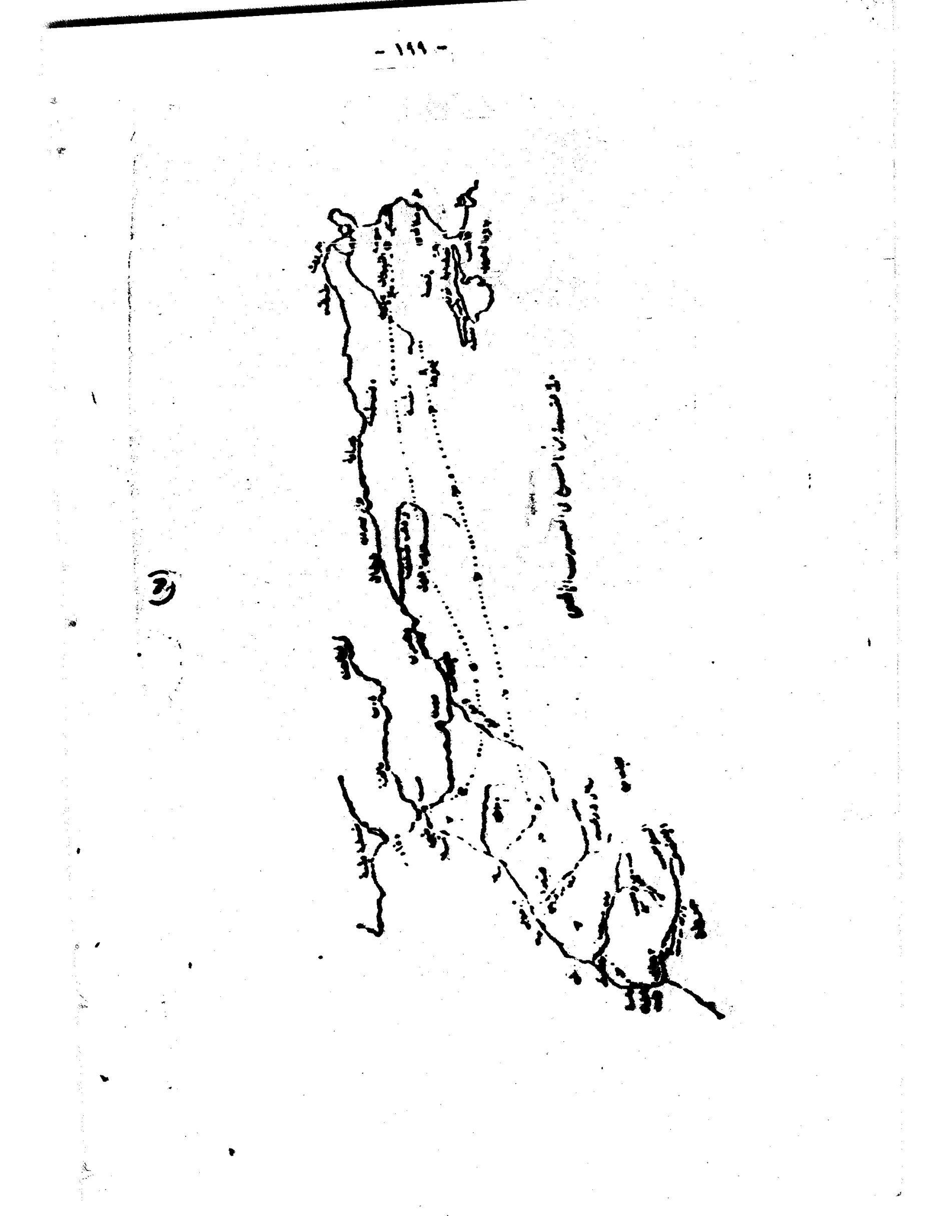


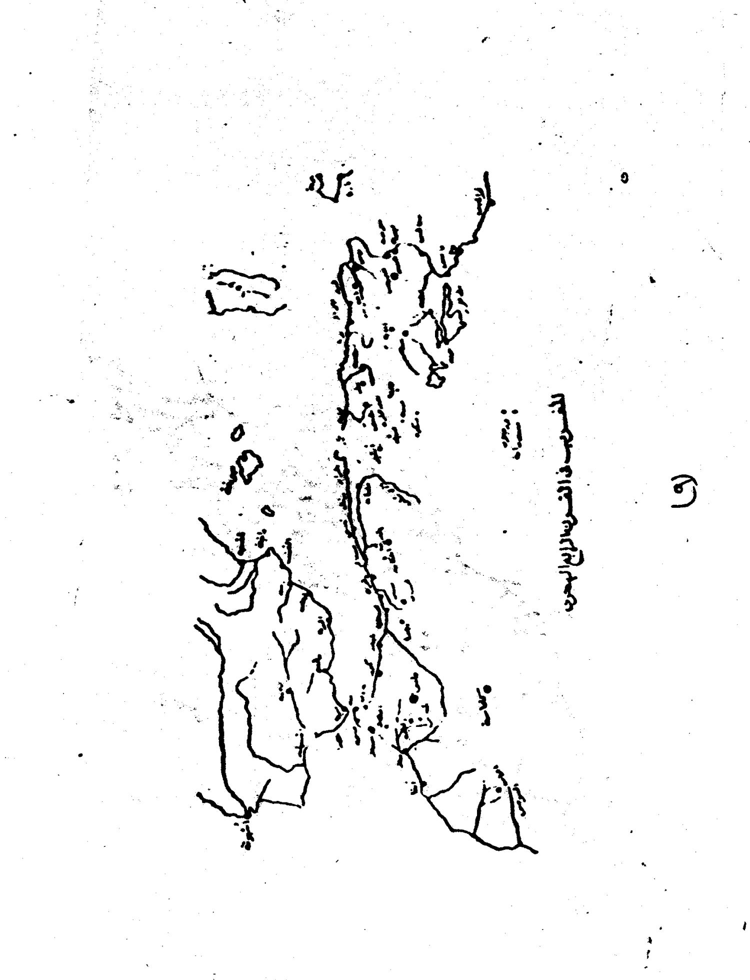
أهم المواقع والأماكن في الأندلس
الإسلامية وفي أسبانيا النصرانية
● مواقع رئيسية ○ مواقع ثانوية
سلاسل جبلية رئيسية
البحر
المتوسط
المحيط
الأطلسي
خليج بسكاية
أكيتانيا
بلاد الفرنجة
البرتات
أشتوريس
جليقية
ليون
وقشتالة
سرقسطة
الأندلس
قرطاجنة

بلاد المغرب

(٥)

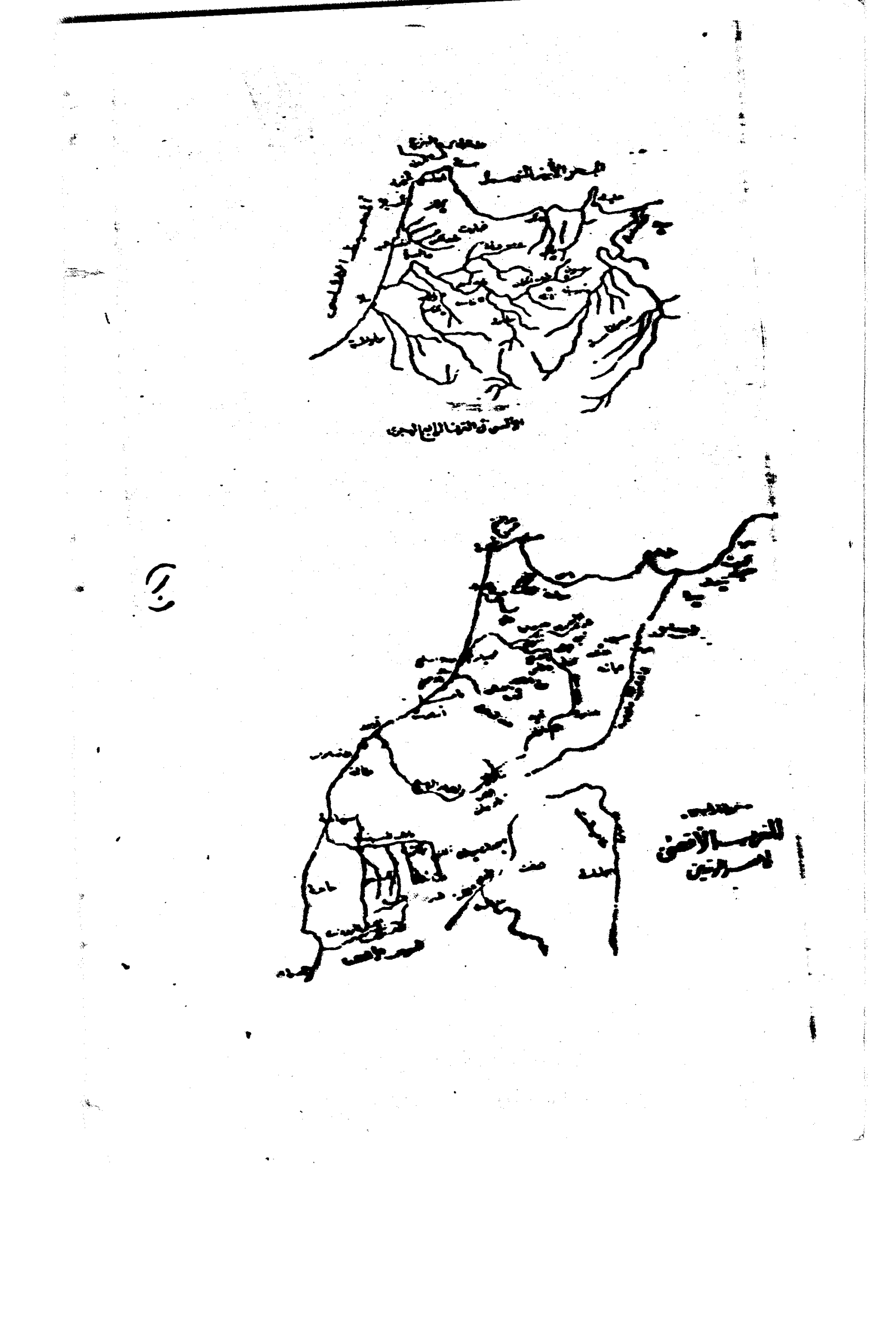






المغرب في القرن الثاني الهجري

(٥)



الفهرس